أزهار الندى هجرها

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان: مدينة العبور - الحي السادس، فيلا ٨، مدخل ١

هاتف: ١٠٠٣٢٨٨٥٩٦ (٠٠٢٠)

بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

عنوان الكتاب: أزهار هجرها الندى (رواية)

اسم الكاتب: أحمد الحسيني

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف: يوسف خالد الشامي

دققه وحرره لغويًا: إسلام م. صديق

مراجعة: أحمد الحسيني

تنسيق وإخراج داخلي: سليل الفراعنة

رقم الإيداع: ٢٢٨٢٣ / ٢٠٢٠

I.S.B.N | 978-977-6794-64-1

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

رواية

أزهـــــار

هجـرها الـنـدى

الكاتب

أحمد الحسيني

دريم بن
للترجمة والنشر والتوزيع والطباعة

إهداء

إليك وعنك يا حبيبة الماضي ووجع الحاضر أكتب

إن قرأتِ لي يوما أو مررتِ من هنا أينما كنت

فتذكري أنه لن يحبك أحد كما أحببتك أبدا

أتمنى أن تقرأي لي يوما وأنت مبتسمة

لتعـلمي أن وجـــع فراقـــــك

لا يزال يلهمني كفرح لقائك

أحمد الحسيني

*

صديقي الكاتب أحمد الحسيني،

أكتب إليك اليوم لتكتب قصتي التي أخبرتك بها يوما وكنتَ أنت أيضا حاضرًا بعض فصولها، سألتني يومها أن تكتبها، وأخبرتك أنها لا تستحق الكتابة؛ لأن فصولها لم تكتمل وقتها، ولم يكن ذلك حقيقة هو السبب، بل لأنني يومها كنت لا أزال مسافرا في جفاف مراحل عاطفية ووجدانية أبحث عن نهاياتها.

حينها يا صديقي كنت أجدف بيدي المجردتين وسط أمواجِ فراقٍ عاتية، حطمتْ كل مراكبي، كنت أبحث عن شواطئ رسوٍ تستكين بها لهاث أنفاسي المتعبة.

كنت يومها أبحث عن انتقام يبرئ جراحي، وكم تكون الجراحُ مؤلمة إن كانت ممن نحب! فهي تستنزف سنين من أعمارنا لا لتبرأ، فهي لا تبرأ أبدا، بل لتهدأ؛ ليخفت ألمها؛ لنجرؤ على البوح بمواضعها في وجداننا، بحثا عن دواء يخفف حدة أوجاعها.

كنت أحاول أن أسامحها؛ لأسامح نفسي، لأتمكن من الحياة، لتصفو أنفاسي من تنهدات حرَّى تنازعها صدري، كنت أبحث بين ركام حبها، وأطلال ذكرياتها، عن قلبي الذي رحل معها، وسكن مكانه خواء يُسمع فيه صرير أنات موجعة.

وكما وعدتك أنه إن قدر لها أن تكتب يوما، فلن يكتبها غيرك، ليس لأنك روائي فقط، بل لأنك شاعر ستكون قادرًا أن تتلبس مشاعري وأنت تكتب فصولها، بل أنني أثق أنك ستكون (أنا)، فتصوغ من أسرار وجعي التي أودعتك إياها، ومن بوح "أزهار" التي حكتْه لك دموعها؛ قصة حبنا التي كنت أنت أقرب شهودها.

اكتب عنا يا صديقي؛ ليسمع هذا العالم الذي ملأته المدنية ضجيجا زائفا، أنه لا يزال هناك قصص حب صادقة، تكسوها عذرية تلامس حدود الكمال وفاءً وصفاءً، اكتب عن ندايٍّ وأزهارها، عن حب أبديّ صنعته الأقدار من كل أضدادها.

اكتب عن قصة حب عبرتْ كل الهويات العاطفية والمجتمعية والجغرافية، قصة نبتتْ بذورها تحت ظلال شجرة جبلية في قرية منسية على أحد سفوح جبال اليمن، نمت لتمتد فروعها من الخليج إلى المحيط، لتشهد فصولها مدنا كثيرة، فغنت للقاء في حواري عدن، وتأوهت من الفراق على مسارح بيروت، وكتبت أوجاعها شعرا على شواطيء ألإسكندرية، وتشاركت أحلامها في أرياف تاوريرت، لتحط أخيرا بكل أطرافها وأحلامها وأوجاعها وآلامها في دبي، مدينة التسامح والسلام.

اكتب عن شاعر عشق فنانة إلى حدود الهيام، فصنع من حبها تمثالا يلمعه بقلبه كل يوم، ويغسله بدموعه كل حين.

اكتب عن فنانة أحبت شاعرا بكل ما فيها، حتى أوصت أن يتركوا باب الضريح مواربا عله يعود إليها حتى بعد الرحيل الأبدي.

اكتب أن للعاشقين قلوبا طيبة لا تؤذي أحدا سوى أنفسهم، اكتب رسالتنا لكل العاشقين ليعلموا أن لحظة لقاء واحدة تستحق عمرًا كاملا من الانتظار.

الشاعر: نديم الهجر

دبي ٢٠ مايو ٢٠٢٠

* * * *

(1)

قطـرات السـماء تـداعب وجـه الأرض، فتغتسـل الجبـال الشـاهقة بمزن السماء، تتساقط شلالات كثيرة تزدان بها خواصر الجبال، وتتلقفها متون الوديان، لتنساب سيولا في جداولها تمنح الأرض حياة فوق حياة تسري في شريان (السواقي)، ذلك التصميم الهندسي البدائي والبديع في آن واحـد، نظـام ري مـتقن ابتكـره الفلاحـون يـوزع الميـاه بـين الحقـول الكثيرة؛ ليأخذ كلا منها نصيبه المحدد بحسب مساحته.

تتوقـف قطـرات السـماء لتشـرق شمسـها، فتمـنح المشـهد بدائعيـة مذهلـة، قـلَّ أن يُـرى مثلهـا سـوى هنـا فـي قريـة (الجبـل)، هـذه القريـة الصـغيرة المندسـة بـين سلاسـل جبـال الحمـراء فـي وسـط اليمن، قريـة للوهلة الأولى تبدو كأنها منسية خارج الزمن؛ فصعوبة الطريق الموصلة إليهـا وبعـدها عـن كـل مظـاهر التمـدن يجعـلان مـن يراهـا يتسـاءل: كيـف وُجدت من الأسـاس؟! وبمَ كـان يفكـر مـن اسـتوطنوها للمرة الأولـى؟! أو كيف ظنوا أنها ستشرق بها حياة؟!

لكن من يسكنونها اليوم يرون أنها تنبض بحياة كاملة كيفما كانت، هي حياتهم - وإن لم تكن خيارهم - فهنـا ولـدوا، وهنـا ارتـبط أجدادهم بهـا جسديا وروحيا إلى حدود الذوبان، تشكل هويتهم ووجودهم، تشربوا حبهـا مع رشفات مياهها التي يروون بها عطشـهم مـن تلك العين الوحيدة فـي أسفل الجبل، والتي يتركها الأهالي لـيلا ليتجمـع ماؤهـا الـذي ينـز مـن بـين

الصخور بما يكفي صباحا لكل سكان القرية، ثم يوزعونه حصصا معلومة لكل بيت بحسب عدد قاطنيه.

دار الحاج هو اسم بيت من بيوت القرية، بل هو البيت الأهم فيها، فهو بيت الشيخ "سعيد"؛ شيخ قرية الجبل الذي تتجاوز شهرته حدود القرية إلى القرى المجاورة، بل لبعض المدن البعيدة، شهرة أتته نتاج حكمته وشجاعته التي تجلت في مواقف كثيرة، سطرها في سنوات عمره التي تجاوزت الستين وحفرت في الذاكرة الجمعية للقرية.

لكن تسمية البيت تعود لسبب آخر لا علاقة للشيخ "سعيد" به، بل بوالده الذي كثرَ ذهابه إلى الحج في زمنه، كما ناب عن الآخرين لتأدية المناسك، حيث كان الوحيد الذي يملك القدرة والمعرفة لذلك، وقد ارتبطت مناسبات توديع الحاج واستقباله ارتباطا وثيقا بالدار، حيث يزوره الأهالي في الليلة التي تسبق سفره يودِّعونه من جهة، ومن جهة أخرى يُودِعونه حاجاتهم الروحية والمادية، فيؤديها لهم عن طيب خاطر مرددين تلك التواشيح المملوءة شجنا وروحانية واشتياقا لرؤية بيت الله، وعند عودته يسمع صدى الزغاريد تزلزل الدار، فرحًا بعودة الحاج الذي يوزع الكثير من الهدايا كالمسابح، والثياب البيضاء، والكثير من المناشير الورقية بلغات مختلفة، لا يفهم الأهالي ما فيها، ويكتفون فقط برمزيتها الدينية والمعنوية، لكن أجمل تلك الهدايا - وهو ما كان من نصيب الخاصة فقط - (الناظور)، وهو منظار صغير أحمر اللون يوضع بداخله من الأعلى قرصٌ كرتوني دائري، به ثماني صور صغيرة للكعبة

المشرفة وما حولها، وبما يشبه عدستي تكبير يقوم المشاهد بوضع المنظار على عينيه، وتقليب تلك الصور بمقبض جانبي صغير باستخدام السبابة، وكان لذلك متعة لا يضاهيها شيء آخر وقتها.

هذه الدار كانت تأخذ النصيب الأكبر من ماء العين بما يكفي لسكانها الكثيرين ومرتاديها فهي دار الشيخ، وقلما تمر أوقات لا يكون بها مناسبة أو وليمة.

في ثمانينيات القرن العشرين عصفت باليمن حرب أهلية عبثية، بين الجنوب والشمال رسميا، لكن واقع الأمر أنها حرب بالوكالة بين قوى انتهازية ومراكز نفوذ متصارعة، وَجَدَ أهالي المنطقة أنفسهم في خضمها، فقط لأنهم على الحدود الفاصلة بين شطري اليمن.

الجبهة الوطنية تمثل الجنوب الشيوعي، وانضم إليها بعض أبناء المنطقة متأثرين بشعاراتها الثورية، والشمال القبلي مُمَثَّلًا ببعض فصائل جيش نظامية وبعض شيوخ القبائل، هكذا بدأت الحرب على الأقل، إلا أنها في مراحل لاحقه تحولت إلى عبث مفرغ من كل شعارات البدايات الزائفة؛ صارت صراعات شخصية وتصفية حسابات فردية وجماعية، وثارات اختلطت فيها المفاهيم، وتداخلت السياسة مع القبيلة في انتهازية طاغية، ليتشكل ثالوث مدمر، راح ضحيته الكثير من أبناء المنطقة التي كانت ساحة الصراع الأساسية، تدفع الثمن من أبنائها في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، فطرفا الصراع الحقيقي في صنعاء وعدن.

الجبهة الوطنية تقتل من تشتبه في ولائه للشمال، بل كانت تقتل من ترغب في قتله بسبب وبلا سبب، وفصائل الشمال كذلك، وانتهت هذه المأساة بأسوأ سطورها في تاريخ المنطقة، حيث نزلت كتائب من الشمال تسمى المظلات بدعوى القضاء على تمرد الجبهة الوطنية، لكنها في حقيقة الأمر قضت على كل شيء.

أدرك الشيخ "سعيد" عبثية هذه الحرب، فالتزم الحياد، ومع ذلك عانى الأمرين مع طرفيها، فظل صامدا كأشجار الأثل الشامخة أمام العواصف، كان همه الأول أن يجنب قريته والقرى المجاورة ويلات الصراع، ظل محافظا على قيم الدين والقبيلة، والتي هي بالنسبة له أسمى من عبث الساسة والعسكر، ورغم أنه نجح في ذلك إلى حد كبير، إلا أنه أيضا دفع ثمنا باهظا، ففي خضم هذه الحرب قُتل ابنه الوحيد "علي" الذي رأى فيه نفسه، وأعده ليكون الشيخ القادم من بعده.

اعتنق "علي" مبادئ الناصرية، تأثر في بداياته بأفكار الجبهة الوطنية التي صادفت هوى في ثوريته، فانضم إلى صفوفها مقاتلا، وفى اندفاعه وثوريته لم تجد تحذيرات والده الحكيمة صدى لديه، ولا توسلات زوجته المشفقة أَجَدَتْ نفعًا لتثنيه عما أراد، كان يظن أنه على صواب، وأن الثورة تحتاج إلى تضحيات جسيمة لتحقق أهدافها، هذا في سنواته الأولى مع الجبهة، إلا أنه مع الأيام تكشف له زيف تلك الشعارات، وأن وراءها مراكزَ قوى تنفذ أجندتها الخاصة، وتستغل خليطا من الشعور

بالظلم والفقر، مع وعود بالعدل والمساواة، لتزج بأبناء الطبقة الكادحة في حروب تخدم مصالحها.

مبادئ "علي" الصادقة، وتربيته التي لا تقبل الخداع، وأنفة البدوي جعلوه يأبى كل ذلك، فاعترض كثيرا أمام قياداته، وتبرم أكثر أمام رفاقه، كان يأمل في التغيير من الداخل والعودة إلى الطريق الذي رسمته شعارات النضال، ولم يعلم حينها أنه كان واهمًا.

من يديرون رحى هذا العبث رأوا فيه خطرا عليهم، فاستدعته القيادة العليا للذهاب إلى عدن ولم يعد، هناك قُتل برصاص أحد قادته، كما قيل لوالده، عندما رفع سلاحه اعتراضا على إعدام شخص برئ، وكان لوقع مقتله أثرٌ كبير على الجبهة، فهو أحد قياداتها الميدانية؛ لذا تمرد الكثير من رفاقه بعد مقتله، وتأثيرٌ أكبر على المنطقة، فهو ابن أحد شيوخها البارزين، وقاتله عَرفَ أنه سيُقتل إن غادر عدن، فالقبيلة لا تترك ثأرها.

أصبحت عدن رمزية موجعة لدى الشيخ "سعيد"، لكنها كانت أشد وجعا لـ"عائشة"، حيث رأت فيها نهاية أحلامها، واغتيالًا للفرح بفقدانها الزوج الحنون والحبيب العزيز، فقدت رغبتها في الحياة، إلا أن حياة أخرى تنبض في أحشائها أجبرتها على الصمود إلى حين.

في إحدى الليالي بعد مقتل "علي" بشهور، أرعدت السماء وبرقت، معلنة أنها ستمطر بغزارة، تلك الليلة لم تكن كأية ليلة في قرية

الجبل، وخصوصا في دار الحاج؛ فقد اجتمع نسوة القرية داخل الدار وبعض رجالها في الخارج، صرخات المرأة القادمة من الداخل تقاطع صوت الرعد وتعلن عن مجيء حياة جديدة إلى هذه الدار التي فقدت حياة قبل أشهر قليلة، تعلن عن ولادة فرح بعد طول حزن، ها هي الليلة زوجة "علي" تكابد آلام المخاض، والكل مستعد لاستقبال المولود الجديد، فالحدث استثنائي لأنه امتدادا لحياة اختطفتها يد المنون.

اعتكف الشيخ "سعيد" في مصلاه الخارجي ممسكا مسبحته، يعتريه فرح مشوب بحزن، وأمل مخنوق بألم، ورضا يخالطه رجاء، يدعو الله أن تلد بسلام زوجة ابنه الراحل، ويناجي الله مخلصا أن يري حفيدا يعيد إليه "علي" الذي فقده، جال بخاطره الكثير من الذكريات عن تلك الليلة التي ولد فيها "علي"؛ الدار هي الدار، لكن المشاعر مختلفة، تلك الليلة كانت الفرحة حاضرة فقط عندما بُشِّر بولادة صبي بعد خمس فتيات، أما الليلة فالفرحة مكتسية بدموع وألم؛ دموع رجاء، وألم رحيل، ففي ليلة كهذه أيضا علم بمقتل "علي"، وبين ليلة ولادته وليلة رحيله، بين فرح الولادات وحزن الرحيل، مر الكثير، حياة كاملة عاشها "علي" طفلا يداعبه، وشابا يعلمه، ورجلا بحق كما تمنى أن يكون، إلا أن القدر فجعه برحيله، فانكسر الشيخ، ولم يعد كما كان، وإن أخفى ذلك عن الجميع.

كم هو قاس عندما يدفن الأب ابنه، كأنها غير سنن الكون، وبقدر ما كان ذلك مؤلما، كان الله رحيما بالشيخ حيث ترك له من "علي" "علي" آخر، ربما تكون فتاة، لم لا؟! فلله ما يشاء.

بين ابتهال وتضرع، نجوى ورجاء، بين أمنيات وإيمان، بين أقدار محتومة ونفس بشرية ضعيفة كم يتمني أن يكون المولود ذكرا، لكنه رجل مؤمن لن يعترض ولن يسخط، سيحمد الله على كل حال.

-أبي، أبي، البشارة...

صوت كبرى بناته يقطع عليه حبال أفكاره، فانتشل نفسه من بين تلابيبها:

-لكِ البشارة يا وجه السعد.

قالها بصدق، فقد كانت هذه البنت من تحمل أخبار الفرح دائما.

-ولد يا أبي، ولد.

كررت المفردة؛ لتؤكد لوالدها ما تعلم جيدا أنه يتمنى أن يسمعه

-الحمد لله .. الحمد لله.

سجد سجدة شكر، ثم نهض يركب خطواته باتجاه الدار؛ ليرى المولود، ويؤذن في أذنيه، سيرى فيه "عليًّ"، ويسميه "عليًّ" كأبيه، ثم تذكر أن "علي" أراد أن يسمي المولود "خالد"، إذ أخبره يوما أنه يحب أن يُنادى بـ"أبي خالد" من فرط حبه للزعيم العربي "جمال عبد

الناصـر"، "أبـو خالـد"، لـم لا؟! فلـيكن "خالـد" كمـا أراد والـده، فـالخلود أيضـا هو امتداد في اللغة وسيكون امتدادا في الحياة.

❋ ❋ ❋ ❋

(2)

أحداث كثرة تمر في حياة البشر بعضها يعلق في الذاكرة الواعية، وبعضها الآخر في اللاواعية أيضا، منها ما يكون حاضرا في الذهن، فيتذكره الإنسان عندما يريد، ومنها ما يكون في اللاوعي يحضر إلى الذاكرة عندما يستثيره باعث ما، بينما بعضها الآخر يذهب إلى غياهب النسيان تماما، وكأنه لم يحدث يوما، خفايا العقل في أحيان كثيرة لا تكون مفهومة، فما الذي يثبِّت ذكرى ما؟! وما الذي يمحو غيرها؟! الشيخ وهو يرى حفيده ذاهبا إلى المدرسة في يومه الأول شعر وكأنه مر بهذا الموقف من قبل، أو هي إعادة لموقف سبق أن رآه، لكنه لا يتذكر أين ومتي، فقط يجد نفسه يشعر هكذا .

تقدم نحو حفيده الذى يبدو سعيدا بملابسه الجديدة، وحقيبته التي يحملها خلف ظهره؛ ليطبع قبلةً على خده، قبلةً أودعها حبا يختزله قلبه لراحل فطر قلبَه رحيلُه، ولقادم سيبرئ جراح قلبه الذي لا يزال يحمل وجعا لا يُنسى، قبلةً حملها حنان أب يطغى على كل مشاعر اليتم التي قد يشعر بها الحفيد يوما، وعاطفة تسمو فوق كل الكلمات أن تصفها.

-ولدي بطل.

قال للحفيد مشجعا كونه اليوم سيغادر محيطه الصغير نسبيا، فالمدرسة التي سيذهب إليها بعيدة قليلا عن القرية، يستغرق الوصول إليها بين الوديان والهضاب الصغيرة حوالي ساعة، مدرسة تتوسط

خمس قرى متناثرة بين الجبال، هكذا اشترطت الدولة مكانها في شبه وجود لها، حتى يكون عدد الطلاب كافيا لافتتاح مدرسة.

في البداية غطت تلك المدرسة التعليم الأساسي فقط، ثم بدأت تتدرج بمرور الزمن وتضيف فصولا أخرى؛ لذا كان حظ الحفيد أفضل من حظ الابن، على الأقل هناك مدرسة له، وسيذهب إليها في سن مبكرة.

-لا تخف يا جدي، فأنا بطل كوالدي.

قال الحفيد مطمئنا جده.

الحقيقة أن الطفل كان سعيدا بأنه سيذهب إلى المدرسة، رغم شعور حزين اعتراه في الليلة السابقة؛ لأنه سيكون بعيدا عن أمه لنصف يوم، إلا أن فضوله الطفولي لاكتشاف محيط غير محيطه مده بسعادة، انقشع أمامها ضباب الحزن، فسيرى أبناء القرى المجاورة، وسيرى ذلك المدرس السوداني، كما سيتذوق تلك الزلابية التي تصنعها زوجته وتبيعها للطلاب.

أخبره عن كل ذلك ابن عمته "منصور"، الذي سبقه إلى المدرسة منذ سنتين، إذ حدثه كثيرا عن المدرسة وما يجري فيها، مضيفا إلى أحاديثه خيال طفولة إلى الحد الذي جعل "خالد" يستعجل الذهاب إليها؛ ليرى ذلك العالم الواقع خلف الجبل الذي يحجب عنه رؤية المدرسة.

سيرافقه "منصور" في يومه الأول متقمصا دور المرشد العارف، وسيحميه كذلك من تنمر أطفال القرى الأخرى الأكبر منه، لذلك هو

يشعر بكثير من الأمان، ولا يرى مبررا لقلق والدته التي رافقته إلى منتصف الطريق، إلى أن شعر بالإحراج من أقرانه، فترجاها أن تعود بعد تعهدات المرشد الكثيرة لخالته أنه لن يصيب ابنها أي مكروه، وافقت الأم أمام توسلات ابنها مرغمة، وقبل أن تفعل ذلك فتحت حقيبته لتدس فيها علبه بسكويت (أبو ولد)، وعبوة عصير (يماني)؛ لكي تكون وجبته المدرسية، ثم أعطته خمسة ريالات كما طلب؛ ليتمكن من شراء الزلابية السودانية المكونة من الطحين والسكر، والتي تغمس في طشت به زيت يغلي، وهي كل ما أمكن شراؤه في تلك المدرسة وذاك الزمن.

مرت الأيام والشهور، والطفل يكبر محاطا برعاية استثنائية من أسرته ومحيطه، فلم يشعر يوما بذلك الفقد الكبير لوالده، فهو لم يره سوى في الصور، لكنه كان يمتلئ فخرا بوالده، فكثيرا ما سمع أن والده عاش بطلا وقُتل غدرا لشجاعته.

يوما ما سأل أمه "من قتل والدي؟"، ولم تكن الأم تسهب كثيرا في الجواب، كانت تمنحه إجابات قصيرة، كل ما عرفه منها أن قاتل والده في عدن، تلك المدينة البعيدة في أقصى الجنوب، والتي سمع عنها أنها مأوي الكثير من القتلة والمجرمين؛ لذلك كرهها.

لا يعرف أين موقعها تحديدا، سوى أنها في الجنوب وبها بحر كبير، تساءل يوما كيف هو البحر، وتوقع أنه ليس كالغدير الذي في أسفل شعب القرية، فقد سمع أنه أكبر من الشعب نفسه، تعلم السباحة صغيرا في الغدير الذي تأخذه أمه اليه عندما تذهب لغسيل الملابس مع بعض

نساء القرية، وبعد أن كبر قليلا أصبح مسموحا له أن يذهب مع أقرانه أحيانا للسباحة فيه، سأل جده ذات يوم في محاولة منه للإلمام بالصورة التي ملكت خياله عن البحر، هو يعلم أن جده قد رأى البحر فقد سافر في شبابه إلى بريطانيا عن طريق البحر في باخرة كان يعمل بها:

-كيف هو البحر يا جدي؟ وهل هو أكبر من الغدير؟

أفكار الطفل الذي أصبح صبيا تسبق عمره الحقيقي، وخياله خصب إلى الحد الذي يأخذه أحيانا إلى التساؤل عن أشياء كثيرة لا يفهمها، يفكر في ما هو أكبر من محيط قريته، ويرى أنه لابد أن يصبح شخصا كبيرا، وليس فقط شيخا للقرية كما أخبره جده أنه سيكون، في أفكاره سيكون أكبر من ذلك بكثير.

تملَّكه حب استكشاف كل جديد يراه أو يسمع عنه، وكان مميزا في دراسته حتى أن مدرسيه في أحيان كثيرة يستعينون به لتعليم بعض زملائه في الصف أو الصفوف الأدنى، مما أكسبه حظوة كبيره لدى المعلمين، واحتراما لدى بعض زملائه، وبالطبع غيرة وحسدًا لدى آخرين.

لم يكن يستغرب الاهتمام الزائد به، بل اعتاده وكأنه شيء مستحق، ولم يأخذه ذلك الاهتمام أيضا ليكون ذلك الطفل المدلل الذي سينكسر أمام هبة أقدار لا يحتملها، بل كان يرى ذلك مدعاة لأن يكون مصدر فخر للجميع، فهو ابن شهيد، وحفيد الشيخ "سعيد"، بل الذكر

الوحيد من سلالته، والشيخ القادم بلا شك في رأي جده، إلا أن اهتماما معينا يضايقه أحيانا؛ وجده ممتعا في البداية، ولكن مع الأيام أصبح ذلك الاهتمام يفرض عليه تكاليف لا يرغب في القيام بها، ذلك الاهتمام كان مصدره "سعدية" ابنة عمته، يتيمة الأب هي الأخرى، يرعاها جده، وتشاركه نفس الدار وتلاحقه كظله.

كلما سمع قول نساء العائلة ("سعدية" من نصيب "خالد") يشعر بضيق لا يعرف كنهه أو سببه، إلا أن طبيعته المتمردة لا تقبل أن يحدد له أحدهم مصيرًا، ولا أن يُحد من خياله الذي يأخذه بعيدًا، يريد أن يعرف ويغامر ويسافر، قبل أن يقرر نهاية أي شيء، أو يتعلق بها، فهي بالنسبة له قريبة يرتاح لرفقتها، مثلها مثل قريبهما الثالث "منصور"، يتشارك معهما لحظات اليوم، لكن ما استجد أحال تلك الرفقة إلى مسؤولية قبل أوانها، فـ"منصور" سيذهب إلى مدرسة بعيدة، مما سيجعل "سعدية" مسؤوليته وحده، وهو ما لا يرغب فيه، إلا أنه لا مفر من هذا التكليف، لذلك سيقوم بهذا الالتزام كما طلب منه فقط لا غير.

الفتاة قد حسمت أمرها فهي مقتنعة بما يقوله كبار العائلة، وهذا ما أكدته لها أمها أكثر من مرة، حيث أخبرتها أنها حين تكبر ستتزوج من "خالد"، وطلبت منها أن تهتم به من الآن، لذلك تعتبره الرجل في حياتها، صحيح أنه في مجتمع آخر قد تبدو هذه الأفكار سابقه لأوانها، لكن المجتمع هنا له أعرافه الخاصة التي يفرضها على الجميع، حيث ينساقون في مسارات العرف كأسراب النمل التي تتبع مساراتها المحددة، وأي

إرباك للمسار يسبب تشتت اتجاهات النمل يمنة ويسرة، حتى تعود إلى ذات المسار بعد حين، وهنا ينساق الجميع ضمن سلوك جمعي متعارف عليه، يمشون فيه كما رسم لهم، و"سعدية" تعلم أن الفتيات هنا ليس أمامهن الكثير من الخيارات، حيث يرسم الكبار مسارات حياة الفتاة كاملة، ويقررون عنها الكثير إن لم يكن كل شيء، وعليها فقط أن تجد مكانها في السرب وتتبعه، ثم إنها يتيمة، صحيح أن الشيخ جدها لأمها، لكن ذلك لم يكن كافيا لوالدتها، فهي تريد ابن أخيها زوجًا لابنتها، هكذا سترث الشيخ من طرفين، وقد كرست حياتها لذلك من خلال إعداد ابنتها لأخذ دورها كزوجة شيخ الدار المستقبلي.

أدى الصبي دوره ناحية الفتاه سواء في تعليمها المدرسي أو في البيت، إلا أن حظها من الفهم كان قليلا فترك الأمر في تعليمها للقدر، وقد اكتفى في تعريف علاقته بها بأنها قريبته ومسؤوليته، والفتاة لم تكن رفقتها غير مجدية، بل كانت مفيدة، وطالما كانت عونا له في مواقف كثيرة، منها ما حدث عندما اكتشف عشا للعصافير بجانب صخرة قرب الطريق إلى المدرسة، ولم يلاحظه غيره، وأراد أن يُبقي الأمر على هذا، فطلب منها أن تشاغل الطلاب الآخرين إلى أن يذهب لإحضار العصافير الصغيرة، وقد أجادت دورها بافتعال مشكلة مع إحدى الفتيات، بالطبع لم يكن مقبولا أن تتورط في مشكلة مع أحد الفتيان، فلن يكون رجوليا حينها أن يتركها ويذهب.

انشغل الجميع بالمشكلة مما ساعده أن ينفذ مهمته بنجاح، وعند العودة إلى الدار كان نصيبها عصفورا صغيرا من العصافير الثلاثة التي ظفر بها، صنعا قفصًا خشبيا للعصافير، واتفقا على أن يتوليا رعايتهم معا، إلا أنهما عادا يوما من المدرسة ولم يجدا العصافير، لم يعرفا بالضبط كيف طارت، إلا أن شكوكهما حامت حول الجدة العجوز، وعندما سألاها عن ذلك كانت إجابتها مبهمة:

-دعوا الخلق للخالق، فقد خلقوا في ملكوت الله.

وفي مواقف كهذا، قد تكون أسهل أو أصعب لم تتوانَ "سعدية" عن مساعدته، حتى أنها تسبقه عصر كل يوم بالكرة إلى ملعب القرية الترابي، وتنتظره إلى أن ينتهي من اللعب لتحمل الكرة وأغراضه الأخرى في طريق العودة، لا تدعه يحمل شيئا، فهو رجل العائلة القادم وهي ربة الدار المستقبلية، هكذا كانت الحياة بالنسبة لها والأحلام أيضا.

هو بطبعه حالم في كل شيء، على النقيض منها تماما، حتى أحلامه يرى أنها لم تبدأ بعد، حيث غمره شعور غامض أن شيئا كبيرا سيحدث معه، فكر في سنه الصغيرة أنه سيذهب عندما يكبر إلي صنعاء، بل أنه أراد أن يفعل ذلك وقتها، لكنه كان أصغر من أن يسمح له جده بالذهاب، وهي مدينة كبيرة وفيها كل شيء، سمع الكثير عن حدائقها وشوارعها ومطارها الذي يحلق منه الناس إلى ما وراء البحار البعيدة، الذي يحلم أن يحلق منه هو الآخر يوما ما.

يوما ما في أثناء لعبه الكرة في الملعب القريب، سمع صوت مولد الكهرباء الذي في الدار يعمل، لا يمكن أن يخطئ ذلك الصوت المألوف، لكن الغريب هو التوقيت، فكل شيء يجري في القرية له أوقاته المعلومة المنحوتة في جدار الزمن، وليس سهلا تغيير المنحوت أبدا، المولد الكهربائي يتم تشغيله دائما بعد صلاة المغرب وليس عصرا، ثم يتم تشغيل التلفاز الساعة الأولى للأطفال يشاهدون الرسوم المتحركة التي استمد منها الكثير من خيالاته، إذ ما يزال متأثرا بمغامرات "بوليانا" العاطفية، وشجاعة "بسام" صديق الكابتن "ماجد" وشهامة "الرغيف العجيب" في مساعدة الآخرين، إذن ما الذي يحدث اليوم؟!

سأل "سعدية" ولم تكن تعرف شيئا هي الأخرى، فقفلا عائدين إلى الدار؛ ليعرفا ما يجري، فوجد معظم رجال القرية في مجلس الجد متحلقين حول التلفاز، ولم يطق الفتى صبرا فسأل جده:

-ماذا يجري يا جدي؟

-اليوم يا ولدي توحَّد اليمن .. توحد اليمن.

توحد اليمن! كيف؟! وكم يمن يوجد؟! صمم على استنطاق الجد أكثر ليفهم عن ماذا يتحدث، فسأل:

-ماذا يعني ذلك يا جدي؟

-يعني أن صنعاء وعدن أصبحتا وطنا واحدا.

لا يعلم ما المشاعر التي تملكته عندما سمع جملة الجد، هل يعقل؟! صنعاء رمزية الجمال ووردية أحلامه تتوحد مع عدن رمزية الوجع الذي لا يفارق والدته، ومأوى القتلة والمجرمين، يصبحان وطنا واحدا! كيف يكون ذلك؟! كيف لمثل هذه التضادات أن تجتمع في وطن واحد؟!

شل عقل الصغير عن التفكير، فالتناقض الذي يراه أعجزه عن الفهم تماما، ولم يكن جده المتسمر بكل حواسه أمام شاشة التلفاز التي تبث مراسم توقيع الوحدة بين شطري اليمن مستعدا - على الأقل في الوقت الحالي - للرد على تساؤلاته المرتبكة.

"وإن كان، لن أذهب يوما إلى عدن، فقط صنعاء، وسأجد البحر في مدينة أخرى سأذهب إلى الحديدة ففيها بحر أجمل من بحر عدن"، هكذا حسم الصبي رأيه مع أفكاره، فلن يكون هناك مكان لعدن حتى في أحلامه عن البحر .

❋ ❋ ❋ ❋

(3)

عندما يلتقي الماضي بالحاضر، العراقة بالتطور، التاريخ بركب الحضارة، تُصنع حواضر لا يضاهيها شيء آخر، وهكذا كانت عدن، مدينة قادمة من أعماق التاريخ، مرت بها حضارات كثيرة، تركت كل منها شيئا لترتديه عدن، ويظهر ذلك جليا في عمرانها المنظم وواضحا على ملامح سكانها، فهي ميناء تجاري هام على بحر العرب، تمر بها قوافل الشرق والغرب، وكانت مطمعا للكثيرين، واحتلت أكثر من مرة عبر التاريخ، لكنها لفظت قبح الحضارات الأخرى، وتقبلت الأجمل منها، ليزيدها جمالا.

ويعد الاستعمار البريطاني مَن ترك البصمة الأقوى في تشكيل مدينة عدن؛ لذلك تبدو منظمة أكثر من محيطها الجغرافي، ومنفتحة بتفرد يستغرب منه أن تكون هكذا مدينة في بلد كاليمن، وكان أيضا للهند تأثير لا يخفى في موروث المدينة، ويتجلى ذلك في أزياء أهلها وأطعمتهم، وفي موروثهم الموسيقي، فقد كان بحارة الربان البريطاني الذي حكم عدن هنودا في الغالب، فحدثت زيجات وتلاقح اجتماعي بين الهند وعدن، حتى لكأنك أحيانا ترى ملامح سحنة هندية تكسو وجها عدنيا.

هذا الانفتاح في المدينة كما هو الحال في مدن الموانئ دائما يولد نوعا من التسامح والتعايش، وتقبل الآخرين دائما، هكذا كان يفترض أن

تكون عدن، إلا أن كل ذلك توقف في لحظة زمن شكلت علامة فارقة في تاريخ المدينة، فقد حكم المدينة والجنوب بأكمله نظام شمولي تستر تحت شعارات الحرية والعدل والمساواة، وتلبس زورًا ثوب الاشتراكية؛ ليخفي دموية مفرطة، وفي ذلك العهد شهدت المدينة أسوأ سطور تاريخها، فتوقفت عجلة التطوير لتدور رحى صراعات متعددة بين قيادات جاءت من خارج المدينة في أغلبها، جعلوا من مدينة السلام ساحة حرب ودماء، فسادَها جمود فكري واقتصادي انعكس على الجنوب بأكمله، واجتاحها دمار بعثر سكانها، وقد بلغ هذا الدمار ذروته في يناير ١٩٨٦، عندما تصارعت أجنحة الحكم الاشتراكية فيما بينها، لتُرتكب يومها مجازرُ أحالت شوارع المدينة أنهارًا من الدماء، انتهت بمقتل الآلاف في أيام دامية سطرها تاريخ المدينة فصلا مأساويا لا ينسى.

ومع ذلك كانت عدن المسالمة تقبع تحت ركام ذلك الدمار، وبقي ذلك العدني الطيب مغلقا أبواب بيته بانتظار أن ينقشع غبار العاصفة، آملا أن تعود إليه نسمات البحر الصافية .

في منطقة (كريتر) الساحلية كان الأستاذ "ياسر"؛ مدرس الموسيقى يداعب أوتار عوده، تارة فرحا، وتارات أخرى حزنا، ظل وفيا لدوره يعلم الأطفال الموسيقى والألحان في زمن تدق فيه طبول الحرب كل يوم، ويعلمهم حب الحياة في مدينة تُقتل فيها حياةٌ كل يوم، كثيرون من رفاقه غادروا إلى دول الاغتراب، فلا مكان للفن وسط هذا العبث، إلا أنه لفرط حبه لمدينته لم يستطع أن يغادرها يوما، دفن أحلامه

الفنية مرغما في شرنقة واقعه المظلم، وظل وفيا لمدينته الحبيبة أملا في غدا افضل.

رزق الأستاذ "ياسر" بابنتين؛ الكبرى "أسرار"، لا توجد لديها اهتمامات فنية تذكر، والصغرى "أزهار" والتي أبدت اهتمامها بالفن بشكل عام والموسيقى بشكل خاص، فعندما يطل والدها محتضنا عوده ليدندن ليلا من شرفة المنزل القريب من البحر، تخرج معه لتجلس بجانبه مرددة معه ما تحفظ من أغنيات، وتكمل ما لم تكن تحفظه بهمهمات تساير الإيقاع مصفقه بيديها الصغيرتين، تَمْلُكُ لثغةً محببةً إلى قلبه، تجعل للكلمات على لسانها وقعَ السحر، ونبرة تمس شغاف القلوب، أحيانا يداعبها قائلا:

-أنا سأعزف، وأنت تغنين.

فتعتدل في جلستها كما تفعل تلك الفنانة الشهيرة التي تراها بالتلفاز، وتصدح بصوتها الرقيق، فيخفض الأب صوت عزفه ليسمع صوتها الصغير وهي تشدو:

"كل شيء مقبول كل شيء معقول .. كل شيء إلا فراقك يا عدن"

أغنية رائعة من روائع الفنان الراحل "أبو بكر سالم" الذي تغنى كثيرا بعدن لوجعه هو الآخر من فراقها الذي أجبر عليه يوما، علم "ياسر" صغيرته الكثير رغم صغر سنها، بعد أن رأى فيها بوادر موهبة فنية، ربما يكون لها مستقبل أفضل مما كان له يوما.

وكلما كبرت أزهار" تكبر معها موهبتها، يغذي أحلامها طموحُ والدها الذي وجد فيها نفسه، كثيرا ما سأل نفسه "وأنا رجل لم أملك فرصة لأحقق حلمي يوما، فكيف لفتاة أن يتحقق حلمها؟!"، لكنه يرى أحيانا معقولية حلمه لفتاته الصغيرة، فهو قد رأى عدن مرت بالكثير، لكنها دائما تعود نابضة بالحياة، تنفض غبار الأحزان، وتعزف مزامير الفرح، فالأشخاص يرحلون حكاما ومحكومين، والأزمان تتغير، وتبقي عدن الثابت الوحيد الذي لا يتغير، وإن أثخنتها جراح الزمن، ففي جنباتها حضارة غابرة ستعود يومًا، وفى حواريها حمامات سلام، ستحلق يوما، بلا شك ستنقشع غمائم الأحزان السوداء أمام هبات النسيم القادمة من البحر، وسترحل غربان الخراب لتعود النوارس البيضاء التي هاجرت، سيخفت صوت النعيق، حتى ينتهي ذات مساء؛ لينبلج الفجر عن زقزقة وتغاريد، وهو سيظل هنا ينتظر ذلك الفجر وإن بدا بعيدا.

تألم كثيرا عندما ارتدت عدن ثياب الحداد في يناير المشؤوم، وبكي لحالها علَّ دموعه تمسح قطرة دم واحدة من ثياب محبوبته، وأيقن عندها أن القادم سيكون أسوأ، إلا أنه ليس بيده شيء، إلا روحه التي لن يبخل بتقديمها فداء لمدينته لو كانت ستجنبها لحظة حزن واحده.

ذات ليلة تأخر في العودة إلى منزله بسبب ما يجري، وعند وصوله وجد الصغيرة "أزهار" تنتظره بجانب الباب:

-أين كنت يا أبي؟ أنتظرك لنغني معا.

"أين الفرح لنغني يا صغيرتي؟!" هم أن يقول لها ذلك، لكنها صغيرة وتبتسم ببراءة، فكيف له أن يقول لها ما يمكن أن يمحو تلك الابتسامة فاحتضنها قائلا:

-غدا يا صغيرتي سنغني، فأنا اليوم متعب.

لم تعجبها الإجابة لكنها قبَّلَت والدها، وذهبت لتنام بانتظار غدٍ لا تعرف عنه شيئا سوى أنها ستغني فيه مع والدها.

"لا مكان لي وسط كل هذا الجنون" هكذا كان "ياسر" يحدث نفسه، لكن إلى أين سيذهب؟! ولمن يترك زوجته والصغيرتين؟، كان قد تعب من انتظار الغد الذي لا يأتي، ولا يبدو أنه سيأتي قريبا، ومع كل مخاوفه من القادم المجهول كان يعود إلى بيته الصغير كل ليلة، فينسى ولو مؤقتا كل مشاعر القلق التي تعتريه، يرى في وجهي الصغيرتين أملا بمستقبل أفضل، ويحلق به الصوت الملائكي لصغيرته إلى عالم أجمل من واقعه؛ عالم ينسيه كل شيء.

في عام ١٩٩٠ وجد الحزب الحاكم في الجنوب نفسه في أزمة اقتصادية وعزله إقليمية عن محيطه، إذ سقط الاتحاد السوفيتي الذي كان يرتبط به عضويا، وانهارت الاشتراكية كنظام حكم عالمي، ولأسباب أخرى كثيرة لم يجد بدا من التوحد مع الشمال رغم الاختلاف الفكري والبنيوي بين نظامي الحكم، فتم توقيع اتفاقية الوحدة الاندماجية التي غنى الشمال طربا بها، ورقص الجنوب جذلا على إيقاعاتها، وعمت مظاهر

الفرح اليمن من أقصاه إلى أقصاه، فعانق أيلول صنعاء تشرين عدن صادقا، واحتضنت خلجان الجنوب جبال الشمال، حدث لا ينسى، دوَّنه التاريخ في ذاكرة أبناء اليمن.

تلك الفرحة الخالدة أنسته كل آلامه ومآسيه، إذ رأى أن الغد الأفضل أصبح أقرب، ولن يطول انتظاره، على الأقل يستطيع الآن أن يسافر، أن يحلق إلى آفاق أخرى، أن يأخذ أحلامه َوصغيرته إلى حيث ترسو بهما سفن الحياة بحثًا عن شواطئ تغرد فيها العصافير بملء حناجرها من دون أن تخشى شيئا.

❋ ❋ ❋ ❋

(4)

أثبتت الأيامُ التي أخذت "خالد" الصبي إلي بواكير الشباب سعةَ مداركه وأفكاره، لكن أحلامه كانت تكبر أسرع من كل شيء آخر، بل أنها تلامس حدود الإفراط أحيانا، وقد وجد في كتب تركها والده الراحل الكثير من المعرفة، فعشق التاريخ والسياسة أيضا، ورغم أنه لم يكن يفهم كل شيء إلا أنه عرف أشياء ليست بالقليلة.

عرف أن هناك عالما كاملا لا تشكل فيه قريته سوى نقطة على سطر منسي، وإن رأى أهلها غير ذلك، وهناك اليمن الكبير الآن، لاحظ ذلك في شعارات الجمهورية اليمنية التي تتصدر أغلفة الكتب الدراسية، وتغير اسم الجهورية العربية اليمنية إلى الجمهورية اليمنية، وتغير النشيد الوطني الذي يردده الطلاب في الطابور الصباحي، وتغير العلم أيضا، والأهم من كل هذا أن تلك الهوة النفسية التي كانت تفصل الشمال عن الجنوب بدأت في التلاشي.

أرادت الحكومة المركزية أن تذيب تلك الفوارق عمليا، فتم دمج القرى ومدن الشمال والجنوب الحدودية في محافظات جديدة، وهذا ما حدث مع قريته، بل المنطقة بأكملها، والتي كانت تتبع محافظة البيضاء الشمالية، أصبحت في التقسيم الجديد تتبع محافظة الضالع الجنوبية.

ذهب مع جده إلى مدينة الضالع الكبيرة لكى يرى الجنوب الذي كان ولا يزال يمثل رمزية سيئة في ذهنيته، فالجنوب يأوي قاتل والده،

رغم أن تأثره بمقتل والده كان تأثر من سمع لا من رأى، إلا أنه كان كبيرا بتأثير الألم الذي يراه في عيني والدته، وظل هناك جرح حاضر في نفسيته، صنع بينه وبين الجنوب حاجزا نفسيا ليس لدى غيره، لكن ما المانع أن يذهب ليرى الجنوب؟، هو لن يذهب إلى عدن، الآن أو أبدا، فقط إلى الضالع التي هي أبعد عن عدن وأقرب إلى قريته.

وصل مع الجد ومرافقيه إلى ما كانت سابقا حدودا دولية، تجاوزوا الحاجز الجغرافي وعليه الآن أن يتجاوز الحواجز النفسية، كان يتوقع أن يرى شعبا مختلفا، أشرارا على هيئة بشر، أو أية هيئات أخرى قد يتمثلونها، المهم أنهم سيكونون مختلفين، أليسوا قتله؟! ألم يكن يفر القتلة دائما إلى الجنوب بعد ارتكاب جرائمهم؟!

لكن ما يراه اليوم كان مفاجئا له بحق، فالناس هنا ليسوا مختلفين عمن برفقته، الاختلاف الذي يراه أنهم فقط لا يرتدون (الجنابي) - الخناجر التي تزين أوساط أبناء قبائل الشمال ـ، اللهجة مختلفة لكن ذلك لا يعد اختلافا محسوبا على الجنوب فحسب، فحتى قرى الشمال ومناطقه تختلف لهجاتها، لم يرَ الماركسيين الملحدين، بل رآهم يصلون في المساجد كما اعتاد في قريته، لم يرَ قتلة يمشون في الطرقات، بل أنهم لا يحملون أسلحة حتى كما يحملها أبناء قبائل الشمال، كما أنهم لهم نفس العادات التي اعتاد عليها، فها هو صديق جده الضالعي يدعوهم جازما إلى تناول وجبة الغداء في ضيافته، بالتأكيد سيعرف يوما أن هناك من عمل على تكريس هذه الذهنيات الخاطئة عن جنوب ملحد وشمال

رجعي، هي مراكز قوي تلاعبت بعقول شعب بأكمله لسنوات طويلة؛ خدمةً لأهدافها التي لا علاقة لها بأرض أو وطن، تلك المراكز نفسها من توحدت عند التقاء مصالحها، ثم تصادمت مطامعها لتدخل اليمن مرة أخرى في حرب أهلية دامية قبيل منتصف التسعينات، نُكِئَت فيها الجراح، وأُعِيدَت إلى الأذهان مسميات جنوبي وشمالي بصورة أشد فظاعة من السابق.

في الضالع صار الفتى أكثر تصالحا مع الجنوب، فرأى السمك لأول مرة في حياته عندما تناوله في ضيافة صديق جده الجنوبي، ولا يعلم كيف يعرفه جده، أحْيَا ذلك تساؤلاته عن البحر الذي أحبه من دون أن يراه، هو ابن الجبل فكيف يحب البحر؟! لا يعلم! كأن قوة خفية زرعت فيه حب البحر، وصارت إحدى أمانيه أن يذهب لرؤيته، شاهده مرات قليلة على التلفاز، لكن ذلك ليس كافيا، يريد أن يراه حقيقة، سيل الأفكار الذي يعتريه عن البحر قاده إلى أن يتذكر عدن الجرح الذي يؤلم أفكاره، والوجع الذي يحس به في أنفاس والدته. قطع تفكيره صوت جده:

-كيف كان السمك يا "خالد"؟

-جميل يا جدي، لمَ لا نأخذ منه لوالدتي ولـ... للجميع؟

أراد أن يقول لـ"سعدية" و"منصور"؛ كي يتباهى بعدها في أحاديثه معهما أنه رأى السمك قبل أن يرياه.

- لا يا ولدي، لا نستطيع، سيفسد السمك قبل أن نصل إلى القرية.

وكان الجد محقا فالمسافة بعيدة، والثلاجة مفردة خارج السياق هنا - لماذا؟! فلنضعه مع اللحم.

شرح له جده أن السمك ليس كاللحم، واقتنع الصبي سريعا، فهو لأول مرة يرى السمك ولا يستطيع الجدال، بخلاف ذلك سيكتفي بإخبار صديقيه عن السمك عندما يعود، وسيقترح عليهما المجيء في رحلة قادمة.

كان من نتائج التقسيم الإداري الجديد للمناطق الحدودية السابقة أن أصبحت مدرسة "خالد" تتبع الجنوب إداريا، واستبدل المدرسون السودانيون بآخرين يمنين من مناطق بعيدة، فلم يكن في المنطقة من وصل به تعليمه إلى أن يصبح مدرسا، فالتعليم وصل المنطقة متأخرا عن غيرها كثيرا، ولا يوجد لدى المجتمع المحلي ذلك الاهتمام بالتعليم، حيث يكتفون غالبا بالتعليم الأساسي ثم الاغتراب في الخارج، فكل شاب هنا هو مشروع اغتراب إلى أن يحين وقته.

قلما يوجد بيت في القرية والقرى المجاورة لا يكون أحد أبنائه مغتربا، غالبا في دول الخليج العربي، وأحيانا أمريكا لمن كان حظه جيدا، كقريبه "منصور" الذي سيذهب إلى أمريكا عندما يكبر فأبوه هناك منذ زمن، ولذلك لم يهتم بالتعليم كثيرا.

أما "خالد" فيجب أن يكمل تعليمه كما أراد له جده، فمستقبله هنا، وليس بحاجة للاغتراب، سيكون شيخ القبيلة القادم، ومع تعليم جيد

سيحصل على منصب مهم في الدولة أو سيكون ضابطا عسكريا، حظوة الجد ومكانته ستكونان عونا كبيرا؛ لتفتحا أمامه أبوابا كثيرة مغلقة أمام غيره، فكر يوما أنه من الممكن أن يصبح محافظا للمحافظة بأكملها فسأل جده:

-ماذا عليَّ أن أدرس يا جدي لأصبح محافظا؟

أخبره جده الذي لم يكن يملك إجابة محددة، أن عليه فقط أن يجتهد في دراسته حتى يكمل الثانوية بتفوق، وبعد ذلك سيتحدث معه في هذا الصدد، فخبرة جده تعلمها من الحياة، يعرف الأعراف والتقاليد، وكيف يكسب احترام الآخرين، ويعلم أن الرجال تصنعها المواقف والظروف، لكن معرفته بالتعليم شيء آخر، فقد كان محظوظا أنه يقرأ ويكتب أفضل ممن هم من الجبل الذي ينتمي إليه.

أثبت الفتى تفوقه الدراسي إلى الحد الذي لفت انتباه مدرسيه اليمنيين الجدد سريعا، كما كان مع مدرسيه السودانيين بل أكثر، فهناك فارق في الشعور تجاه مدرسيه الجدد، ليس فقط من ناحيته بل جميع الطلاب الآخرين لمسوا ذلك الشعور، فالمدرس اليمني يبدو أقرب إلى الصديق منه إلى المدرس، اختفت تلك الهالة التي كانت تحيط بالمدرس سابقا؛ هالة الخوف والرهبة، وانكسر ذلك الحاجز الذي كان يضفي عليه قدسية لم يستطع أحد من الطلاب أن يتجاوزها، فعندما كان يسير المدرس السوداني في الطريق من القرية إلى المدرسة لا يجرؤ أحد أن يمشي بجانبه فضلا عن أن يتجاوزه، اختلف كل ذلك مع المدرسين

الجدد، فهم يمشون مع الطلاب ويبادلونهم الأحاديث، بل إن أغلبهم صغار في السن، يكبرون بعض طلابهم بسنوات قليلة، كما أنهم يزورون مجالس القرى ويتناولون (القات) - نبتة خضراء منبهة يتناولها اليمنيون بعد الغداء في مجالس يجتمع فيها كل أفراد المجتمع -.

لم يكن صعبا عليهم الانخراط في المجتمع فهم يمنيون أولا وأخيرا، وقد ساهم هذا الاختلاط السلس في ولادة صداقات كثيرة بين الطلاب ومدرسيهم، من تلك الصدقات صداقة وثيقة بدأت تتشكل عراها بين "خالد" والأستاذ "أيمن" مدرس اللغة العربية، وهو من الجنوب، والعلاقة بينهما مع مرور الأيام أصبحت أقوى، وما جعل الفتى يحب هذا الأستاذ تحديدا أنه كان يستمع إلى أحلامه، ويشجعه على التفكير، ويجيبه أيضا عن أسئلة كثيرة كانت تخطر على باله لم يكن يجد إجابات لها من قبل.

أخبر أستاذه أنه يكتب الشعر، فوجد لديه كل الاهتمام، كان يراجع له ما يكتب ويصححه، نظم الفتى في بداياته الشعرية الشعر بوحي من موهبة فطرية ولدت معه، كانت موجودة في جيناته الوراثية، فجده ينظم الشعر العامي، وله قصائد دوَّنها موروث المنطقة والقرية، هو أيضا نظم شعره باللهجة العامية التي يعرفها، ولقوة شاعريته كان يُسمح له - رغم صغر سنه - بنظم (الزوامل) تلك الأبيات التي تقال في مناسبات القبائل المهمة كالأعراس واستقبال وفود القبائل الأخرى وتوديعها، لكن معلمه عندما اقتنع بشاعريته أخذه إلى آفاق أخرى، حيث أحضر له الكثير من

الكتب التي تعنى بالشعر الفصيح؛ كي يطور شاعريته، من بينها قصة "قيس وليلى" والتي تمتلئ بشعر عذب في الغزل والحب والفراق، فسأله الفتى المتعطش للمعرفة:

-كيف أصبح شاعرا مثلهم يا أستاذ؟

-اقرأ كثيرا، وستتطور شاعريتك.

(ثم ماذا؟) سأل نفسه، ثم أكمل فيض أسئلته؛ هل سيصنع مني الشعر واحدا من هؤلاء الذين تتحدث عنهم كتب التاريخ؟

هكذا كان طبعه، كلما وجد إجابة لسؤال ما وجد فيها ولادة سؤال آخر، فضول معرفي لا ينتهي، يكون دائما لدى من في مثل سنه يستكشفون الحياة ومراحلها، لكن فضوله كان كبيرا إلى الحد الذي لم يجعله يكتفي بإجابة يوما، يتساءل عن كل شيء، قرأ قصة مجنون "ليلى" بنهم وتمعن الجانب الشعري فيها، فهم منه الكثير رغم صعوبة بعض المفردات، إلا أن أستاذه فسر له معانيها، لكنه لم يفهم الكثير من الجانب الدرامي؛ كيف يحب رجلٌ امرأة كل هذا الحب؟! حتى أنه يستغني عن الحياة بأكملها لأجل حبه، ما الذي دفع "قيس" لفعل كل ذلك؟! كيف يجن رجل لأجل امرأة؟! ألم يكن بإمكانه أن يتزوج غيرها كما تزوجت غيره؟!

تمنى أن يعيش قصة حب عندما يكبر، ليس كهذه طبعا، ليس ليجن، بل لتكون له حبيبة يكتب فيها الشعر.

ترى من ستكون تلك الحبيبة؟ ربما "سعدية"، ابتسم حينما خطرت بباله هذه الجزئية، هي تحبه بشكل أو بآخر، هو يعلم ذلك بل احيانا تخنقه لفرط التصاقها به، إلا أنه لا يحبها، وبالطبع لا يكرهها، فقط هو لا يحبها ذلك الحب الذي سيجعله يكتب عنها الشعر، ربما سيجرب أن يكتب لها يوما ليرى هل ستتأثر كـ"ليلى"! هل ستبكي عند سماع شعره! لم يظن ذلك لكنه سيحاول، فهي الموجودة الوحيدة في المحيط، بالطبع سيكون ذلك عندما يكبر قليلا، فالآن لديه اهتمامات أخرى ليس بأقلها المدرسة بوابة أحلامه، ومجلس جده الذي يتعلم فيه الكثير عن الرجولة وسماتها، وعن القبيلة وأعرافها، وبالتأكيد أستاذه الذي أصبح صديقه، والذي ساهم في اتساع مداركه وغزارة معلوماته.

يظنَّ أن أستاذه يعرف كل شيء، ربما لأنه تعلم كثيرا، وربما لأنه سافر إلى مدن كبيرة، فعرف ممن يعيشون هناك الكثير، وهم يعرفون الكثير فقط لأنهم أبناء مدن، تذكر أنه لم يسأل أستاذه عن مسقط رأسه، وتوقع أنه من المدينة، في الطريق إلى المدرسة سأله الأستاذ:

-هل قرأت الكتب التي أحضرتها لك؟

-نعم يا أستاذ، قرأتها كاملة.

-وهل أعجبتك الأشعار؟

-نعم، ولكن هناك كلمات لم أفهمها.

-لماذا؟

-لأنها بلغة غير لغتنا.

ضحك الأستاذ:

-ليست لغة أخرى، هي اللغة العربية لكنها الفصحى، ونحن نتكلم العامية...

ثم شرح له كل ذلك، وأخبره أنه بكثرة القراءة سيتعلم كيف يكتب هو أيضا شعره باللغة الفصحى ما دامت لديه الموهبة الفطرية، عليه فقط أن يطورها، وهو سيساعده في ذلك بالتأكيد، فسأله الفتى عما شغل ذهنه فترة:

-كيف تعرف كل شيء يا أستاذ؟

-أنا لا أعرف كل شيء، أعرف فقط الأشياء التي قرأت عنها أو تعلمتها.

-هل أنت من مدينة كبيرة؟

-لا، أنا من قرية صغيرة كقريتك، لكنني ذهبت إلى المدينة للدراسة.

لم يتبرم "أيمن" من كثرة أسئلة تلميذه النجيب يوما، بل شجعه، واعتبرها طريقا للمعرفة يتعلم منها الفتى، وهو ينوي أن يعلمه الكثير، ليس لأنه يحب نبوغه فقط، بل لأن تلك مهمته التي كلفه بها الجد الكريم

عندما منحه أحد البيوت ليسكن فيه، وحقلا كاملا ليزرعه، كان ذلك بطلب الصبي من جده، والجد لم يمانع ذلك بل قال للأستاذ:

-أنت أصبحت الآن واحدا منا يا ولدي، وعليك أن تعلم ولدي الصغير كل ما تعرفه وليكن بمثابة أخيك الأصغر.

وهكذا استكمل "خالد" أسئلته:

-في أي مدينة درست يا استاذ؟

-عدن.

توقف الصبي عن المشي سائلا بحده لم يجد الأستاذ لها مبررا :

-وهل أنت من عدن؟

-لا لست من عدن، أنا من قرية كما أخبرتك، لكني ذهبت إلى عدن للدراسة.

-أها

حمد "خالد" الله أن الاستاذ ليس من عدن، فهو يحبه، ولا يمكنه أن يحب أحدا من عدن البتة ثم تابع أسئلته:

-هل رأيت البحر في عدن؟

-نعم، وهو جميل جدا.

-لا ليس جميلا، أخبرني صديق لي أن بحر الحديدة أجمل.

لم يخبره أحد بذلك، لكنه - بوعي وبلا وعي- يستنكف أن يكون هناك شيء جميل في عدن، في مخيلته عدن والجمال مفردتان لا يمكن أن تلتقيا، انتشله المدرس من مقارنته الذهنية قائلا:

-البحر هو البحر يا صديقي، أينما كان يظل جميلا.

-لماذا لم تذهب لتتعلم في مدينة أخرى؟

-لأن لدي أخت متزوجة في عدن.

أخذ الفتى الحوار بعد ذلك إلى منحى آخر، هو لا يحب الحديث عن عدن، وما يهمه أن أستاذه ليس من عدن بل ابن قرية مثله، وقد تعلم حتى أصبح ما هو عليه، فبإمكانه أيضا أن يتعلم، ويعرف الكثير مثله، بل سيكون أفضل، فليس طموحه أن يصبح مدرسا في قرية جبلية فقط .

❋ ❋ ❋ ❋

(5)

صَبَاحُ الخَيْرِ يَا وَطنَاً يَسِيرُ بِمَجْدِهِ العَالِي إلى الأعلى

ويَا أرْضًا عَشِقنَا رَمْلَهَا والسَفْحَ والشُطْآنَ والسَهْلا

صباحُ الخيرِ يا قِمَمًا

إليكِ الشمسُ تُهدِي القُبلةَ الأولَى

وأنتِ الخيرُ يا من في كتابِ اللهِ ذِكرُكِ آيةً تُتلى

وأنتِ الخيرُ يا بَلدي.. يا بلدي

تُرابُكِ طُهْرُ مَنْ صَلّى

وماؤكِ مِن دَمي أغلى

وحُبّكِ هَدْيُ مَنْ ضَلّ

حَمَاكِ الخَالِقُ المَولى

حَمَاكِ الخَالِقُ المَولى

وقفت "أزهار" تغني هذه الأغنية الممتلئة وطنية، وكيف لا تكون كذلك وهي من كلمات "عباس الديلمي" الشاعر الذي يتنفس الوطن؟، على مسرح لأول مرة، وكان هناك جمهور يصفق لها، مع أنها لم تكن وحدها من غنت اليوم، إلا أنها حظيت بلحظتها ولا فرق، وقد كان شعورها رائعا، غنت كما لم تغنِ من قبل، تجسدت أحلامها في تلك اللحظة التي أمسكت فيها الميكروفون كحقيقة واقعة، بلا شك هي الآن مطربة رسميا، أو هكذا شعرت على الأقل، سمعت ثناء مدرساتها بعد

نهاية الفقرة، كما أنها في طريقها نازلة من المسرح باتجاه والديها رأت والدتها تبكي متأثرة وتشير لها بيديها (أن كنت رائعة).

هي تخطو خطواتها الأولى نحو حلمها، الذي ملك كل تفكيرها، حتى أنها لا ترى حلما غيره، كان في انتظارها مع والديها صديقتها المقربة "روان" ابنة الجيران؛ رفيقة طفولتها وصباها، فاحتضنتها:

-كنت رائعة يا صديقتي، أعجب بغنائك الكثيرون...

ثم أكملت تخبرها أن الجميع كان يتحدث عنها، وكأن لا أحد غيرها كان على المسرح، قالت لها أشياء كثيرة تمتدح أداءها، بعضًا مما قالته كان حقيقيا، فـ"أزهار" تملك صوتا جميلا، لكن الجزء الأكبر مما قالت كان من نسج خيال فتاة تحب صديقتها الحالمة؛ لأنها تعرف أن سماع ذلك سيسرها، فلمَ لا تسعد صديقتها المقربة؟!

بين الاثنتين صداقة قوية إلى الحد الذي يجعل عالميهما عالما واحدا مشرعة أبوابه لصاحبتيه، مهم جدا للأنثى أن تكون لها صديقة مقربة، وهي طبيعة فطرية مدفوعة بعوامل نفسية كثيرة تُحَتِّم وجودها، ليس أقلها الحديث عن الأخريات، وتبادل الأسرار، والحاجة للشعور بالثقة، عكس الرجل الذي في الغالب تكون صداقاته محددة بمجالات معينة، أو اهتمامات محددة، ربما لأن العاطفة لدى الأنثى أكثر منها لدى الرجل، فهي تحتاج ثنائية دائمة لتفريغ عواطفها.

شكلت "أزهار" و"روان" ثنائية جميلة في الحي، "أزهار" خجولة إلى حد ما ومتحفظة، أما "روان" فجريئة ومندفعة، مما أكمل في أحيان كثيرة شخصية "أزهار"، وكم كان ذلك مجديا، فقد كانت "روان" دائما هي المتحدث الرسمي باسم الفنانة الصغيرة، حيث نصبت نفسها مديرة أعمالها قبل أن يصبح لها أعمال، و"أزهار" وجدت ذلك ممتعا، فعليها أن تهتم بالغناء فقط.

والدة "أزهار" تنحدر من قرية جبلية؛ لذا كانت محافظة في تربيتها، فبالنسبة لها أحلام الغناء التي تسيطر على أفكار صغيرتها هي أحلام طفولة سرعان ما ستتلاشى عندما تكبر، سوف تتزوج وتصبح ربة منزل رائعة، وإن خدمها الحظ فقد تصبح مدرسة على أكثر تقدير، هي تعدها وأختها لمثل هذا الدور، صحيح أنها تحب الغناء، وبالذات اللون العدني الذي تحب سماعه دائما، وكان ذلك ما أسرها بادئ ذي بدء لتحب "ياسر"، كان لحبهما قصة وأغنية انتهت بزواج وأسرة، لكن من منظورها العام فالفن عالم آخر وأناسه مختلفون، الإنسان العادي يستمع لما يشاء، وفي النهاية عليه أن يهتم بمعيشته وأسرته وواقعه، اختلفت مع زوجها مرات كثيرة عندما كانت تراه يهتم بأحلام الصغيرة:

-ستفسد البنت يا "ياسر."

-كيف ذلك يا حبيبتي؟ وهل الفن فساد؟!

-نعم، فمن سيتزوج فنانة؟

-أنتِ تزوجتِ فنانا.

ثم استدرك ساخرا :

-أو على الأقل مشروع فنان.

-أنت رجل وهي فتاة، وهناك فرق.

-لقد تغير الزمن يا حبيبتي، وليس عيبا أن تغني الفتاة وتقدم فنا راقيا ومحترما.

-ليس هناك فن محترم وغير محترم بالنسبة لفتاة، وأنت تعرف ذلك، فلا تزرع في أفكارها مثل هذا الكلام الفارغ.

لم يكن يطيل الجدال مع زوجته، فهو بطبعه رجل مسالم ومتفهم أيضا، يعلم أن زوجته ابنة قرية جاءت من خلفية اجتماعية مختلفة عن مجتمعه، وفوق كل هذا يحبها، وفي ذات الوقت يؤمن بأفكاره وأحلام صغيرته، موقنا أنها ستحققها يوما ما، فأذنه الموسيقية لم يخب حدسها يوما، يسمع بها صغيرته عندما تغني فيزيد اقتناعه أن هذا الصوت سيصل إلى ما هو أبعد من بحر عدن، بل أبعد من المحيط نفسه.

حاول يوما أن يشق طريقه كفنان، ولم يحالفه الحظ، رغم أن الظروف التي عاشها لم تكن مواتية، إلا أنه يعترف لنفسه أنه لم يمتلك يوما موهبة كتلك التي تملكها صغيرته؛ موهبة ستفتح أمامها مستقبلا أفضل مما كان له، هي فقط تحتاج إلى فرصتها، وعليه أن يساعدها، تلك

ستكون مهمتـه، سيذهب مـع صـوتها إلـى حيث ستأخذهما سفن الأقدار، سيبحر معها هذه المرة حتـى إلـى شـواطئ الاغتـراب البعيدة، لـن يسـمح لصوتها أن يدفن تحت ركام واقعٍ مر وبيئة تئد الإبداع قسرا.

كثيـرا مـا قـال لهـا ذلك، والصـغيرة عنـدما تسمع تطـاول بأحلامهـا شرفات الخيال؛ لتنظر هناك بعيدا إلى القاهرة وبيروت، تأخذها مخيلتهـا الخصـبة إلـى مسـارح كبيـرة جدا، لتقف هنـاك أمـام ميكروفـون مثبـت لا حاجة لأن تمسكه بيديها، هناك عليها فقط أن تتأنق وتخـرج وسـط تصـفيق الجماهير الكثيرة، لن يكـون هنـاك عـود واحـد يعزف، بـل فرقـة موسـيقية كاملـة تبدأ فـي العزف لهـا قبل صـعودها علـى المسرح، ثم ستدخل هـي رافعـة يـدها اليمنـى تحيـي جمهورهـا، وهـي تبتسـم ابتسـامة خفيفـة غيـر مبتذله وتبدأ بالغناء.

❋ ❋ ❋ ❋

(6)

جبـــــل التوباد حياك الحيا .:. وسقى الله صبانا ورعى

إذا كان لـ"قيس" جبل وصبا، ولـ"خالد" هنا جبل وصبا أيضا، فعليه أن يجد "ليلاه" كما "قيس"، هي حاضرةٌ في أحلامه، ويبحث عنها في قصائده، لكن كيف هي؟! وكيف ستكون؟! لا تزال هذه أسئلة بلا إجابات، رغم خياله الجامح، وتأثره بما قرأ، ظلت "ليلى" أحلامِه مثالية مبهمةً، غرس بذرتها في أحلامه وفي حروفه أيضا، يسقيها من مزون خيال شاعر، وترعاها أحلامه العاطفية المتدفقة، ثم تركها هناك لتنمو، يزورها بين حين وآخر.

قريحته تتفتح عن شعر جميل، رأى فيه أستاذه بواكير موهبة جلية العذوبة، تصطبغ بها كلماته أكثر فأكثر كلما قرأ، بلاغة الكلمات التي ينظمها رغم صغر سنه ومحدودية محيطه تنبيء - بلا شك - أنه شاعر بحق، علمه كيف يكتب للطبيعة والجمال والوطن، فكتب وأبدع، شعر الشاب بالامتنان لأستاذة، فقد علمه الكثير، صحيح أنه كان شاعرا بفطرته، إلا أن تلك الموهبة لم تكن لتصبح كما أصبحت بدون هذا الصديق الذي علمه كيف يكتب للحب، لكنه لم يعلمه كيف يحب، تلفت في محيطه بحثا عن عامرية ليحبها، فلم يجد، وقد كان لتجربته مع "سعدية" وقعٌ غير ما تمنى أن يكون، كتب لها شعرا حشد فيه كل كلمات الحب التي يعرفها، وانتظر اللحظة المناسبة ليسمعها ما كتب.

ذات مساء كان يجلس معها على شرفة قريبة من الدار، يراقبان الأغنام العائدة من الحقول، لم يكن أنسب من ساعة الأصيل تلك ليسمعها شعره، قرأ ما كتب لها، ولم ينظر إليها في أثناء قراءته، إذ كان منشغلا بدمج أحاسيسه مع كلماته؛ كي تبدو أجمل وأشد تأثيرا، وعندما انتهى التفت إليها آملًا ألا يرى دموعها متأثرة بما سمعت، تمنى فقط أن تبتسم إعجابا، لكن الفتاة لم تكن معه، وانتبهت فقط عندما خيم الصمت فسألته:

-ماذا كنت تقول؟

-شعرا، ألم تسمعيه؟!

-لا، فقد كنت أعد الأغنام العائدة من الحقل.

-هل أعيد قرأته؟

بقي لديَّه أملٌ أن تسمعه

-لا لا.

-لماذا؟

-لأني لا أريد أن تجن.

-وهل من يقول الشعر مجنون؟

-نعم، أخبرتني جدتي أن الجن يتلبسون الشعراء.

كل ما أيقنه من تلك المحاولـة التـي لـم يكررهـا، أنَّـه لا "ليلـي" فـي المحيط، كيف سيكتب عن الحب إذًا؟! هل يكفـي أن يكتـب لـ"ليلـى" التـي في خياله؟! لكنه لا يملك حتى خيالا واضحا عما يجب أن تكون "ليلى".

تعلم من جده الكثير الذي لم يكتف برعايته المادية فقط، بل بتربيتـه الأخلاقية، لم ينهره يومًا أو يضربه، بل كان يريه المواقف ليتعلم منهـا، و تعلـم مـن أسـتاذه أيضـا، لكـن هنـاك بمـرور الأيـام مـا يسـتجد دائمـا، هنـاك أشـياء جديـدة لـم يخبـره أحـد عنهـا، كتلـك الضـبابية التـي تكسـو أحلامـه العاطفية، فهي تحتاج إلى رياح معرفة لتنقشع، يريد أن يصـنع قصـة حـب ملحمية كتلك القصص التـي قرأ عنهـا، لكن كيف يصـنع تلك القصـة بـلا "ليلاه"؟ روح الشاعر لديه وعاطفتـه المتدفقـة كتلـك الشـلالات التـي ترفـل بها جبال القرية بعد هطول المطر، ستجد مصـابها، وسيجد "لـيلاه" عليـه فقط أن ينتظر.

جـاء الصـيف، وللصـيف فـي القريـة دائمـا طعـم آخـر، فهـو موسـم عـودة الطيـور المهـاجرة، عـودة الأحبـاء والأقـارب مـن بلـدان الاغتـراب، يعـودون محملـين بـالكثير مـن الهـدايا، والأهـم أنهـم يعـودون بـالكثير مـن القصص التي تجعل ليالي السمر فـي القريـة الصـغيرة تنقل أهلهـا إلـى مـا وراء تلـك البحـار البعيـدة، إلـى عـوالم أخـرى فيهـا الكثيـر مـن التطـور والمدنية، يروون دائما حكاياتهم الجميلة، وكأن الورود هي كل ما تكتسبه دروب الغربة، فلا يحكي أحدهم شيئا عن أشواك ومعاناة.

استهوت "خالد" المولع بالمعرفة أخبارُ البلدان الأخرى، يريد أن يعرف شيئا عن كل شيء لا يعرفه، يتملكه شعور أن هناك شيئا بعيدا ينتظره، كيف؟ وأين؟ لا يدري، يتمنى فقط أن يذهب إلى البعيد ليراه، ليس للاغتراب بل ليرى ويتعلم، الآن عليه أن يكتفي برؤية العائدين وسماع حكاياتهم.

ذات صباح أخبره جده أن عائلة من القرية التي في أسفل الجبل سيصلون في الليل قادمين من دبي، ولن يستطيعوا إكمال طريقهم إلى قريتهم؛ لأن الطريق جرفتها السيول، لذلك سيحلون ضيوفا على الدار، لم يهتم الشاب بالخبر كثيرا، لأنه اعتاد أن يكون دارهم محل ضيافة لسبب وبلا سبب، كما تعود أن يساعد جده في القيام بواجب الضيافة.

في ساعات الليل الأولى وصلت تلك العائلة، وكان مع جده في مقدمة المستقبلين، كان يتوقع أن يرى كما اعتاد عائلة تقليدية؛ رجلا كبيرا في السن وامرأة عجوز، وأطفالا بدناء أيضا، تلك هيئة القادمين من الخليج دائما، فهذه ليست المرة الأولى التي يستضيف جده إحدى العائلات القادمة من الخليج، سأل يوما عن السبب، فأخبره جده أن سمنتهم نتاج النعمة التي يعيشون فيها، لكن ما رآه الليلة كان مختلفا بحق.

صحيح أن الرجل والمرأة كانا قريبين مما توقع، لكن الأولاد كان لهم شأن آخر؛ وَلد في السادسة من عمره تقريبا، يرتدي بدلة أنيقة زادته جمالا، وثلاث فتيات بين الثالثة عشر والسابعة عشر، بَدَوْنَ له في أثناء

نزولهن كفراشات مشعة، أحَلْنَ ظلامَ الليلِ هالةَ نورٍ ساحرةٍ، الوسطى تحديدا بدت له تجسيدا لـ"ليلاه".

كانت كفراشة أحلام بتلك الملابس المزركشة، وتلك الحقيبة الوردية الصغيرة التي تحملها بأطراف أنامل رقيقة لم يرَ مثلها من قبل، كان لهن تأثير كالسحر على الطريق القصيرة إلى داخل الدار، أحدثْنَ الكثير من الصخب الجميل، لكن ما أحدثْنَ في قلبه الليلة من صخب كان أجمل بكثير.

من عادته أن يتهرب من مثل هذه الواجبات الاجتماعية، فينتهز أدنى فرصة ليترك ضيوف الدار مع أهلها، ويذهب لمسامرة أصدقائه، أو التشاغل بأي شيء، إلا أنه الليلة لن يذهب إلى أي مكان، ولن يتشاغل بأي شيء، فقد انشغل عقله بما رأى، سيكون الليلة حاضرا بكل حواسه، ليس للقيام بواجبه فقط، بل للبقاء قريبا من تلك الفراشات وخصوصًا الوردية، التي جعلت ليل القرية مقمرا بلا قمر، بل جعلت كل شيء في ناظريه يبتسم بابتسامتها، ويرقص على وقع خطواتها القليلة.

هو وجده والضيف وابنه الصغير في مجلس الرجال، والفتيات ووالدتهن في ضيافة نساء الدار، لديه أكثر من فرصة ليراهن، فهو دائما همزة الوصل بين المجلسين، يتمنى أن يرسله جده قريبا لإحضار شيء، أو تناديه أمه أو إحدى عماته لأخذ شيء، وربما هذا الطفل الجميل الصغير سيحتاج أن يرى أمه بين فينة وأخرى فيأخذه إليها، تأكد أنه سيراهن أو تحديدا سيراها، فليس هناك الكثير من الحدود، لكنه وجد

الليلة عائقًا لم يحسب له حسابا سابقا؛ "سعدية" لا غير، كلما وجد عذرا ليذهب إلى مجلس النساء القريب من المطبخ، وجد "سعدية" تتلقاه في منتصف الطريق حاملة ما هو ذاهب للإتيان به بدعوى أنها تساعده، لكنها بغريزة الأنثى تقف حائلا بينه وبين فتيات لا تريد له أن يتواصل معهن.

ما لهذه الـ"سعدية" تقف حائلا بيني وبين ما أريد؟! هكذا يتساءل كلما يصطدم بها، يعلم أنه لن يحصل على الكثير، فقط يريد أن يرى ليصبح لديه تصور أفضل عن كيف تكون الأنثى، بل كيف يجب أن تكون "ليلى" التي سيحبها يوما ما، حاول لاحقا أن يراهن َولو لمرة واحده ولم يفلح.

طال حديث جده مع الضيف، ونام الطفل، فهمَّ أن يذهب إلى النوم أملا في صباح أفضل لا تكون فيه "سعدية" أبدا، إلا أن الضيف أخيرا طلب منه أن ينادي زوجته وبناته للجلوس مع الشيخ "سعيد".

أخيرًا استُجيب لأمنياته، نفض النعاس الذي كان يغالبه، وقام ليؤدي مهمته، وجد "سعدية" في الطريق، فدفعها جانبا، ودخل ليبلغ الرسالة، جاءت الفتيات وأمهن وبعض عماته الكبار، ولم ير أحدا قادما سوى تلك الفراشة وفستانها المزركش َوحقيبتها، ظل ينظر إليها بل يتأملها، وعندما تنظر إليه يغض بصره أو ينظر في الاتجاه الآخر، تسارق معها النظر أو هكذا خيل له على الأقل، وعندما انفض السامر كان قد رأى ما يكفي ليلهب شاعريته، ويجسد حقيقة لخيالات كثيرة طالما

راودته، بل ما هو أكثر من ذلك، هذه الليلة شعر برغبات رجولية كانت في عنفوانها أقوى من عاطفته المتدفقة، عرف منها أنه كما يبحث عن "ليلى" ليكتب فيها شعرا، يحتاج إلى أنثى تمنحه رغبات الحياة بذات القدر، لكنه بطبعه الشاعري سيجد لدى "ليلى" التي تبحث عنها روحه الأنثى التي تمنح الجسد رغباته مما يروي الروح والجسد معا.

في ساعات الصباح الأولى استيقظ على أصوات ضوضاء لم تعتدها الدار، فتيات الخليج تشاغبن الدجاج والأغنام، بل كل ما يصادفن في طريقهن، ولم يوقفهن أحد لأنهن ضيفات أولا، ولأنهن يأتين من بيئة مختلفة، ربما كان ذلك أمرا عاديا من حيث يأتين، ولربما لم يعتدن وجود حيوانات منزلية بهذا القدر والقرب.

في الصباح صحب "خالد" فراشة البارحة؛ ليريها تلك الأرانب الكثيرة التي كان يربيها، في الحقيقة أنه أحضر منذ فترة بسيطة زوجين منها فقط، ثم تكاثرت بشكل رهيب حتى أنه لا يعرف أعدادها الآن، أعجبها ذلك، واحتضنت بعض الأرانب التي استطاعت الإمساك بها، فأخبرها أن بإمكانها أن تأخذ معها العدد الذي ترغب فيه عندما ترحل، والفتاة بدورها كانت لطيفة معه، سألها عن تلك السماعتين اللتين لا تفارقان أذنيها، فوضعتهما على أذنيه ليسمع أغانيَ أحس أنها جميلة لأنها من اختيارها، لم يسمعها سابقا، لكنه أخبرها أنها أغان رائعة، ثم دعاها وأختيها ليأكلن من شجرة التين الشوكي المجاورة للمنزل، ولم يأبه كثيرا

لنظـرات "سـعدية" الحانقـة عنـدما تحلقـت الفراشـات حولـه، يسـتحثِّنه بانبهار أن يأخذهن سريعا إلى تلك الشجرة.

شعر بأهمية ونشوة في آن واحد، فله دور كبير فـي إسـعادهن، بـل إنه بالغ في محاولة إسعادهن، فلم يبدِ ألمه من وخز شوك التين، ربمـا لأن شعور السعادة كان حاضرا وأقوى من الشعور بالألم، وربما لأنـه لـم يكـن من اللائق أن يبدي ضعفا أمام كل هذا الحشد الطـاغي مـن الرقـة والأنوثـة إلى الحد الـذي يُوجِد رجولـة مـن العدم، فكيـف بـه وهـو الممتلـئ رجولـة، تحتاج إلى السكون في مكامنها بعد أن ترتوي!؟ كـان ارتواؤهـا سـابقا مـن محض خياله، واليوم يرتشف من نبع حقيقـة تجسـدت أمامـه ثلاثيـة مبهـرة كأروع ما يكون، تركت في أحاسيسه أثرا لن ينساه.

-"خالد"، انظر وخزتني شوكة في يدي.

تجاهـل نـداءها لتعيده، لأول مـرة يشـعر أن اسـمه جميـل إلـى هـذا الحد، "خالد" له وقع موسيقي على لسانها، كررت الفتاة نـداءها فـي لهجـة تضرع موسيقية طربت لها نفسه:

-أرجوك يا "خالد" ساعدني.

أمسك بيدها

-لا تخافي، سأنزعها ويختفي الألم.

نزع الشوكة الصغيرة من كفها الصغير برقة لم يعهدها في نفسه، يا الله! كيف يمكن لفتاة أن تحيل كل ما تلمسه إلى شيء جميل هكذا؟! كيف يمكن لأنثى رقيقة ناعمة ضعيفة أن تحني أمامها عنفوان أقوى الرجال؟! عندما أخبرته أن اسمها "أحلام" كان ذلك متوقعا، فلن يكون لها اسم غير هذا.

-شكرا لك.

عندما قالتها شعر برضا الكون يغمر كل كيانه، وأحس بانتشاء أسكر كل عواطفه، حتى أنه بدا لنفسه مختلفا، كما بدا ما حوله مختلفا، وبالتأكيد شِعرُه سيكون مختلفا، الآن سيكتب للجمال وهو يعرفه، وللحب وقد عرف كيف يمكن أن يكون، ولـ"ليلى" وهو يعرف كيف يرسم تضاريسها بكلماته، فكتب:

مثلما حلم جميل..

جئن من درب سفر

كفراشات ربيع..

بين أغصان الشجر

فاتنات ناعمات..

كنُسيمات السحر

سكبن في الأرض عطرا..

ساح فيها وانتشر

وأحلن الليل بدرا..

للأغاني والسمر

وأنا من بينهن..

قد تخيرت القمر

تلك من وقع خطاها..

كحبيبات المطر

أنبتت في القلب زهرا..

فتبسم وانفطر

هي فوق الحور حسنا..

وملاك لا بشر

عندما سمع "أيمن" شعرَ تلميذِه الجديدَ ابتسم ابتسامة العارف، إذ وجد حضورا طاغيا لأنثى بين الحروف، وأدرك أنها ليست ممن يعرف في محيط صديقه وتلميذه، فقرر استنطاقه عله يعرف صدق حدسه:

-فيمن كتبت هذه الأبيات يا "خالد"؟

-لا أحد، هكذا فقط حضرني الإلهام.

-لا يمكن أن يكون إلهاما فقط، هناك ملهمة بين الحروف، فأنا أعرفك جيدا يا صديقي.

قال ذلك مبتسما كمن يؤكد أنه ليس مخطئا، فهمَّ "خالد" أن يخبره، إلا أن حاجزا من الحياء منعه عن ذلك، لكن الأستاذ عرف بفراسته أن

حدسه لم يخب في شاعرية الشاب، بل أنها تتطور بتطور بيئته، وسيغدو شعره أعذب بلا شك كلما تغيرت بواعث إلهامه، لاحقا أيضا عرف سر العذوبة التي اكتستها أبيات صديقه الصغير الأخيرة، عرف أنها من بقايا عطر فتاة مرت بحياة الفتى شاركها لحظات قليلة.

* * * *

(7)

وقع "أيمن" في حب إحدى فتيات القرية، ولم يخبرها يوما بذلك؛ لأنه لم يجرؤ، هو يعلم أن مجتمع القرية بسيط إلى الحد الذي يعرف الكلُ فيه الكلَ، والنساء لا تحتجب عن الرجال فأغلبهم أقارب، وهو أصبح واحدا منهم، لم يشعروه يوما أنه غريب، لكن هناك حدودا يرسمها العرف حاضرة بقوة بين أفراد المجتمع، ولا مجال لخطأ يمس الفضيلة والشرف، والعلاقة بين المرأة والرجل هنا لها باب واحد فقط، هو الزواج.

أحبها منذ أن رآها أول مرة، لم يكن يريد أن يحب هنا، لكنه يعلم أيضا أن الحب لا يتقيد بحدود مكان أو زمن أو عرف، هو يحدث فحسب، ويحدث غالبا في الأوقات الخطأ والأماكن غير المتوقعة، ويولد عندما يريد.. تنطلق شرارته الأولى، فلا تتوقف حتى تصبح نارا كاملة، قد تضيء ما حولها أحيانا، لكنها أحايين أخرى تحرق من بداخلها، وهو يحترق بحب هذه الفتاة القروية، ولا يجد سبيلا ليعرف إن كانت تبادله نفس المشاعر، أو على الأقل تعرف أنه يحبها.

منذ أيام قليلة كان ذاهبا إلى دكان القرية، ومر في طريقه بجانب منزلها، فالتقاها وجها لوجه وحدها، كانت تحمل دلو ماءٍ فوق رأسها، تقدم نحوها وهم أن يكلمها، فارتبكت خطواتها حتى كادت تسقط في أثناء محاولتها تدارك مياه الدلو المنسكبة، تراجع قبل أن يمد يده لمساعدتها،

فهو يعلم أن ذلك ليس مقبولا، فإن رآه أحدهم ممسكا بيدها فلن يتفهم أنه يساعدها فقط، كيف يرضى أن يدنس شرف من يحب ولو بظنونٍ فقط؟! يريد فقط أن يتزوجها، وقد شغله التفكير كثيرا الأيام الأخيرة في السبيل لذلك، وكان سينتظر، إلا أنه سمع مؤخرا أن هناك من سيخطبها وعليه أن يبادر قبل فوات الأوان.

في الطريق المتعرجة بين الوديان إلى المدرسة يسير الأستاذ وتلميذه، بل الصديقان، ويتبادلان الأحاديث الصامتة، فالشاب أصبح تواقا لمعرفة الكثير عن شؤون الحب، ولا يجد المدخل المناسب لبدء حوار كهذا مع صديقه الكبير، وهو متأكد بأنه يعرف عن ذلك الكثير ثم أنه لا يعرف من غيره سيحدثه عن شأن كهذا، صديقه أيضا يريد أن يبوح بما يجيش في صدره، عله يجد لدى "خالد" ابن القرية طريقة يهتدي بها إلى مسعاه، فقطع الأخير الصمت قائلا بعد أن وجد مدخلا مناسبا لفتح حوار طال التفكير فيه:

-هل يجب على الشاعر أن يعيش قصة حب يا أستاذ؟

-لا ليس بالضرورة.

-إذًا كيف سيكتب عن الحب؟

-هناك شعراء كثيرون كتبوا عن الحب، ولم تكن لهم يوما حبيبة، وهناك من لم يكونوا شعراء وأحبوا إلى حد الجنون .

-وهل الحب جنون؟

-ليس جنونا بذاته، لكنه أحيانا يقود إلى الجنون .

-وكيف ذلك؟

-عندما تفرق الحياة بين حبيبين.

-ولمَ قد يفترق حبيبين؟

-الأسباب كثيرة يا صديقي، أحيانا بسبب المجتمع وأحيانا بسبب الحياة والأقدار.

-ألهذا جن قيس؟

-وأخاف أنا أيضا أنْ أجن.

عفوية الحوار وعاطفته دفعا الأستاذ أن يقول تلك الجملة الأخيرة بلا مواربة أو حرج، فتوقف "خالد" عن السير سائلا:

-هل تحب يا أستاذ؟

أَمِل أن يسمع قصة حب يتعلم منها ما قد يفيده عندما يحين وقته ويعيش قصته، فقد أقنع نفسه سابقا أن عليه الاستعداد للحب، وأن يهيئ نفسه ليصنع قصته يوما ما، كما أنه قد بدأ منذ فترة بكتابة تفاصيل تخيل أنه سيعيشها، ولم يخبره أحد أنه لا تحضير أو استعداد في أمر الحب.

-نعم يا صديقي، أنا أحب.

-وهل هي تُحبُكَ؟

-لا أعلم.

-كيف لا تعلم؟! ألم تكلمها؟

سأل الفتى مستغربا، فأجابه "أيمن":

-لا أستطيع.

-لماذا؟

يود أن يخبره لم لا يستطيع، لكن كيف سيخبره والفتاة ابنة قريته، ربما لن يتقبل ذلك، وربما هناك أشياء في مجتمع القرية لما يعرفها بعد، بل ربما قد يخبر الشاب أحدا فيأتي الأمر على غير ما يريد .. عندما تأخر في الرد تابع الشاب تساؤله:

-هل هي من قريتنا؟

كان سؤال الشاب مفاجئا، لو لم يكن مقبولا أن يحب من القرية لما سأله، ربما أنه قد أعطى الأمر أكبر من حجمه وبنبرة من عثر على بارقة أمل:

-نعم هي من القرية.

-ولم لم تسألها إن كانت تحبك أم لا؟

-وهل أستطيع ان أتحدث إليها من دون أن تحدث لي مشكلة أو لها؟!

-هاه!

تلعثم الشاب الذي كان يتحدث باندفاع أنساه أن للموضوع أبعادا أخرى لم يفكر فيها، ولما لم يجد جوابا في عقله أكمل:

-لماذا لا تسأل جدي؟

هكذا أحال الموضوع إلى جده، فهو عندما يواجه مشكلة لا يعرف حلها يسأل جده، ورأى "أيمن" بدوره أن الفكرة منطقية، لماذا لا يتكلم مع الشيخ "سعيد"؟! بالطبع لن يقول له أنه يحب الفتاة، بل سيسأله أولا هل يستطيع الزواج من إحدى فتيات القرية، وعندما سأل الشيخ عن ذلك كان جوابه مبشرا بأكثر مما أمل:

-نعم يا ولدي فأنت واحد منا، ائتمناك على صغارنا لتعلمهم، ووجدناك أهلا لذلك، فكيف لا نزوجك؟! قل لي من الفتاة وأنا سأخطبها لك.

عندما أخبر الشيخ عن الفتاة، لم يتوانَ الشيخ، فذهب بكلمته المسموعة لبيتها وخطبها، واشترط أهلها أن يتم الزواج في القرية، ولم يمانع "أيمن" ذلك، فلم يكن لديه سوى أخ أكبر منه اغترب بعد وفاة والديهما، وأخت تعيش في عدن مع أسرتها، وصديق عمر يفتقده، ولابد أن يكونوا حاضرين معه في فرحة عمره.

❋ ❋ ❋ ❋

(8)

استيقظ "خالد" مبكرا يشعر بالحماس، الذي مبعثه شعور بالواجب، وأهمية الحدث القادم، فالتحضيرات تجري لزواج الأستاذ "أيمن"، والذي أخبره سابقا أنه سيحتاجه لأداء الكثير من المهمات لمساعدته، إلا أن طبيعة هذه المهمات لم تتحدد إلى الآن، فقد عاد "أيمن" من سفره البارحة، وعليه أن يلاقيه اليوم كي يحددا معا ماذا ستكون مهماته.

فاته أمس أن يستقبل ضيوف صديقه، الذين أتوا في وقت متأخر، لكن لا بأس، اليوم سيذهب مبكرا ليعوض ما فاته، ويكون بجانبه في أهم وقت يحتاجه فيه، غادر الدار مسرعا لفرط استعجاله متجاهلا نداءات والدته المتكررة ليتناول فطوره.

بين الدار وسكن الأستاذ طريق قصيرة، وهناك شجرة أثل كبيرة جدا، كانت موجودة قبل أن يولد، بل ربما هي هناك منذ الأزل، هكذا تبدو على الأقل، تحت تلك الشجرة صنع مكانه الخاص بين جذوعها الكبيرة، وأخشاب أخرى تحتها صنع منها مكانا يجلس فيه دائما، يكتب الشعر، ويسامر أصحابه أحيانا، ولتلك الشجرة حكايات كثيرة حكتها له جدته التي كانت تجلس كثيرا في ذلك المكان لتحكي للصغار قصصها الجميلة، اعتادت كل صباح أيضا أن تجلب بقرتها لتطعمها تحت

الشجرة، وتدندن لها بأغان قديمة، حفظها لكثرة ما سمعها منها كل صباح.

عندما اقترب من الشجرة سمع دندنة، لا ليست دندنة بل غناء واضحا شجيا، يصدر بصوت لم يسمعه من قبل في حياته، ولم يخيل إليه حتى في أشد أحلامه جنونا أنه سيسمعه، وأين؟ هنا في القرية! صوت فتاة تغني، لوهلة ظن أنه نائم يحلم، إلا أن أشعة الشمس التي تلامس وجنتيه، وهبات النسيم الباردة التي تدغدغ أنفه يخبرانه بكل وضوح أنه ليس نائما.

الغناء الذي يسمعه ليس أهزوجة قرية، ولا تغريدَ فلاحة، بل غناء آخر مختلفا، استحضر في ذاكرته كل فتيات القرية بل فتيات القرى المجاورة، وكل من يمكن أن تغني بهكذا صوت، حتى كلمات الغناء التي يسمعها كانت مختلفة، من عالم آخر، فتتبع حبل الصوت القادم عبر الأثير رويدا رويدا؛ كي لا ينقطع هذا الحبل لفرط رقته، فقاده الصوت إلى حيث لا يدري.

هناك لحظات في الحياة تقودك مرغما إلى مساراتها، وتتحكم فى منحنيات مساراتك لتطوعها تبعا لإرادتها، فتصل بك إلى محطات محتومة، لا تملك خيارا أمامها لتغير مسارك أو حتى أن تتوقف، إلا بعد أن تصل بك إلى حيث أرادت .. وقف الفتى بعد أن أكمل مساره أو المسار الذي اقتيد إليه بعد أن وصل إلى طرف الحبل الآخر، فانقطع الحبل، وحل الصمت.

توقفت الفتاة عن الغناء عندما رأته واقفا أمامها لا يحرك ساكنا، لا يتكلم، ليس سعيدا ولا حزينا، فقط واقفا في صمت كتمثال أغريقي، حتى خيل للفتاة أن أنفاسه توقفت أيضا لفرط سكونه.

-صباح الخير

بادرت التمثال الواقف أمامها علها تكسر سكون اللحظة، فَلم يرد، فأردفت لتتأكد أنه حي:

-هل انت بخير؟

ولم يرد

-ما بك؟! هل رأيت جنية؟

كان بالفعل كمن رأى شبحا أو جنية، فرد أخيرا بسؤال:

-وهل أنتِ جنية؟

افترض أنها قد تكون كذلك، فهو شاعر، وليس بعيدا أن يرى جنية، أخبرته جدته عن ذلك الشاعر الذي أحبته جنيه جميلة، وكان يراها وتراه، بل أنه قد تساجل معها بقصائد كثيرة حتى أنه هو يحفظ إحدى تلك القصائد التي سمعها من جدته تحت هذه الشجرة تحديدا، ردت الفتاة ضاحكة:

-لا، أنا أنسية .

-معقول!

-ما هو المعقول؟

-لا أدري .

هو يرد فقط بغريزته، لم يفكر في سؤال أو جواب، فكيف يفكر وقد كفت أفكاره عن الدوران في حضورها؟ كما كف كل شيء عن كل شيء، توقفت الأسئلة، وانتهت الإجابات، وتلاشت الأحلام، حضورها يكسو الكون من حوله، فلا يبقى بعده لأي شيء آخر معنى.

قالت له شيئا بعدها أو سألته أو لم تسأله، لم يسمع شيئا؛ لأنه لم يكن حاضرا، فقد علق هناك في انبهار اللحظة الأولى، علق بين خيالات رسمها وواقع أجمل من كل الخيالات التي رسم يوما، بين أمنيات نسجها من خيوط مشاعره وبين استجابات جسَّدَها القدر بشرًا تمشي على الأرض.

عندما رأت الفتاة شروده المستمر اعتقدت أنه يعاني خطبا ما، فتركته ومشت خطوات قليلة، ثم التفتت إليه بفضول الأنثى، فوجدته لا يزال مسمرا في مكانه، ينظر إلى حيث كانت، وكأنها لم تغادر، بل خيل إليها كأنه يتكلم، (ربما هو بالفعل يعاني خطبا ما)، حدثت نفسها وهي تمضي في طريقها، فهي لا تعرف شيئا عن فتيان القرى، ستسأل خالها عنه عندما يستيقظ.

أخيرا أفلت الفتى من شرنقة اللحظة، لم يرَ الفتاة، ولم يكمل طريقه، فقد نسي إلى أين كان سيذهب، فقفل عائدا إلى الدار، استغربت

والدته عودته السريعة مكتسيا بسكون تام، بعد أن غـادر منذ لحظـات فـي صخب لا يصنعه غيره.. جلس على مقربة من والدته يشرب الشاي.

-ما بك؟

سألته الأم مشفقة بعد أن رأت شروده غير المعتاد:

-لا شيء.. لماذا؟!

-تبدو كمن رأى شبحا!

هو يظن أنه كذلك، لكن ما رآه ملاكٌ لا شبح، فرد بعد برهة:

-لا شيء، لا شيء .

مـن طريقـة إجابتـه ونبـرة صـوته أيقنـت الأم أنـه رأى شـيئا مـا، فسألته:

-ألم تذهب إلى منزل الأستاذ؟

-ذهبت ولم أجد أحدا، ربما لا يزالون نائمين.

-حقا! لقد كنتُ هناك قبل قليل، وقابلت أخت الأستاذ.

-وهل جاءت أخته؟

-نعم، جاءت مع زوجها وبناتها.

-من هم؟ وكيف هم؟

-اللهم صلِّ على محمد.

ابنها بالفعل ليس في طبيعته، يسأل أسئلة غير منطقية، تركته عائدة إلى المطبخ شاردا في تلك الفتاة، يفكر في كنهها، ويتساءل إن كانت حقيقة أم هي من وحي خياله، أقرب ظنه أنها من نسج مخيلته، لكنه سرعان ما تراجع قائلا في نفسه: (لا، لا، لقد تكلمت معي)، حاول أن يتذكر ما قالته بلا جدوى.

(ما هذه الوسوسة التي تلبستني؟! سأذهب إلى الخارج لأراها وأعرف من تكون)، هكذا قال في نفسه وهو يخرج.

*****

عندما وافق الأستاذ "أيمن" على أن يتم زواجه في قرية خطيبته، كان لابد أن يذهب لإحضار أخته وزوجها "ياسر" صديقه وزميل دراسته، فذهب إلى عدن، ولم تكن مهمته سهلة، حيث استنكرت أخته الأمر برمته، كانت تود أن يتزوج من عدن، أو على الأقل من قريته بل كانت تأمل أن يتزوج إحدى قريباته، لكنها أمام إصراره طلبت منه أن يأتي بالفتاة؛ كي يتم الزواج في عدن، وبعد محاولات غير مجدية منه لإقناعها بحضور زواجه في قرية خطيبته، استعان بـ"ياسر" الذي كان متفهما أكثر من زوجته فحسم الأمر:

-هذا زواجه وحياته أيضا، وقراره أن يتزوج من بلاد بعيدة، ولا بد أن نكون معه فنحن أهله.

وافقتْ رغم تحفظات كثيرة، ثم سألت زوجها مستدركة:

-ماذا عن البنتين؟

-ماذا عنهما؟! سنأخذهما معنا.

-لا .. لا، سيكون في ذلك مشقة عليهما، ربما تمرض إحداهما في أجواء القرى الباردة، سنتركهما هنا عند أختك حتى نعود.

-سوف نأخذهما معنا، فقد تحدثت إليهما، ولم تمانعا، ثم لنعتبرها رحلة إلى الشمال.

وافقت الابنة الكبرى "أسرار" مباشرة، حيث لم تجد سببا يمنعها عن حضور زواج خالها، أما "أزهار" فاعترضت في البداية؛ رغبةً عن الذهاب إلى قرية بعيدة في الشمال، ورغبة في حضور حفلة مدرسية قريبة ستغني فيها، لكنها أمام إلحاح خالها وافقت على شرط أن تغني في حفل الزواج، فرد الأب ضاحكا:

-لا أظن أن الفتيات يغنين في الشمال يا صغيرتي، بل سترتدين النقاب.

-ماذا أرتدي؟! نقابا! إذًا لن أذهب إلى أرض البدو.

أخبرها خالها لاحقا أن الأمر ليس كما تعتقد، فأهل القرية ليسوا بذلك التزمت، كما أوضح لها أن فتيات القرية لا يرتدين نقابًا، وإلا كيف رأى خطيبته من الأساس ليقع في حبها!، وبهذا الكلام المقنع سألته:

-كيف رأيتها أول مرة يا خالي؟

-كانت تأخذ الأغنام إلى الحقل.

سألته وهي تغالب ضحكتها:

-ماذا؟! هل هي راعية أغنام؟!

-لا، ليست راعية أغنام، بل لديهم أغنام.

لم تفهم "أزهار" كيف لخالها الذي تربى في مدينة كعدن، أن يحب راعية أغنام في قرية جبلية بعيدة عن كل مظاهر المدنية، وعندما سألته عن ذلك قال (إنه الحب)، فكرت أنه من الجيد ألا تحب أحدا، ولن تحب سوى والديها وأختها وصديقتها والغناء فقط، وليُرغِّبها "أيمن" في الحضور أخبرها أنها ستغني للنساء في زواجه، لم يكن متأكدا أنه يستطيع الالتزام بهذا الوعد، لكن المهم أن يحضر زواجه الجميع، ولم يرَ مانعا من وعود صغيرة.

الفتاتان تغادران المدينة لأول مرة، وكلما تقدمت السيارة باتجاه الشمال قلت مظاهر المدنية في محيط الطريق، حتى اختفت تماما بين سلاسل الجبال، التي بدأت السيارة تجتازها صعودا كأنها ستلامس السماء، ونزولا كأنها ستطأ أعماق الأرض.

على مشارف القرية المقصودة رأت "أزهار" المشهد جميلا، تستطيع أن تعد النجمات في السماء الصافية كما لم تشهد من قبل، وتشعرها نسمات الهواء العليل بارتواء لا تعرف سره، أحاسيسها الفنية

المرهفة أشعرتها بنشوة لذيذة عندما لامست حواسها الطبيعة في أنقى لحظات عذريتها.

*****

كما لكل شيء في مجتمع القرية طقوسٌ محددة، فللزواج أيضا طقوسه المتعارف عليها، وحدثٌ كالزواج ليس حدثًا عاديا هنا، فالقرية كلها تعيشه لأيام، تبدأ في بيت أهل العروس حيث تقام وليمة غداء في اليوم الأول، يحضرها أهل القرية وبعض الأقارب من خارج القرية في يوم يسمى (الفدو)؛ يأتي العريس ومن معه بذبائح من الأغنام والبقر، وبعد أن ينتهي الغذاء والمقيل يعودون لتقام ليلة تسمى ليلة (الحناء) للعروس في منزلها، وللعريس أن يأتي ليجلس بجانبها، تتحلق حولهما النسوة ويرددن أغانيَ الفرح وزغاريدَ العرس، ثم يعود العريس في الصباح التالي - أهم الأيام الثلاثة - في موكب كبير ليأخذ عروسه محملة بهداياها ولوازم المنزل الذي ستذهب إليه، يأتي الكثير من الضيوف في هذا اليوم فتكون الوليمة أكبر، ثم ينفض الأغراب، ويبقى الأقارب ماشاء أن يبقوا.

*****

عرف" خالد" أن الفتاة التي غنت تحت الشجرة هي ابنة أخت الأستاذ "أيمن"، كما علم أن اسمها "أزهار".

هل تغير شيء بعد أن عرف ذلك؟ .. بل هنا يجب أن يكون السؤال مقلوبا: هل بقى شيء على حاله بعد أن رآها في تلك اللحظة؟

لا لم يبق شيء كما كان، تغير كل شيء فيه إلى نقيضه تماما، فالصخب الذي كان سمته أضحى سكونا تاما، الكلمات التي لم تكن تنقطع عن لسانه تحولت إلى صمت مطبق، أيقن عندها أن لأحلامه اسما، وأن "ليلى" التي كان سيجتاز الكثير من الجبال والبحار ليجدها، قد اجتاز فقط خطوات قليلة عن الدار ليجدها، جاءته هي إلى تحت الشجرة؛ المكان الذي كان يجلس فيه ليكتب أمانيه عنها، إلى حقله الذي وضع فيه بذور أحلامه، جاءته سواقي الأقدار بماء؛ لتنمو به تلك البذور، فكفت مخيلته عن رسم الأحلام، كيف له أن يحلم بشيء أروع مما رأى؟ وكفت حروف الشعر أن تكتب شيئا، رغم أنه يريد أن يكتب، لكن كيف سيكتب وهو لم يعد يجد في مفردات اللغة ما يصف ما يشعر به؟!

تلك المسافة القصيرة التي تفصل بين الدار التي يسكنها، والبيت الذي تسكنه "أزهار" كان يجتازها مرارا متى وكيفما اتفق، أصبح الآن يتهيبها، ويفكر آلاف المرات قبل أن يجتازها، هل جاءت "ليلاه" مبكرة؟ لا شك عنده في ذلك، ودَّ أن يستعد، أن يعرف عن الحب أكثر، تمنى لو يذهب إلى بلاد أخرى ليعرف نساء كثيرات ثم يختار في الوقت المناسب "ليلاه" من بينهن، لا أن تأتي هكذا فجأة وهو غير مستعد بعد، ولا يعرف حتى كلمات حب يمكن أن تقال.

ليست فقط "ليلى" التي أراد بل أكثر مما أراد، التقاها بعد تلك اللحظة لحظات كثيرة وتكلم معها كلمات قليلة كانت هي من تبدأها دائما:

-أخبرني خالي أنك شاعر، وأنا ظننتك مجنونا.

تضحك وهي تقول كلماتها ضحكة تملأ الأرجاء سحرا كالأحلام، فيرد صادقا:

-وأنا عندما رأيتك للمرة الأولى ظننت أنني مجنون أيضا.

فتكمل ضحكتها وهي تسأله عن سبب ذلك، فيجيب دونما تفكير:

-لم أصدق أن هناك مثلك على الأرض.

اكتست ضحكتها خجلا أحال كلماتها شهدا يتساقط بين الحروف:

-أنت شاعر، والشعراء يبالغون.

-بل إنني لم أنصفك.

اختلط خجلها بدلال عذب، وهي تسأله:

-وكيف ستفعل ذلك؟

-سأكتب عنك قصيدة.

-وأنا سأغنيها، وقد سمعت غنائي.

قالتها بثقة تامه وكأنها كوكب الشرق.

-وكان صوتك ملائكيا.

ارتداها الخجل مرة أخرى، ثم شكرته وغادرت المكان، إلا أنها لم تغادر كيانه الذي ملكته منذ تلك اللحظة، منذ أن عرف أنها هي هي.

لم يعلم حينها أنه قد أصبح عاشقا، أنه قد خطا خطوته الأولى على دروب أنهكت الكثيرين، دروبٍ أفقدت الشعراء عقولهم، ومسالك سلبت الحكماء صوابهم، ومسارات انتزعت من الملوك عروشهم، لم يكن يعلم أنه قد قضم من تفاحة حواء قضمته؛ تلك التي ستأخذه في لحظات إلى جنان تسمو فوق الغيم، ثم ترديه في لحظة أخرى حتى تخوم الأرض، لم يكن يعرف أنه ليس ببعيد عن ذاك الذي جُن بـ"ليلاه"، واستغرب جنونه ذات مرة.

ما يشعر به لا يجد له وصفًا، يريد أن يراها، أن يحكي لها عن أشياء هو نفسه لا يعرفها، فقد ارتبط كل شيء حوله بها؛ هنا مرت، وهنا جلست، وهكذا ضحكت، وتلك رائحة عطرها التي علقت في ذاكرته إلى الأبد.

دخل العريس في ليلة الحناء إلى مجلس النساء، ورافقه "خالد" لدقائق، وكانت "أزهار" هناك بين نساء كثيرات، لم يرهن، فقط رآها، وقد اكتست بهالة من نور غطت على كل مَن حولها ليختفي كل شيء سواها، أبقى نظراته عليها، ولم يعلم أن تلك النظرات التي كانت تكتب السطور الأولى في قصة حبه، كانت أيضا تكتب السطر الأخير لقصة حب أخرى صامته، فقد أيقنت "سعدية" بعد أن رأت كيف كان ينظر إلى تلك العدنية أنه لن يكون لها بعد اليوم.

انطفأت قناديل أحلام "سعدية" في تلك الليلة، عندما ذهبت إلى حفل الزفاف مملوءة سعادة، كان شعورها يسابقها إلى فرحتها، حيث رأتها قريبة منها، أرادت أن ترى العروس في ليلة عرسها لترى كيف تبدو؛ لتبدو هي الأخرى مثلها في ليلتها القادمة، بل ستبدو أجمل منها، فهي جميلة ذلك الجمال الرباني الذي وهبها الله، ذلك الجمال الذي لا يحتاج لأن تضيف إليه شيئا، تضج بأنوثة تكفي أن يصرع أمامها أقوى الرجال، كانت تعلم ذلك، فقد رأته في عيون كثيرة، بل سمعته أيضا، وكان بإمكانها أن تسمع أكثر، لكنها تمنعت عن كل شيء، حتى ذلك اللهو البريء الذي قد يحدث مع فتيان القرية امتنعت عنه، لم تكن في حاجة لذلك، فلديها رجُلُها، وحبٌ يغنيها عن كل شيء آخر، صحيح أنها لا تعرف كيف ومتى بدأت تحبه، كأن حبه ولد معها، هكذا تشعر دائما، رأت النور والحياة فرأته أمامها، ولم تتمن غيره، كان هو أولا ثم الحب ثم الأماني والأحلام؛ الأحلام التي كانت عنه، أيضا أخبرها الجميع (أنها لـ"خالد")، فأصبحت تلك حقيقة مطلقة بالنسبة لها كالليل والنهار.

طوعت كل مشاعرها لتحبه فأحبته، ولم تقل له يوما ذلك، لكن لماذا عليها أن تقول له؟! هل هو أعمى كي لا يرى كل هذا الحب، كل هذا الاهتمام؟ أليس الحب هو الاهتمام؟! تفعل لأجله كل شيء منذ أن كانا صغارا، حتى أنها كانت تجمع ألعابه عندما يبعثرها، بل كانت تجمع كل عبثه دائما، وتتحمل أخطاءه، فعندما يصرخ جدها قائلا (من فعل

هذا؟) لم تكن تتردد لحظة واحدة لتجيب (أنا)، فتتلقى التوبيخ والعقاب بدلا عنه، كل هذا ولم يعرف أنها تحبه!

هي في الحقيقة لا تعرف كيف يمكن أن يكون هناك حب بدونه، كانت تقف حائلا بينه وبين كل فتيات القرية، بل حتى فتيات الخارج، قطعت كل سبل التواصل بينه وبين أي فتاة غيرها، وقد نجحت في ذلك إلا هذه المرة، مع فتاة الجنوب تلك، وأمام نظراته لها لم تعرف حينها ماذا تفعل، عرفت كيف تَحُول بين التقاء الأجساد، علَّمَتها والدتها كيف تفعل ذلك، لكن ما حدث أمامها التقاء أرواح، وهي لا تعرف كيف تمنع لقاء الأرواح، لم يعلمها أحد كيف تفعل، فقط تيقنت أنه رحل تلك الليلة.. تلك النظرة التي رأتها في عينيه، والتي انتظرتها طويلا طويلا منه وعندما رأتها لم تكن لها.

❋ ❋ ❋ ❋

(9)

أن تختزل الحياة بأكملها في فتاة واحدة، فتشرق الشمس لتلاقي ابتسامتها، تمطر السماء لتغسل دموعها، يسكن الليل ليسامرها، تكف البلابل عن التغريد لتسمع شدوها، وتهب النسمات العليلة لتحمل أنفاسها، من يشعر هكذا تجاه فتاة واحدة يعني أنها قد ملكت روحه، وكيف تعيش الأجساد بلا أرواحها؟!

كان وداع "أزهار" مؤلما، وفراقها قاسيا إلى الحد الذي جعله يحيا مع ذكرياته القليلة عنها، لن ينسى انقباض قلبه حين رحيلها، تمنى لحظتها أن تنزل دموعه علها تطفئ لواعج تشعل وجدانه، لكن الدموع امتنعت عن النزول، واللواعج أبت الرحيل، يشعر بأنه ليس هو من تغير فقط بعد رحيلها، فالقرية اكتست بالحزن، واختفت تلك الفرائحية التي طالما حملته على أجنحتها في جنبات القرية، حتى شجرة الأثل التي شهدت اللقاء الأول أصبحت هي الأخرى حزينة، بل أنه يسمع تنهداتها أحيانا.

كان يود أن يودعها وحيدا، أن يقول لها ابقي هنا؛ فبرحيلك لن يبقى شيء معي، فأنت ترحلين عن روح غضة لم تعرف الحب قبل أن تراك، كم تمنى لو اختفى كل شيء حولهما في لحظة الوداع تلك، كان سيحتضنها، لا لن يحتضنها كان سيضع رأسه على صدرها فقط ثم يبكي بصمت كما كان يفعل صغيرا على صدر أمه فتسكن عواطفه.

يا لصدور النساء! كيف خلقن سكنًا لكل العواطف البشرية؟! كم يسكن صدورهن من عاطفة وحب! وكم يختزن حنانا! هناك تنساب دموع الرجال على جبال عواطفهن، وتسري بين جداول الحب التي لا حدود لها، وهناك لا وديان لترويها، هي تروي السماء، تروي منابعها لا مصابها، ارتواء يشعر بسقوط جبال الهموم، بانزياح الوجع، بانطفاء اللهيب الذي يشعل الروح، ارتواء لا ينبت زرعا، بل يزرع حياة وراحة تغمر كل شيء، وتُنْسِي كل شيء، على صدورهن لا تمنح الحياة مرة واحدة فقط بل حيوات كثيرة إن أردن.

أيمن وعروسه - ثنائي الحب اللذان انتهت قصتهما نهاية سعيدة - ذاهبان إلى شرفة الجبل، التي تطل على الوادي الكبير، تغمرهما سعادة من يملك الكون، يبدو ذلك جليا على ضحكاتهما، يتسابقان فيسبقها وتسبقه، يمسك بيدها التي لا تزال نقوش الحناء تزينها، ويسيران معا زوجين سعيدين يعيشان اللحظة معا، وصلا إلى شرفة الجبل، فانتبه "أيمن" أن صديقه الصغير يجلس هناك وحيدا ينظر في الأفق البعيد لاهيا عما حوله، اقترب منه وسأله:

-هل تحلم في قصيدة يا صديقي؟

انتبه من شروده والتفت إليهما، توارت العروس بعيدا.

ما بالها؟! هي إلى الأمس القريب لم تكن تتوارى عنه، ربما لأنها عروس جديدة تفعل ذلك، لا يهمه الأمر، لم يعد يهمه الكثير مما في

القرية مؤخرا، هو هنا لينظر إلى جبال الجنوب البعيدة، يرقب نسمات الهبوب التي تأتي من هناك، علها تحمل له نسمة عطر يشتاقها حد الهيام.

-لا يا أستاذ، بل أعيشها.

هل كبر الفتى في الأسبوعين الذين غبتهما عنه؟ هل نضج مبكرا؟ هكذا فكر "أيمن":

-وكيف ذلك؟

-ليتني كنت أعلم.

ليس نضوجا فقط، بل حكمة، لم يكن سيطيل الجلوس معه، إلا أنه رأى أن الامر يستحق

-لماذا لا تعلم؟

-القصيدة والحب يولدان هكذا فجأة بلا سابق إنذار، تظل القصيدة تتردد وتحوم في ذهن الشاعر حتى يكتبها وكذلك الحب، إلا أنه لا ينتهي بكتابته.

يعلم أن صديقه الصغير يتعلم سريعا، وعندما يقرأ يفهم، إلا أنه اليوم يتكلم بما هو أكبر مما يمكن أن يكون قد قرأه، وسلوكه أيضا بدا مختلفا عما ألف، ذلك الفتى المندفع والمتحمس أصبح صامتا يتكلم بكلمات قليلة كحكيم عركته تجارب الزمن.

-هل قرأت عن ذلك في كتاب ما؟

-ليتني فقط قرأت.

-هل أحببت إذًا؟

-إن لم يكن ما بي حبا، فليس له اسم آخر!

-لا ألومك، فـ"سعدية" تحبك أيضا.

ضحك الفتى ضحكة مشوبة بتنهيدة:

-ليتها كانت "سعدية" لكان الأمر هينا.

-إذًا من تكون؟

-سأخبرك يوما.

-ولمَ ليس الآن؟ ألسنا صديقين؟ ألم أخبرك بمن أحببت؟

-كان لديك سبيل للوصول إليها، أما طريقي إليها فهو المستحيل.

-لماذا؟ هل هي من السماء؟

-نعم، هي من السماء.. من السماء يا صديقي، فقد نزلت مع قطرات المطر.

كان يتوقع أن يحب في يوم ما، لكن أن يأتي الحب هكذا، بدا ذلك غير مفهوم له في البداية، إلا أنه بدأ الآن يتفهم الحب الذي يشعر به، لكن أن تكون من يحبُّ من عدن، عدن لا سواها؛ المدينة التي رضع كرهها مع رشفات الحياة الأولى، لم يكن من الممكن أن يتفهم ذلك، فضلا عن

أن يفهمه، هل يعقل أن المدينة التي تؤوي قاتل والده هي المدينة التي تحتضن محبوبته؟! كيف يحب من عدن؟ وكيف يمكن لعدن أن يكون بها حب من الأصل؟ كيف يمكن أن يولد الحب من رحم الكره؟ أن يتمخض الألم عن أمل؟ كان سيستغني عن رؤية البحر لأنه فيها، حتى ولو لم ير بحرا طوال حياته، فكيف به الآن وقد أصبحت تلك المدينة تحتضن من يراها حياته؟

الفتاة لم تخبره أنها أحبته، ولم تقترب حتى من أسوار الحب التي شيدها على قلبه، لكنه أحبها ولا فرق، هل فعلت معه ما يستدعي أن يحبها كل هذا الحب؟ لم تفعل متعمدة أي شيء، كانت لطيفة معه فقط، إلا أن كل شي فيها كان يمسك بتلابيب قلبه ليحبها، كم أحب ضحكتها، أحلامَها، وتلك العيونَ التي رأى فيها ألف قصيدة وقصيدة! حالِمَان التقت أحلامهما على ضفاف القدر فحلقا معا، تذكر حين قال لها ذات ليلة:

-سأكتبك قصيدة .

وردت:

-سأغنيها.

وعود حالمين، كيف ستتحقق؟ لم يفكرا حينها، فما بينهما ليس بعيدا بحكم المسافة الجغرافية فقط، بل بحكم حواجز مجتمعية ضاربة في الجذور، وبعيدا جدا بحكم حواجز وجراحٍ نفسية تحملها الصدور، لن تقبل أمه حتى أن يذهب يومًا إلى عدن، ليس لأنها لا تستطيع فراقه، فهي

تعلم أنه رجل، وأنـه سيرحل كثيرا ويعود، فليذهب إلـى أقاصـي الأرض ستمنعه قليلا، ثم ستحتضنه وتبكي، لكنـه سيذهب فـي النهايـة، إلا أنهـا لـن تقبل أن يذهب إلى عدن، ولماذا يذهب إلى عدن ولـيس لـه أحد هنـاك، ولا مسببات ليذهب؟!

أيكفـي أن قلبـه هنـاك مـع "أزهـار"، وعليـه أن يـذهب ليسـترده؟! بالنسبة له ذلك يكفي بل هو أكثر، لكن كيف بمن حولـه؟! هل يخبـر والدتـه أنه أحب تلك العدنية؟! أي مبررات سيقدم لهـا أمـام أوجـاع لا زالـت تحيـا معها؟! هل يقول لجده إن الفرح غـادره يـوم أن غـادرت "أزهـار"؟ ، وإن مـاء حياتـه هنـاك فـي عدن! لمـاذا أيهـا الحـب؟ لمـاذا أنـت أعمـى؟! لـمَ لا تتركنـا نختـار متـى وأيـن نحـب؟ لـمَ لـمْ يحـب "سـعدية"؟! كـان سيتزوجها وينتهي الأمر، ثم يكتب فيها قصائد حب لا تنسى، لمـاذا يكـون حبـه هنـاك على شواطئ بحر بعيد؟ وهو الذي لا يملك شراعا ولا يعرف الإبحـار، لمـاذا عليـه أن يبحـر وهـو ابـن الجبـال؟ لمـاذا علـى قصـيدة حبـه أن تكـون إليادة وهو ما يزال يتلمس خطواته بأبيات قليلة؟

تسـاؤلات كثيـرة وصـعبة، أصـعب مـا فيهـا أنــه لا يسـتطيع أن يتشاركها مع أحد فمن يملك أصـلا إجابـات لكل ذلك؟ الآن يعـرف لمـاذا جن "قيس"، فـي السـابق عندما كـان يـراوده تسـاؤل مـا، يسـأل مـن حولـه فيجد الإجابات أو بعضها على الأقل، الآن مَن سيسأل؟ هل يسـأل صـديقه المقرب؟! ماذا سيقول لـه؟! أنـا أحـب ابنـة شـقيقتك! أحببتهـا فـي أيـام قليلـة حبـا كـاملا واضـحا كالشـمس التـي تتوسـط كبـد السـماء، رأى أن الأسـتاذ

"أيمن" رغم تفهمه لن يجد ذلك منطقيا، فسيسأله كثيرا": كيف تحبها؟ ولماذا؟ وهل أحبتك هي الأخرى؟.. سيصبح هو المسؤول وليس السائل، وهو لا يملك لنفسه إجابات حتى يجيب على تساؤلات الآخرين.

*****

من عادات مجتمع القرية الزواج المبكر، فما أن يصل الشاب أو الفتاة إلى سنوات البلوغ الأولى حتى يبدأ الحديث عن الزواج، في السابق كان قريبه "منصور" يقف حاجزا بينه وبين أن يكون هو موضوع زواج قادم، ثم تزوج "منصور"، فتوجهت أنظار العائلة إليه وإلى "سعدية" التي أصبحت أيضا في سن يسمح بزواجها، ولم يطل الانتظار، فقد جاءه الجد:

-أريد أن أفرح بزواجكما يا ولدي.

-لا زلت صغيرا يا جدي.

-أنت الآن رجل، والزواج إكمال لنصف الدين، وسيفيدك أن تستقر.

-ألا تريدني أن أكمل دراستي في الجامعة؟!

-لن يمنع زواجك ذلك، بل سيساعدك.

كان الجد قد حسم أمره، ووضع مخططه لحفيديه؛ سيتزوج "خالد" من "سعدية"، والدتاهما موافقتان، ورأي الحفيدين ليس بتلك

الأهمية، فقد قرر الكبار، المهم أن شيئا من ميراثه لن يذهب لأحد من غير نسله، وهو الأدرى بمصلحة الجميع.

لم يكن "خالد" يفكر في الزواج حينها، ولم يكن من الوارد أن يخبرهم أن له حبا هناك على شواطئ الجنوب البعيدة، ثم أنه لا يعلم إن كانت "أزهار" تحبه أصلا، وهل من الممكن أن يتزوجها يوما، يعرف فقط أن عليه الآن ألا يتزوج، بل عليه أن يفكر كيف سيذهب يوما إلى عدن؛ ليراها مرة واحدة فقط، ثم يقرر بعدها، فكان رده على الجد حاسما:

-لا يا جدي، لا أستطيع الزواج من "سعدية".

-لماذا يا ولدي؟

-سعدية كأختي، فكيف أتزوجها؟!

هو تقريبا يشعر نحوها كأخت، أكثر من أي شعور آخر، ذلك هو التعريف الوحيد الذي يجده لعلاقتهما، "سعدية" التي كانت تسمع الحوار لم تبد أية ردة فعل، فبالنسبة لها كان الأمر قد حسم تلك الليلة التي أيقنت فيها أنها لن تتزوجه، ثم ماذا بقي لها فيه لتتمسك به؟ وهي تراه صار جسدا بلا روح، حتى وهي الفتاة القروية التي لا تملك رأيا في الرجل الذي يختاره الكبار لها، لن تقبل أن تتزوج رجلا لا يرى فيها أي شيء.

منذ رحيل تلك العدنية اقتربت منه تبحث عن "خالد" الذي تعرفه، عن رفيق صباها وحلم شبابها، فلم تجد ذلك الصبي الذي شاركها

ضحكات صباها ولهوها، ولا ذلك الشاب الذي نضجت حياتهما معا، لم تجد من تشاركت معه حياة كاملة، وجدت شخصا آخر لا تعرفه، شبحا يتحرك أو روحا هائمة، لم يبق فيه شيء تعرفه، فابتعدت في صمت وهي تلملم أحزانها ودموعها، وغصة ألم صامتة ستبقى معها إلى الأبد.

الجد بقدر ما آلمه رد حفيده، لكنه رجل تقي لن يجبر أخوين على الزواج، ولن يظلم أحدا، سيدع الحفيد قليلا، حتى يتسنى له أن يختار فتاة أخرى من القرية، أو القرى المجاورة، و"سعدية" سيأتيها النصيب، سيخطبها الكثيرون الآن فهي حفيدة الشيخ "سعيد"، وقد امتنع عنها الخطاب قبلا؛ لأن الجميع كانوا يعلمون ما يعده الجد لها والآن لم تعد كذلك.

*****

دخل "أيمن" إلى مجلس الشيخ ذات مساء يريد أن يحدثه في أمرٍ ما، فوجد صديقه يجلس مع جده، حياهما ثم قال:

-يا شيخ "سعيد" سوف أسافر هذه الإجازة، وأريدك أن تكلم والد زوجتي أنني سأخذها معي.

-سأفعل إن شاء الله، ولكن لا تبطئ علينا في العودة.

-ربما أتأخر قليلا هذه المرة.

-لماذا؟

-سوف أذهب لزيارة أختي في عدن.

عدن المفردة التي كان "خالد" لا يرغب حتى بسماعها في أفكاره سابقا، غدت مفردة تسكن أعماقه، ويود سماع أي شيء عنها، فتدخل في الحوار مقاطعا:

-هل ستذهب إلى عدن؟

-نعم.

نظرة الجد إلى حفيده كانت كافية ليدرك أنه أخطأ بمقاطعة الحديث، وتلك ليست أخلاقه، لكنه لا يعلم لمَ اضطربت بوصلة أخلاقه عندما ذكرت عدن، استأنف الجد الحوار مع محدثه:

-بالتوفيق يا ولدي، ولتعد بسلامة الله.

وعند أول سانحة انتظرها بفارغ الصبر ليسأل جده:

-هل أستطيع يا جدي الذهاب مع الأستاذ "أيمن" إلى عدن؟

كان السؤال مفاجئا لجده، ليس لأنه يحمل حقدا على المدينة، فهو يعلم أنها مكان كغيرها، والأماكن مهما ارتبطت بذكريات مؤلمة فلا ذنب لها، فالآلام من صنع البشر.

-وماذا ستفعل هناك؟

-سأرى المدينة والبحر.

لو استطاع لقال: سأرى حياة كاملة، سأرى من لم أعد أرى شيئا سواها، سأرى إن كنتُ لا أزال حيا، سأرى إن كانت حقيقة لا حلما عابرا.

-لمَ لا تدعه يأتي يا شيخ؟! سيكون معي، وسأريه عدن ومكتباتها وبحرها، ومن يسكنون فيها.

قال عبارته تلك وهو ينظر إلى "خالد" مبتسما، وقد استغرب الشاب ذلك، وتساءل عم يقصد الأستاذ، فهو لم يخبره بشيء يوما، فهل يعرف شيئا؟! هل من الممكن أن تكون "أزهار" قد أخبرته أنها تحبني أيضا؟!

رد الجد مبتسما:

-أرِه المكتبات والبحر فقط، وأعده إلينا.

-ربما نزوجه عدنية .

قالها الأستاذ ليضحك الشيخ ويناكف صديقه:

-لا لا، لن ترضى عدنية أن تعيش في القرية، ما لنا وبنات المدن اللاتي لا يستطعن حتى إطعام أنفسهن.

-حسنا سأريه البحر فقط وأعيده سالما.

كاد "خالد" يطير فرحا، أراد أن يقبل جده، أو يحتضن صديقه، أن يفعل أي شيء ليرضي فرحه.. هل الأقدار كريمة إلى هذا الحد؟! هل

للحب طرقه التي يطوع بها المستحيل ليكمل مساراته؟! هل سيرى "أزهار"؟ هل سيسمع غناءها مرة أخرى؟

❊ ❊ ❊ ❊

(10)

الأماكن تظل نفسها دائما، رمزيتها فقط تتغير بتغير ارتباطها بالذاكرة، فلا يوجد مكان للحزن دائما، ولا مكان سرمدي الفرح، فالمكان الذي ترتبط فيه مشاعرنا بلحظات السعادة والفرح اليوم، قد يصبح في يوم آخر مبعثا للحزن والألم، نفس الأماكن التي تشهد البدايات بكل روعتها تصبح بعد النهايات بواعث ألم تستدعيها الذكريات، عدن التي كانت رمزية لقتل الأحلام أصبحت لدى "خالد" أرض الأحلام القادمة، المدينة التي لم يكن لها مكانٌ حتى في أحلامه عن المدن غدت منتهى أحلامه كلها، تصاريف القدر عجيبة جدا والحياة لها مسارات لا يعلمها إلا الله وحده.

هو اليوم ذاهبٌ إلى عدن، أو ما بقي منه ذاهب إليها، فهناك منه الكثير قد سبقه إليها، جسده الآن في طريقه للالتقاء بروحه، آماله ذاهبة للقاء أحلامه، قلبه ذاهب ليستعيد نبضه، هو ذاهب اليوم ليلملم أجزاءه التي افترقت عن بعضها، لديه نصفه أو أقل، والأكثر هناك، أودعه عيون "أزهار" يوم وداعها، كم كان مؤلما أنه لم يقل لها أنه أودعها كل ذلك، لكنه ذاهب اليوم ليقول لها كل ذلك وأكثر.

كان الطريق إلى عدن طويلا كأنه الدهر، لفرط اشتياقه للوصول، هو بعيد بفعل المكان، لكن ما زاده بعدا الشوقُ الذي يستجديه للوصول، في الطريق لم يكن يحلم، فالأحلام بالنسبة له قد تجسدت في تلك اللحظة

تحت شجرة الأثل، وانتهى الأمر، أحب البحر منذ أن سمع عنه، ولم يكن يعرفه حينها، اليوم عرف لمَ كان القدر يشده للبحر قبل أن يراه.. كانت تلك رسالة القدر إليه، رمزية كما الأحلام، تكون دلالات لأشياء أخرى، كأن القدر كان يقول له: حبيبتك ستكون هناك على شواطئ بحر بعيد عن الجبل.

في الأيام القليلة التي قضتها "أزهار" في القرية لم تقل له إنها تحبه، ولا يعلم إن كانت قد أحبته أم لا، لكنه يعلم أنه أحبها حبا لا حدود له، رسم به معها حياة كاملة، وكان للوهم - بلا شك - دور كبير في بناء هياكل تلك الحياة، وسيكون الحب الذي يحمله لها كافيا ليحيل ذلك الوهم إلى حقيقة وحياة.

بين أفكار حالمة يسقيها الأمل فتنمو أزهارها على أنفاس أمانيه، ورشفات خياله، وأفكار يتداخل فيها العقل هامسا (ربما لن تكون هناك "أزهار" في حياتك)، فيتدخل قلبه ليبعد أفكار عقله بعيدا، بمجرد أن تبدأ يئدها قبل أن تجد حياة، هو يحب صادقا، ويعلم أن الاقدار التي جاءت بها إلى تحت تلك الشجرة، ثم ها هي تأخذه إليها اليوم، ستكون رحيمة بقصة حبه التي رسمتها له، فقصته نبتة القدر، وعليه أن يرعاها.

رأى الكثير من الأماكن الجديدة في الطريق الطويل، كان لانبهار اللحظة الأولى قليل من الحضور في ذهنه، إلا أن ما في أعماق ذهنه أكبر من كل شيء آخر، في ظروف أخرى كان سيمطر مرافقه بالكثير من الأسئلة عن كل ما يراه، واليوم هو لا يسأل فقط يستمع:

-هذه الضالع، هذه لحج، هذه أبين ...

يصفها له مرافقه مدنا جميلة، ومناظر رائعة، يرى جمالها، فيهز رأسه موافقا، لكن كل ذلك لا يهمه اليوم، يريد أن يرى عدن، يرى البحر؛ ليسأله الكثير، ليحدثه، ليسامره، ليبوح له بما لم يبح به لأحد حتى الآن.

أقل ما أمكنه أن يقول عن عدن "كم هي جميلة منظمة حالمة تضج بالحياة بكل أشكالها!" كم أصبح يحبها وهو لم يقضِ فيها سوى ليلة واحدة! كم أعجبه صخبها وضوضاؤها أيضا!

استيقظ مبكرا على أصوات سيارات كثيرة لم يعتدها من قبل، تجول في الشوارع قليلا، فلم يجد في وجوه من رآهم قتلة أو مجرمين، بل رأى البساطة بأنصع صورها على مآزر العدنيين، والطيبة في قمة تجليها على وجوه الصيادين الذين رآهم على الشاطئ، يقف أمام البحر يسمع غناءهم ونداءاتهم، يرى البحر الذي تملك أحلامه عندما كان صبيا بين أحضان الجبال، كان قد رآه في الليلة الماضية في الظلام، بدا له كسلسلة جبال سوداء كما الجبال التي يراها ليلا في قريته، لكنه الآن مختلف، يراه جميلا رائعا، رائحته تختمر بأنفاس رطبة تتغلغل في ثناياه، فعب منها الكثير.

إن لم يكن ابن بحر بالولادة فسيكون كذلك بالانتماء، سيصنع مقاربة أخرى بحياته لتقترب من حياة "أزهار"، لا يريد أن يبدو في

نظرها مختلفا كثيرا عنها، سيتعلم كل شيء عن البحر والمدينة، كان قد أعد ملابسَ ليرتديها حين يلتقي بها؛ حُلة كاملة مع ربطة عنق، بدا له ذلك تطورا، كما رأى في الأفلام وكما هي أفكاره عن الرقي، لكن أجواء المدينة الحارة الرطبة أثبتت له أن ذلك ليس ممكنا، فالحرارة لا تسمح بارتداء أكثر من قطعة واحدة؛ وملابس تختلف تماما عما يرتديه في أجواء القرية الباردة، وهو لا يملك مثلها الآن، لكن لا يهم، فصديقه يعرف من أين يمكن أن يشتري ملابس مناسبة.

في طريق عودته إلى الفندق تأمل كثيرا هيئات الشباب الذين في مثل سنه؛ ليرى ماذا يرتدون فيرتدي مثلهم، لن يبدو مختلفا كثيرا عنهم عندما يراها، هو وسيم، قالت له ذلك "أزهار" هناك في القرية بما كان له وقع السحر عليه، حينها بدت أنها مهتمة به، سألها كيف ذلك فقالت: (أنت لا تبدو مثل فتيان القرية الآخرين أنت...) ثم صمتت.

لم ينس تلك الكلمات التي هي أروع ما سمع من فتاة، لم ينس أيضا خجلها عندما أكملت (أنت وسيم)، قالت له ذلك، ثم دارت كلماتها بضحكة أثملت مسامعه لحدود الانتشاء.

ما ينقصه الآن ملابس كهذه، وسيبدو أشد وسامة منهم، فهو يعلم أنه كي يقتطف أزهاره من بين أبناء المدينة يحتاج إلى الكثير كي يتميز عنهم، أقلها هيئته، وتلك مهمة ليست باليسيرة، لكنه يملك الكثير ليتميز؛ يملك رجولة البدوي الذي يذود عن أنثاه حتى من نسمات الهبوب، يملك أنفة الجبال التي لا تنحني أمام العواصف، يملك شاعرية ومشاعر تحمرُّ

لها وجنات العذارى في أخدارهن، وفوق كل ذلك هو يحبها بما يكفي ليصارع الأقدار لأجلها، فكيف يعجز أن يواجه موجة بحر رقيقة؟! بل كيف يعجز عن اقتطاف زهرة أو حتى أزهارًا، سيكون لها كالندى، يمنح الزهر رونقا وحياة، من دونه قد تحيا، لكن أية حياة للزهر بلا نداه ستكون ذابلة حزينة عطشى للحياة.

حانت اللحظة التي جاء لأجلها أخيرا، ارتدى ملابسه الجديدة؛ "تي شيرت" أبيض مكتوب عليه كلمات بالإنجليزية لا يعرف معناها، المهم أنها بدت مناسبة مع سروال الجينز الذي لم يعتده، والحذاء الأسود الكبير الذي يثقل مشيته، لم يشعر بالارتياح لما يرتديه، لكنه رأى أحد فتيان المدينة يرتدي كذلك، صفف شعره مراتٍ كثيرة، أراده أن يبدو منكوشا كشعر الفتى الذى رآه، لكنه لا يعلم كيف يفعل ذلك، ثم إن شعره ناعم بطبيعته، فتركه مفروقا إلى أن يتعلم كيف يجعله منكوشا.

-سنذهب يا صديقي إلى بيت "ياسر" فنحن مدعوّون للغداء.

-حسنا سأنتظركم هنا في الفندق.

قالها حتى لا يبدو متلهفا.

-لا، ستأتي معنا، لقد أصر "ياسر" على ذلك، فهو لم ينس ضيافتكم له في القرية، وقد كان سعيدا عندما أخبرته أنك جئت معنا.

-لا، ليس ذلك ضروريا.

إمعانا في إخفاء تلهفه.

-بل هو ضروري، وشقيقتي أيضا تسأل عنك.

-حسنا، لن أرد دعوتهم.

ليت محدثه يعرف أن أشواقه تسابقه إلى ذلك البيت، أن نبضات قلبه تدق بعنف، وتستحثه أن يطير إلى هناك، لا أن يمشي، أن روحه قد سبقته إلى هناك منذ زمن، وأنه قد اشتاق إليها كثيرا.

استقبلهم "ياسر" مرحبا، وكذلك زوجته التي ما إن سلم عليها "خالد" بادرته:

-كانت والدتك وعماتك لطيفات معي بالقرية، أتمنى أن نكون نحن كذلك، كي تخبرهم عندما تعود.

خطي خطواته الأولى في المنزل، يود أن يتلفت؛ ليراها، لتسكن اللهفة التي تتملكه، ليطفئ لواعج الشوق التي تعتريه، ليرى أن ذلك الحلم بشر تمشي على الأرض، لكن تربيته وخجله يمنعانه من ذلك، فهو ضيف وللضيافة حدود وآداب، عليه حتى في النظر ألا يتعدى حدود اللياقة والأدب، فللبيوت عوراتها، وفي عرفه أن العيب فيمن يرى عيوب الآخرين، فأطرق إلى الأرض متمنيا، ولم يطل الإطراق والتمني.

-أهلا .. أهلا بالشاعر

بما يشبه وقع حبات المطر على حقول استبد بها العطش، بما يشبه هبات النسيم على قلوب تقطعت أنفاسها، "أزهار" لا سواها ترحب به، كان واثقا أن الأقدار ستكمل مساراتها، أنها لن تتخلى عن نبتتها.

-أهلا بكِ، كيف حالكِ؟

-أنا بخير، وأنت؟

"لست بخير منذ رحيلك"، همَّ أن يقول لها ذلك لفرط ما يشعر به، إلا أن ذلك سيكون مذلا ليقوله عن نفسه

-أنا بخير.

-هل لا زلت تكتب الشعر؟

-لا، أصبح الشعر يكتبني.

-وهل كتبت القصيدة التي وعدتني بها؟

-ليس بعد، لكني أعدك سأكتبها يوما.

-أو هي ستكتبك!

قالتها ضاحكة، يا لضحكاتها التي وكأنها خلقت لها، هكذا قال في نفسه، لكنه قال بلسانه:

-ستكتب نفسها، أنا متأكد من ذلك.

-حسنا سننتظرها، أسعدنا كثيرا أنك جئت، و"أسرار" تسلم عليك، ستراها عندما تعود.

-بل أنا الأسعد برؤيتك.. ((ثم استدرك)).. برؤيتكم

حديث قصير، لكنه كان كافيا، يكفي أنها مهتمة به، فهي من بادرت بالسؤال عنه، وتَذكرَّت أنه شاعر، وأنها ستغني له إذا كان وعدها جادا، تطالبه بقصيدة وهي القصيدة بالنسبة له، عليه أن يكتبها شعرا وتكتبها حياة، سيغنيها معها لحنَ حبٍ سرمدي، وضعت هي نواتها الأولى على صفحات قلبه البيضاء، فعزفها على أوتار خيال نقي، فكانت "أزهار" هي القصيدة والأغنية والحياة، ليتها فقط تعرف كل ذلك.

رآها ورأته، تحدث إليها وتحدثت إليه، اطمأن قليلا وهدأت أنفاسه، كان يخشى أن تكون قد تزوجت، أو رحلت، أو لا يراها، وذلك كان ممكنا، صحيح أن عدن مجتمع متفتح إلى حد كبير، إلا أنه في النهاية يظل جزءًا من المجتمع اليمني الكبير، المقيد بحدود وأعراف، ولولا أن الرابط بين الأسرتين كبير لما أمكن أن يراها هكذا، أو أن يتحدث إليها.

انتهى ذلك اللقاء ولم يكن من الوارد أن يتكرر كثيرا، ودَّ أن يتسمر هناك، أن يتحول إلى جدار من جدران غرفتها تستند إليه كلما شعرت بالتعب، أن يكون معها في أي مكان يضمهما معا، ويبقيا هناك حتى ينصهرا معا، ثم يصعدا إلى السماء؛ ليكونا نجمة هناك تخبر عن

قصة حب الجبل للبحر، عن عشق الزهر للندى، عن كيف تصنع الأقدارُ عاشقين وتجمعهما معا.

في الأيام التالية ظل يختلق الأعذار ويتحين الفرص ليراها، أخبر صديقه، عن أكلة الزربيان[1]، وأنه يريد أن يتذوقها، وبهذا أخبر "أيمن" شقيقته فرحبت برغبة الضيف، ثم استقبلته بترحاب:

-ستأكل الزربيان بدلا من العصيد[2] التي أكلنا عندكم.

-نعم أريد أن أجربها.

-ستحبها.

-متأكد من ذلك، فأي شيء من عدن يعجبني .

ويومها كان بينه وبين "أزهار" حديث آخر، بدأته بسؤال:

-ما المكتوب على قميصك؟

-لا أعرف، فهو بالإنكليزية.

-ألم تدرس الإنكليزية؟

-درست القليل؛ الحروف فقط، لكني لا أستطيع قراءة جملة كاملة...

---

(١) الزربيان أكلة شعبية عدنية.

(٢) العصيد أكلة وسط اليمن في الغالب من حيث يأتي، وهي خليط من طحين الذرة والماء وأحيانا اللبن، يضاف إليها بعد نضجها المرقة، وتقدم يوميا على الغداء.

ثم أخبرها أنه لا أحد يهتم بدارستها في مدرسة القرية، كما أنه لا يوجد مدرس للمادة في المدرسة ولم يرَ أحد أن ذلك مهم.

-لمَ لا تتعلمها؟! فهي مهمة، وستحتاجها في الجامعة.

-وأين سأتعلمها؟

-هنا.. معي في المعهد، وأنا سأساعدك.

دارت الأفكار والتساؤلات في رأسه؛ هل هذه الفتاة مقدرة لي؟! لماذا تستمر مساراتنا في الالتقاء؟! هل كُتبت قصة حبنا في عالم الغيب ونحن فقط نؤدي أدوارنا المرسومة بلا علم؟! تسوقني الأقدار نحوها بصورة عجائبية، ما إن أتساءل عن درب يوصلني إليها فإذا بدروب كاملة تُفتح لي، جاءتني إلى القرية على بعد خطوات عن الدار، وجاءت بي أقداري إلى دارها، وها هي اليوم تقترح عليَّ ما سيجعلني أراها وأكون معها كل يوم .

-لمَ لا؟! سأعود لأخبر جدي بذلك، وأظنه سيوافق، فهو يريدني أن أتعلم.

-وأنا سأسجل اسمك في المعهد حتى تعود .. بالمناسبة؛ لم تسألني ما المكتوب على قميصك.

-آه نسيت، ما هو المكتوب؟

-حب إلى الأبد ...

أخذت تنطق لـه الحـروف، كتبتهـا مبعثـرة علـى ورقـة أمامهـا، ثـم جمعتها لتريه كيف تجمع الحروف لتشكل كلمة حب، تَغَابَى متعمدا أنـه لـم يفهم، فأعادت مرات ومرات، ودَّ ألا تنتهي، لم تعرف وهـي تعلمـه كيف يكتب كلمة حب بلغة أجنبية أنها قد حفرتها على صفحات قلبه بكل لغـات الكون، لم تعرف أنها حين بعثرت الحروف على الورق قد بعثرت كل مـا كان يعرفه قبلها عن الحياة نفسـها، لـم تعـرف أنهـا وهـي تجمـع الحـروف أنها قد جمعت كل ذرات كيانه ليحبها هي فقط، لم تكن تعلم وهـي تغـزل مفردة الحب وتفسرها أنها بالنسبة إليه هي الحب الذي لا يفسر بـل يتـرك كما هو، لم تعلم وهي تهجـيء لـه الحـروف أنهـا أبجديات حبـه، وحـروف غرامة.

(حب إلى الأبد) ظل يرددها كثيرا في طريق عودتـه، بـدا مختلفـا لأهل القرية عندما عاد في كل شيء؛ في ملابسه، وهيئته، لكن الاختـلاف الـذي كـان أظهـر مـن سواه أنـه عـاد مبتسما ممتلئـا حيـاة، غـادره السكون الذي كان يتلبسه قبل ذهابه إلى عدن، عزا جده ذلك لتـأثير المدينـة عليـه، وعزته والدته لانتعاش السفر، لكن "سعدية" رأت فـي ذلـك التغيير مـا لـم يره غيرها، عرفت أنه قد رأى تلك العدنية، اشتمت رائحتها في ابتسامته، ورأت ضحكاتها في عينيـه، لـم يخـف عليهـا شـيء، مخطـئ مـن يظـن أنـه يستطيع أن يخفي وجود أنثى في حياته عن أنثى تظنه حياتها.

* * * *

(11)

أصبحت عدن أكثر من قصيدة يرددها، وغدت أغنية كاملة، كلماتها روح مشاعر هائمة، وألحانها أمواج البحر، وغناؤها أحلام تحلق فوق خيالات كثيرة، قصة عاشقين عدن حاضنتها، صحيح أن نبتة الحب زُرعت هناك في قرية الجبل، لكنها تفتحت هنا في عدن، أمطره الحب مشاعرَ تحدرت على جنبات روحه، كشلالات الجبال بعد أمطار غزيرة، وبدأت هي تتلقف تلك السيول الجارفة، لكن (سواقي) قلبها لم تكن قد تهيأت.

كان واضحا لها أن ابن الجبل يحبها بلا شك، تحدثها نظراته التي تحتضنها عندما ينظر إليها، ترى حبه لها في قصائده، تشعر بسيول مشاعره المتدفقة، فكيف لا تشعر بكل هذا الحب وهي الفنانة المرهفة، الرقيقة كاسمها؟!

وجدت في هذا القروي ندًى تتفتح معه أحلامها، يلهمها فتغدو أجمل، يشاركها اللحظات فتبدو أروع، هي وحبه لها معزوفة كاملة، أرادت أن تتمهل في حبه، لكن كيف لها أن توقف سيلا جارفا عن جريانه، سيلا اقتلع في طريقه كل شكوكها ومخاوفها، وجرف كل تحفظاتها، كانت ترى أنها لم تركب أمواجه، وغيرها يرى أنها قد أصبحت هناك مبحرة فوق الأمواج، قِيل لها الكثير: (سيكون حبا يقتل

أحلامك يا "أزهار".. هو ريح جبال عاصفة، وأنت أمواج خليج ناعمة، والريح تعصف بالخلجان، لتحيل سكونها هديرا قاتلا، فتتغير إلى الأبد).

رأت صديقتها "روان" أنها أصبحت بعيدة عنها، لم تعد تشاركها حياتها أو أحلامها، فسألتها يوما:

-ماذا يعجبك في هذا البدوي؟

-روحه الحالمة .

-ستندمين يا "أزهار".

-لماذا؟

-سيقتل أحلامك.

-كيف يقتلها، وهو يحلق بها معي؟!

-مع الأيام وعندما تفيقين من سكرة الحب ستعرفين معنى كلامي.

-لم أقل إنني أحبه.

فتضحك الصديقة:

-بل أنت غارقة في حبه.

تصمت "أزهار"، هي تحبه بلا شك، على الأقل لتعترفَ لنفسها، وجدته كما في القصص؛ شاعرا، و فنانة يتشاركان أحلاما كثيرة، وأمانيَ لا حدود لها، يحلقان معا إلى عوالم أخرى غير الأرض.

تخبره يوما في لحظات هيامهما معا:

-سأغني كلماتك حتى تُسمع في أقاصي الأرض.

فيجيبها توأم هيامها:

-وسأكتب فيك ما لم يكتب "قيس" في "ليلى".

فترد إرهاصات خوف عاشقة تخطو خطوات عشقها الأول:

-كان يكتب عن فراقه لها، فماذا ستكتب عني وأنا معك؟

فتجيب ثقة عاشق:

-سأكتب عن حبي لك، عن اشتياقي لك وأنت معي.

تواصل تساؤلاتها:

-وإذا افترقنا؟

فيطمئنها:

-ولماذا سنفترق؟ هل جمعتنا الأقدار لتفرقنا وحبنا كان اختيارها من الأساس؟!

-ربما نفترق يوما.

-ستكون روحي معك، فكيف يسمى ذلك فراقا؟

فتضحك

-أنت مجنون .

-وهو جنون أستعذبه؛ لأنه فيك.

على شواطئ عدن كُتبت قصة حب "خالد" و"أزهار"؛ قصة ترسم سطورها ساعات الغروب.

لم تفكر "أزهار" قبله أن تحب، كانت تحيا لحلمها فقط، كانت تخاف أن يقتل الحب حلمها، أو يطفئ الزواج موهبتها، كانت كلما حدثتها أمها عن الزواج، تجيبها:

-سأتزوج الفن.

هنا معه وجدت أنه من الممكن أن تصبح عاشقة وفنانة، رأت أن أحلامه تكمل أحلامها، وجوده يكمل وجودها، كلماته وُجدت لتغنيها، يحيطها بحب يشعرها بالانتشاء، فتحلق بكل ذلك فوق الغيوم كالأحلام.

على شاطئ (الجولد مور) وهما هناك ذات أصيل، وعلى وقع هدير الموج الذي يضرب صخور الشاطئ تحت أقدامهما، تذكرت كلمات صديقتها عن الريح والأمواج فسألته:

-حبيبي، إلى أين تظن أن الأقدار التي كتبت حبنا ستأخذنا؟

-إلى حيث تريد، المهم أن نكون معا.

-يجب أن نفكر في القادم .

قالت ذلك وهي تنظر إلى قارب بعيد بدأ يغيب في جنبات البحر

-لماذا؟ وهل فكرنا في الماضي؟! هل اخترنا أن نلتقي أصلا؟! هل اخترتُ أن أصحو ذات صباح لأسمعك تغنين تحت تلك الشجرة؟! هل اخترتُ أن أحبك كل هذا الحب؟! دعي الأقدار تكمل عنايتها بنا.

-يقولون إنك ريح. وأنا موج ستعصف به.

-بل أنت "أزهار"، وأنا الندى.

-هل تحبني حقا؟

هي تعلم أنه يحبها، لكنها أنثى، والأنثى تحب سماع هذه الكلمة مرات ومرات.

-غدا سأجيبك.

التفتت إليه غاضبة وضربت بقبضتها على كتفه

-ألست متأكدا من حبك لي؟!

-بلى يا حبيبتي، لكنني سأبحث في كل قواميس اللغة؛ لأكتب لك أني أحبك في قصيدة كاملة، سأكتب بها حبك بمفردات خاصة بك، لتغنيها يوما فتكون شاهدة على قصة حبنا.

فابتسمت

-حسنا، سأنتظر القصيدة غدا لأعرف كم تحبني ومنذ متى تحبني.

وفي الغد كتب لها:

أَو تَسْأليني هَلْ أُحبُّـــكِ يا أنـــــا؟! .:. لا تسألـي عَمَـا يَقِينًا تَعْرفِيــــــن
كُلِّـــــي إِجَابَــاتٌ وأنـــتِ كَتَبْتِهـــا .:. فَلتَقْــرأي مِــنْ دَفْتَري ما تَكْتُبين
هل يُسألُ الصوفيُّ فـي محرابِـــهِ .:. عمَ اعْتَــرَاهُ مـن التَّجَلِي واليَقِيــن
إنْ شئتِ حقًــا تسأليني فَاسْأَلِـــــي .:. منْ دفتــرِ العُشاقِ مَا لا تعرفيــن
لمَ أنتِ من دونِ الخلائـــقِ كُلِّهـــا .:. معشُــوقَتي ومليكَتِي في كلِّ حين؟
لمَ أنتِ مِن ضِدِّي وضِدُّكِ مِنْ أنـــا .:. رُوحــانِ في جسدٍ فهلا تُدركيــن؟
قدرُ أَتَى فَمَلكْتِ كـلَّ جوارحِــــي .:. ومَلَكْــتِ قُلبِي دُونَمَا تتسـأليــن
هيَ هَكَـــذا الأَقْدَارُ يا مَحْبُوبَتِــي .:. كُتِبَـتْ بِعلْمِ الغيبِ خُطَّـت بالجَبِين
هيَ هَكَذا لُغَةُ القُلوبِ إذا حَكَـــتْ .:. تتَراقَصُ النَّبَضَاتُ من فَرْطِ الحنين
هي تلكَ أسرارُ العِيونِ إذا التقَـتْ .:. نَظَرَاتُهَـا سُهْــدٌ يَقُــضُّ الحَالِمِيـن
هيَ هَكَذا سُنَنُ الحيــاةِ وسِرُّهَـــا .:. مُنِـــعَ الخَلائِـقَ سرُّها والعَارِفِين
منذُ ابْتَدَاءِ الكَونِ أنـــتِ حَبيبتِـي .:. وحبيبتي حتَــى نِهَايـــاتِ السِّنِين
منذَ انْبِلاجِ البَسْمَةِ الأُولَى التِــي .:. بَرَقَتْ ثَنَايَاهَا كَطَـــوْقِ اليَاسَمِين
ضَحْكَاتُكِ الخَجْلَى اسْتَحلَّتْ خافِقِـي .:. وجوارحِـــــي تَثْمَلُ إذا تتَورَّدِيـن
أصْبَحْتِ أنْفَاسِي ونَبْضَ خَوَافِقِـي .:. لا قَلْـــبَ لِـي فَمَكَانُهُ من تَنْبُضِين
وَغَدَوْتِ مُلْهِمَتِي وكــــلَّ حِكايتي .:. هل يَعْترِيكِ الشــــكُّ أو تتَرددِين؟
قسمًا بِمَنْ خَلقَ الهوَى فَبِكِ الهوى .:. مَخْلُوقٌ منْ نَـارٍ ومن نور وطِيــن
قسمًا بِمَنْ خَلقَ الحيـــــاةَ بأنَّهـــا .:. كـــادتْ بدونِكِ تنْتَهِي سطرًا حزين
قسمًا بِمَنْ سَوَّاكِ يا مَعْشُوقَتـــــي .:. إني عَشِقْتُكِ فوقَ عِشْقِ العاشقين

قرأتها متأثرة، فنبتت في أحداقها بذرات دموع تتهادى لتسقط على وجنتيها

-هل تظن أن قصة حبنا ستكتمل؟

-لمَ تقولين ذلك يا حبيبتي؟!

-لا أعلم، لكني لفرط سعادتي خائفة.

-لن يحدث شيء.

-كم أتمنى ذلك يا حبيبي.

ثم سقطت دمعاتها التي أتعبها الدوران في مآقيها، هي بالفعل تخيفها كل هذه السعادة، تخاف أن تفقده، ستموت إن فقدته الآن بعد أن أحبته، وستموت أحلامها معها، ولذلك هي تتساءل، كانت لا تزال عقلانية حتى في حبها، تعرف أن عليهما أن يجتازا الكثير ليصلا إلى شواطئ الأمان.

تعرف ابنة البحر أن سكون مياهه تخفي أمواجا غادرة؛ أمواجا قد تعصف بالسكون في طرفة عين، وتعرف أيضا من أين يأتي حبيبها، فقد حكى لها الكثير عن مجتمعه، وأخبرها أنه سيتعلم ويعود فهناك ما ينتظره، هو وريث جده الذي يحمل اسمه و ميراثه، ورغم حبه لها لا يزال يحمل في وجدانه قريته وأهله ووالدته، يتكلم أحيانا وكأنه فقط يعد نفسه ليعود إليهم، هو محمل ليس بأحلامه فقط، بل بأحلام آخرين أودعوه

إياها، وذلك يخيفها، هي تريده لها فقط، وإن لم تقل له ذلك، تريده أن يكون مستعدا ليبحر معها في أية لحظة على أول مركب يغادر الميناء القريب، هي وهو وأحلامهما فقط، لكنها تعلم أنه ابن قرية جبلية، جذوره ضاربة في أعماق الأرض، ولن تستطيع أن تفصله عن جذوره، تخشى أن يعود يوما إلى قريته، أن يهزه الحنين إليها بعد أن يفيق من سكرة الحب فيتركها، وتخاف أكثر أن يطلب منها العودة معه إلى قريته ،لطالما قالت لها "روان":

-سيوقعك في حبه، ثم يأخذك إلى قريته، وهناك يا "أزهار" لا غناء ولا أحلام.

أبعدت هذه الأفكار مرارا عن خيالها، إلا أنها تعود دوما عندما تفكر في المستقبل، فتحتضن حلمها باكية، لم تقل له عما تخشاه، فهي لم تر منه ما يدل على أن شيئا من ذلك سيحدث، فعندما تكون معه، لا يأخذها فقط إلى حيث أحلامها، بل أبعد من ذلك، يحلق بها إلى حدود الشمس، ويغرس معها بتلات أحلامها فوق الغيوم، صحيح أنه غيور، ومتزمت في طباعه أحيانا، لكنها تعزو الغيرة إلى حبه، والتزمت تجده نتاج طبيعته البدوية التي تختلف كثيرا عن أبناء المدن، تضيق بذلك أحيانا وخصوصا عندما يعترض على طريقة لباسها، وهو كثيرا ما يعترض، لكنها في المقابل تعرف أنه يفعل ذلك لأنه يحبها، حبا لا حدود له، لذلك هي توقن بأنه لن يرضى أن يقتل احلامها، هي متأكدة من ذلك.

وهو أيضا يتقبل الاختلاف ويتأقلم معه، فقد تغير كثيرا لأجلها، ولم يعد ذلك الفتى القروي الذي التقته في القرية، أصبح يبدو ابن مدينة أكثر، بل يبدو أفضل من ذلك، فمع ما يحمل من أخلاق البدو النبيلة، تجد فيه رجولة تشبع أنوثتها وترضي رقتها، وعندما تجيش برأسها عواصف الأفكار تضع رأسها المثقل على صدره، فيداعب خصلات شعرها بأصابعه فتشعر بأمان تتمنى ألا يزول، ونشوة تتمنى أن تطول إلى الأبد.

❊ ❊ ❊ ❊

(12)

بـين القريـة وعـدن، بـين الجبـل والبحـر، كثيـرا مـا سـافر "خـالـد" مؤمنا أن أحلامه ستتحقق، وقصة حبه ستكتمل، كما بدأت سهلة، سلسة، عذبة، فلم يتعب كثيرا ليجدها، ولم يسافر إلى ما وراء البحار البعيدة كما ظن، جاءته هكذا بلا معاناة، ساقها القدر إلـى مراتـع طفولتـه، فأحبها منذ اللحظة الأولى، وهي أحبته بعد حين، يشعر أحيانا أنها لا تحبه بقدر ما يحبها، إلا أنها تحبه بلا شك؛ لذا عليه أن يرقى بحبها إلى درجات الهيام التي وصل إليها.

هنـاك فـوارق بينهمـا، ليسـت مكانيـة فقـط، ولـيس لأن البحـر مختلـف عـن الجبـل، بـل فـوارق شخصـية، فهـي عرفـت الحيـاة قبـل أن تعـرف الحـب، وهـو عـرف الحـب قبـل أن يعـرف الحيـاة، هـي رسـمت لنفسـها حيـاة كاملـة، ثـم جاءهـا الحـب، أحبتـه عنـدما وجدتـه مكمـلا لتلـك الحيـاة، وجـدت فيـه إضـافة جميلـة وملهمـة لحياتهـا، كانـت فنانـة قبـل أن تحبـه، علـى الأقـل كمـا تـرى نفسـها، فأصـبحت فنانـة عاشـقة بعـد أن أحبتـه، مـا المـانع إذًا؟ سـيغدو غناؤهـا أجمـل، و نبـرات صوتها أصدق عندما تغني الحب وهي تعيشه.

هو أحب أولا، قبل أن يرسم حياتـه، صـحيح أن لديـه أيضـا أحلامًـا يأمل تحقيقها، لكنها ليست بتلك الأهمية، فلم يكن هو من رسمها، بل جده ووالدته، وكان المجتمع سيكمل بقية خطوطها، ما خطـه بنفسـه أنـه شـاعر

وعلى الشاعر أن يكون عاشقا، وقد كان، أصبحت له "الِيلاه" ليكتب عن حبها.

أصبح يحب عدن أيضا، يدرس فيها و يقضي فيها أكثر أيام السنة، أحبها لأن "أزهار" فيها، يعود إلى القرية أحيانا، وسرعان ما تحمله أجنحة الشوق عائدا إلى "أزهاره"، مأخوذا بنشوة رحيق زهرة التوليب، فيعود إليها قبل أن تغلق شرنقتها عند كل مغيب.

لم تأخذ نشوة الحب "أزهار" إلى حيث أخذت حبيبها، فحولها واقع وحياة، وحلم أيضا يداعب خيالاتها كل آن، وإن تناست ذلك تحت تأثير نشوة الحب التي تعيشها، فوراءها مجتمع بأكمله يذكرها دائما أنها فتاة.

أصبح الكل يعرف أنها تعيش قصة حب مع فتى القرية، كما تحدث الكثيرون حولهما، وأمها أيضا لم يخف عليها أن تلاحظ، وهي الأقرب إليها، فقالت لها ذات مرة:

-آن الأوان أن تتزوجي يا "أزهار".

-ليس بعد يا أمي.

-أصبحت قصتكما حديث الناس.

-أحبه، ولم أفعل شيئا خاطئا.

-لم أقل إنه خطأ، لكنك أولا وأخيرا فتاة، وقد يتركك.

-هو أيضا يحبني، وسيتزوجني ثم نسافر معا لتحقيق حلمي.

-المهم أن تتزوجا، وبعدها فلتسافرا أو تبقيا.

-وهل سيوافق والدي؟

-والدك كما تعلمين يهمه أن تكوني سعيدة.

والدها بدوره عندما تكلمت معه كان رأيه كذلك، لكنه لم يُرِدها أن تتسرع في اتخاذ قرار قد تندم عليه فيما بعد، فهو يعلم أن الشاب قادم من مجتمع قروي محافظ، ولن يقبل أن تكون زوجته فنانة.

-ثم إن قبل هل سيقبل جده وأهله؟

هكذا سأل الأب ابنته، ليعبر عن بعض مخاوفه

-وما علاقتي بجده وأهله يا أبى؟! أنا سأتزوجه هو.

هكذا رأت الأمر من منظورها، لكن أباها الذي يرى ما هو أبعد من ذلك قال:

-رأيهم سيكون مهما عنده، ولن يستطيع أن يخالفهم.

-لا، هو يحبني، وسيفعل المستحيل لأجلي.

-أتمنى ذلك يا صغيرتي، إلا أنني أخاف ألا يفعل، فينكسر قلبك وتنطفئ موهبتك وحبك للحياة.

لأنها تعلم كم يحبها والدها، ولأنها تعلم أنه مؤمن بأحلامها ولن يخبرها سوى الحقيقة، بدأت هذه الكلمات توقظها من سكرة الحب التي تعيشها، وبدأت تتساءل، وتكبر تساؤلاتها كل يوم؛ هل سيتزوجني؟ هل سيسافر معي لأحقق أحلامي، بل أحلامنا معا؟ فهو الآخر لديه أحلامه التي لا تختلف كثيرا عن أحلامي.

في الطريق إلى المعهد سألته:

-ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟

-شاعرا.

-أنت الآن شاعر، أقصد ماذا ستدرس في الجامعة؟

-أظن أنني سأدرس القانون أو العلوم السياسية.

-لماذا؟

-لأنني أريد أن أصبح مسؤولا كبيرا في البلد.

-أي بلد تقصد؟ اليمن!

-وهل هناك بلد غيره؟!

فترد مستغربة بحدة:

-نعم، هناك بلدان كثيرة غير اليمن.

-ولماذا سأذهب إليها؟

-لتدرس وتحقق أحلامك.

-سأدرس هنا معك، وأحلامي تحققت يوم أن أحببتك.

-وماذا عن أحلامي أنا؟!

-ماذا تقصدين؟

-الغناء.

-تستطيعين أن تغني هنا في اليمن.

-لن أحقق شيئا هنا، أنا أحلم بالسفر إلى بيروت أو القاهرة لأدرس الموسيقى، فهناك لديَّ فرصة أن أحقق شيئا من أحلامي.

-ليس بالضرورة، فعدن ليست أقل من تلك المدن التي ذكرت.

للمرة الأولى تخشى أن تكون "روان" محقة، للمرة الأولى ترى أن أسوأ كوابيسها قد يتحول إلى حقيقة واقعة، كان يراودها في نومها كثيرا كابوس مفزع أنها اصبحت بكماء؛ بلا لسان، تحاول أن تغني فلا تستطيع، فتستيقظ فزعة وقد تسلل جزء من كابوسها إلى صحوها، فلا تستطيع الصراخ إلا بعد هنيهة؛ فتطلق صرخات تقض مضاجع من حولها، اليوم ترى أن حبها قد يسبب بكم أحلامها.

لا، لن يحدث ذلك، سأتكلم مع "خالد"، وأحكي له بكل وضوح عن كل شيء، سأنزع هذا التردد الذي يعلو نبرته عندما أتحدث عن الغناء والسفر، فهو يحبني و سيفعل أي شيء لأجلي ويعلم أيضا أنني أحبه، ولا

يستطيع أحدنا الحياة دون الآخر.. قررت أن تحسم أمرها وتقطع شكوكها، قررت أن تدفن أسوأ كوابيسها إلى غير رجعة، فذهبت إليه.

-يجب أن نتكلم عن كل شيء.

-وهل هناك ما لم نتكلم عنه؟

-نعم، مستقبلنا، هل سنكون معا؟

-حبيبتي، أنا لا أتخيل حياة أنت لست فيها .

-وأنا كذلك يا حبيبي، فليس لي حياة من دونك.

-إذن مما تخافين؟

-أن أفقدك.

-سأكون معك دائما.

لم ترد أن تطلب كل شيء دفعة واحدة، فسألته:

-لم لا نتزوج؟

-عندما أعود إلى القرية، سأتحدث مع جدي ووالدتي عن الزواج، فهما أيضا يريدان أن أتزوج .

-وهل سيوافقان على زواجنا؟

-لن يكون ذلك سهلا، لكنني سأفعل المستحيل ليوافقا.

-نعم، حتى نتمكن من السفر بعد زواجنا.

-ومن قال إننا سنسافر؟! سنبقى هنا في عدن حتى نكمل الجامعة.

-ثم ماذا؟

-ندع الأمر للأقدار، ونرى ما سيحدث.

-لا أريد أن أرى ما سيحدث، فأنا أعرف ما أريد.

-ليس كل ما نريده من الحياة نناله، يجب أن نرضى بأقدارنا.

-نحن من نصنع اقدارنا

بعد جملتها الأخيرة رافقها إلى المنزل، ولم يتحدثا كثيرا، حيث رآها غاضبة، فلم يرد إغضابها أكثر، وقد شغله التفكير في كلماتها، قبل أن تودعه لتدخل منزلها وضعت أمامه خيارها الحاسم:

-"خالد"، لا تضطرني أن أختار بين حبك وأحلامي.. أنا أريدكما معا، وسأنتظر جوابك بعد أن تعود من القرية.

*****

في الطريق إلى القرية ازدحم رأسه بأفكار كثيرة وشائكة، لأول مرة يواجهه هكذا أفكار، حبه الآن أمام اختبار؛ يراه اختبارًا مبكرا جدا، أسرع مما كان يأمل، لكنه أيضا اختبار واضح وحاسم كما كلماتها، لم يفكر سابقا في مثل هذه اللحظة، ترك الأمر للقدر، وعليه الآن أن يقرر، أن يختار، لكن كيف سيفعل ذلك؟! كيف سيتقبل أهله أن يتزوج ابنة مدينة؟ وأن يسافر معها؟ بل كيف سيخبر الشيخ "سعيد"؛ شيخ قريه

الجبل أن من يريد أن يتزوجها تريد أن تصبح مطربة؟ هل سيبقى له بعدها مكان في القبيلة؟ بل الأقسى من ذلك؛ كيف سيخبر أمه أنه سيتركها لأجل من سيتزوجها؟ أمه التي تركت الدنيا بأكملها لأجله، ورفضت كل من تقدم لها بعد وفاة والده،؛ كي لا تتركه وحيدا، وضحَّت بشبابها وحياتها لأجله، وهي التي تعد الثواني لترى أحفادها منه، ولطالما قالت له:

-ستكون ليلة فرحك هي ليلة فرحي في الحياة، سأرقص في تلك الليلة، وعندما أرى أولادك فستكون كل أحلامي قد تحققت.

كيف سيخبرها أن من يحبها تريد أن تأخذه بعيدا عنها؟ كيف يكافئها بإعادة فتح جراحها؟ كيف سيخبرها أن عدن مرة أخرى ستأخذ منها من تحب؟ كيف سيخبرها أن عدن التي وافقت مرغمة أن يذهب إليها لتحقيق أحلامه، ستغتال حلمها الوحيد؟ لن يكون وقع ذلك سهلا عليها، ستكون أنانية قاتلة منه.

لن يستطيع أن يسبب لها الألم وهو أملها، ولكن ماذا سيفعل؟ هل سيقدم حبه قربانًا لتضحيات أمه؟ أم يضحي بسعادة أمه قربانا لحبه؟ لماذا أيها الحب؟ لم خياراتك دائما صعبة ومؤلمة؟ لماذا أيها الحب - وأنت حياة - تكون خياراتك بين موت وموت؟

لم تجعل خياراتي بين حياتي وحياتي؟ بين قلبي وروحي؟ فكيف سأختار؟! لماذا هياكلك تبنى من دموع وجراح؟ وأركانك تُشيد من

أوجاع وألم؟ لماذا لا تحيا بلا قرابين؟ لم لا تمضي سهلا وسلسا مثل بداياتك؟ لم جئت بها إلي ثم أخذتني إليها؟ لم كانت مساراتنا تلتقي دائما دون أن نختار، وعلينا اليوم أن نختار؟!

انقطع السيل المتدفق من الحيرة والألم على مشارف القرية، نظر إليها وشم نسيمها حتى ارتوى، علَّ تلك النسمات التي روت روحه صغيرا وجففت دمعاته، تحبس دموع بدأت تترقرق في مآقيه.

*****

عاد إلى عدن، ولم يذهب ليرى "أزهار" مخالفا عادته، فهي تنتظر جوابا لا يملكه إلى الآن، فهو لم يتكلم مع أهله عن الزواج كما وعدها، لم يقوَ على فتح الموضوع، حيث شعر أن ذلك سيكون خذلانا آخر لجده الذي رباه، يكفي أنه خذله مرة عندما لم يتزوج "سعدية"، شعر أن ذلك سيكون نهاية لأحلام أمه، واغتيال لفرحة بدأ يراها في عينيها عندما تنظر إليه، رأى أن ذلك سيكون أنانية وظلم لهما، لذلك لم يتكلم مع أحد.

قرر وهو لا يملك القرار أن يترك الأمر للأقدار لتقرر ما يكون، سيتكلم مع "أزهار"، هكذا فكر، وستتفهم ذلك، لكنه الآن لا يعرف كيف يكلمها، هل يكذب عليها ويقتل صدق الحب؟ أي حب ذلك الذي يبنى على الكذب؟ وهو الذي في أعرافه يفضل الموت على الخداع والكذب، أم

يصارحها ويخسرها؟ أي جواب سيجيبها غدا حين يراها و وهو حتما سيراها؟

*****

انتظرت "أزهار" كمن ينتظر نتيجة امتحان مصيري؛ امتحان سيحدد مستقبل حبها وحياتها، ولم يكن انطباعها مطمئنا عندما عاد من دون أن يراها كما اعتاد، فأخذتها الظنون إلى الأسوأ.

أرادت أن توقف سيل ظنونها، أن ترسو بسفن وساوسها على شواطئ الأمان، فهي ابنة البحر وتعرف أنه مهما اشتد هيجان أمواجه، فهناك دائما شواطئ آمنه، تكون بعيدة أحيانا، لكن عليها أن تصل إليها؛ لذلك ذهبت إليه، وبادرته:

-"خالد"، لم لم تأت إليَّ عند عودتك؟

نادته باسمه، وهو يعرفها عندما تكون غاضبة تناديه باسمه مجردا من كل كلمات الحب، كما أن الجدية بدت مرسومة على قسمات وجهها

-وصلت متأخرا، وكنت سأراك اليوم .

-هل وافق أهلك على زواجنا؟!

لم تقل "هل سألتهم؟" بل "هل وافقوا؟".. لم يعد هناك مجالا كيلا يجيب، كم يحتاج الآن إلى كذبة صغيرة تهدئ عاصفة غضبها!، لكنه لن

يكذب، لن ينتقص من رجولته بأن يكذب على من يحب، ما الذي سيبقى له فى عينيها إن سقطت رجولته؟! أي رجلٍ سيكون؟!

-لا، لم أكلمهم أصلا.

فردت غاضبة

-ولماذا؟

-لأسباب كثيرة...

أخبرها كل شيء، ووعدها أنه سيكلمهم بالتدريج، فهو يحتاج مزيدا من الوقت على الأقل حتى يكملا الدراسة الجامعية.

ما رآه هو حلا ولو مؤقتا، رأته هدرا لحياتها، وانتهاء لأمانها، كم هو قاس عندما لا تشعر الأنثى بالأمان لدي الرجل الذي تحب! قد يطغى الحب في لحظاته الأولى، لكن الأنثى دائما تبحث عن الأمان لدى الرجل، حقيقة أزلية لن يدوم حب بلا أمان، تَزعزعَ أمانها اليوم، إذ بدا لها أنه ليس واثقا مما يقول، ليس حاسما، وذلك مدعاة لأن تخاف، فكرت أن تعاتبه، أن تغضب، أن تسأله باسم حبهما أن يحسم أمره، لكنها توقفت عندما قال لها:

-أنا لست نبتة بحرية تطفو على السطح، لا جذور لها، تأخذها الأمواج أينما تشاء، أنا شجرة جبلية جذورها في أعماق الأرض، إن قُطعت جذورها تَمُتْ.

ابتعدت عنه، حانقةً منه ومن نفسها، ولم يقترب منها، بل ترك لها مساحة كي تتنفس وليفكر هو مليا، رأى أنه قد يخسرها أو على الأقل أن يقل حبها له؛ الحب الذي كان يأمل أن يكبر ويكبر، لا أن يقل، رأى في مساحة الهدوء تلك فرصة كي يفكر ويتخذ قرارا، ولم يكن يعلم أن العواصف دائما يسبقها الهدوء.

في الصباح ذهب إلى المعهد، هناك رأى "أزهار" تتحدث مع شاب في مثل سنها، بدا الحديث وديا، وعلا صوت ضحكاتهما ليتردد صداه في ردهات أذنيه، اقترب منهما، رأته فأشاحت عنه إلى محدثها، وكأنها لا تراه البتة، وازدادت التصاقا بالشاب، أصبح الحديث همسا، تلبسته كل شياطين الأرض، ودبت في عروقه حمية البدوي، كيف لأحد أن يقترب من محبوبته إلى هذه الدرجة؟ مد يده ليقتلعها من ودية اللحظة، فصاحت متألمة:

-"خالد"، ستكسر يدي!

-وأكسر رأسك أيضا.

تقدم نحو الشاب الآخر الذي لم يكن قد استوعب ما يحدث، فدفعه بعيدا بكل الغضب الذي يعتريه حتى سقط على الأرض، فصاحت به:

-ماذا تفعل؟!

-لماذا تتحدثين معه هكذا؟ ومن يكون؟

-وما شأنك أنت؟ سأتحدث مع من أريد.

-ما شأني! هل نسيت حبنا؟

-كان بيننا حب، وانتهى.

-انتهى! هكذا بكل سهولة!

-نعم انتهى، ولا علاقة لك بي.

-لست أنت من تقررين ذلك.

-لا أحد يقرر عني، فأنا لست ضعيفة مثلك؛ لأترك غيري يقرر حياتي.

-ما تسميه ضعفا هو رجولة ووفاء واحترام.

-بل ضعف، لو كنت رجلا لتزوجنا.

-لا تتفوهي بكلمات جارحة، لم يجرؤ أحد غيرك قبل اليوم أن يقولها لي، ولأنني رجل لن أقبل أن تتحدثي هكذا مع رجال آخرين.

-لستَ أبي أو زوجي لتمنعني.

-وأين أخلاقك لتمنعك؟

-أترك تفكيرك المتخلف لنفسك، سأفعل في حياتي ما أشاء.

-والحب الذي أحبك؟!

-أنت أصلا لم تكن تعرف شيئا عن الحب، أنا الذي علمتك، كانت غلطة وانتهت.

-بل أنا المخطئ أني أحببتك، وقبلت كل جنونك وأحلامك الفارغة عن الغناء، على أمل أن تعودي إلى رشدك.

-أكنت تخدعني باسم الحب؟!

-لا، لم أكن أخدعك، وأنت تعرفين طباعي، بل كنت سأتقبل تلك الأحلام، لكنني لن أقبل أن أتزوج من فتاة بلا أخلاق.

-ومن قال لك إنني سأقبل أن أتزوج قرويا متخلفا مثلك.. أنا فنانة متحضرة لن أتزوج راعي أغنام مثلك أبدا.

بعد هذه الكلمات توقف كل شيء، اكتست اللحظة بصمت تام، كذلك الصمت الذي اكتست به اللحظة الأولى تحت شجرة الأثل، إلا أن الصمت هناك كان عذبا مُسكِرا حلق به حينها فوق الغيوم، وهنا صمتا مرعبا مؤلما غاص به بين وُحُولِ الأرض، هناك خطفت قلبه وكان راضيا فتركه رهينة لديها وحلق بلا قلب، يجمع من سنينه فدية كان سيدفعها لها وهو يبتسم، ليس لتفرج عن قلبه بل لتختطفه هو أيضا، وهنا طعنت قلبه، قتلت رهينتها بلا رحمة.

أبعد كل هذا الحب، أنا بالنسبة لها قروي متخلف يرعى الاغنام؟ هكذا سأل نفسه، وهو يلملم أشلاء كبريائه من المكان حولها، ثم لملم أشياءه من مدينتها ، وحمل جثمان قلبه ورحل.

وداعا يا "أزهار"، وداعا يا عدن، وداعا يا مدينة الحب والجرح، الأمل والألم، السعادة والوجع، وداعا يا بدايات الأحلام ونهايتها، كنت واثقا أنك لن تَصْفِي لي، وأنك ستكونين جرحا آخر، جئتك بريئا حالما، وعدت جريحا بلا أحلام، جئتك بقلب ينبض بحبك وها هو في يدي مذبوح بسيوف غدرك، غدرت بي قبل أن أرى الحياة، وغدرت بحياتي بعد أن رأيتها، كنت أحبك أيها البحر، لطالما قيل لي إنك غادر، ولم أشأْ أن أصدق، وها قد رأيت غدرك، خذْ مني ما قد أخذت، وسأسامحك، لكنني لن أعود إليك لتأخذ مني شيئا آخر، سأعود إلى الجبل ليعلمني الوفاء والصمود، سأعود إلى أشجار الأثل لتعلمني الشموخ، سأعود إلى الشعاب لتعلمني النهوض مرة أخرى .

❋ ❋ ❋ ❋

(13)

قافلة من السيارات تجتاز الطريق الترابية باتجاه قرية (لغراس)، محدثة فوقها سحابة من الغبار، المشهد مألوف لدى سكان القرية في ثمانينات القرن العشرين، والذين بمجرد أن رأوا القافلة قادمة، حتى سارعوا بالاختباء في منازلهم كما اعتادوا لحين مرورها، وتوقيت مرورها ليس غريبًا أيضا، فهي تأتي دائما بين الساعة العاشرة والثانية عشر صباحًا، تلك السيارات تسمى "المقاتلة"، سيارات عادية لكن سبب تسميتها يعود لطبيعة مهماتها الانتحارية، فهي سيارات تهريب البنزين بين الغرب الجزائري والشرق المغربي، وتكتنف الخطورة مهماتها، فمن جهة هناك حرس الحدود "الدرك الملكي"، فتخوض معهم مطاردات خطرة، ومن جهة أخرى حمولتها الخطرة بحد ذاتها.

قنبلة موقوتة، قد تنفجر في أية لحظة، وقد حدث ذلك مرات أودت بحياة سائقيها فهي تحمل (المازوط) و(الإيصانص) في عبوات بلاستيكية زرقاء سعة عشرين لتر، وتتكدس تلك العبوات في كل المساحات المتاحة في السيارة، فتترك حيزا يكفي للسائق فقط، وأحيانًا لمساعد واحد معه، تمر تلك السيارات من الطريق التي تتوسط القرية محدثةً جلبة تحيل سكون القرية إلى ما يشبه ساحة المعركة.

ليس هناك علاقة مباشرة بين المهربين وسكان القرية سوى العلاقة المكانية، أحيانًا تتوقف إحدى المقاتلات لتترك عددا من العبوات

في دكان القرية، ثم في طريق العودة يأخذون الثمن، وثمة علاقة محدودة ببضعة أشخاص يخبرونهم أحيانا عن كمائن الدرك.

بدأت سحابة الغبار بالانقشاع عن وجه القرية، وبدأ سكان القرية يخرجون لحاجاتهم، خرجت الطفلة "يامنة" تجري باتجاه حظيرة الغنم القريبة؛ لتتفقد الحملين الصغيرين اللذين ترعاهما، فهي تعتني بالحملان الصغيرة والمريضة، التي لا تقوى على الذهاب للرعي مع الأغنام التي أخذها الراعي صباحًا إلى المراعي، تلك كانت مهمتها، وكانت تحب القيام بها، تربطها بالحملين عاطفة جميلة، فالأنثى تكون أمًا منذ الولادة، تولد معها تلك الفطرة الأنثوية فتمنحهما حنانا غامرا مبكرا، يبادله الحملان ألفة وسعادة تشعر بها.

لطالما استندت إلى الجدار وأسندت رأسيهما الصغيرين على فخذيها ليناما، وكثيرا غلبها النعاس قبلهما فيتركها الحملان لتنام، حتى تستجد لهما حاجة فيعودان لنكزها فتستيقظ.

كلما كبرت الطفلة ازدادت مهماتها، التي تتلقاها من والدتها، فهي ربة المنزل القادمة، وهي الفتاة الوحيدة بين أخوين، بدأت مؤخرًا تتعلم حلب الماعز، وبعد أن أجادت استخدام الشكوة[1]، تولت مهمة أخرى مع صديقين آخرين، كلبها "بوبي" وحمار العائلة، والمهمة هذه المرة تتطلب

(١) قربة مصنوعة من جلد الماعز لصناعة اللبن من حليب الماعز، وتعتمد طريقة صناعتها على سلخ ذبيحة الماعز بطريقة خاصة من رقبتها فقط..

الذهاب إلى حدود القرية القريبة لاحتطاب "اليازير"[1]، كي تُشعل به النار في تنور الطين.

تذهب راكبة على الحمار، يتبعها بوبي الذي لا يفارقها، تصل وجهتها فتستخدم المنجل لقطع أعواد اليازير ثم تربطها في حزمتين صغيرتين، وتضعهما على جانبي ظهر الحمار، وتقفل عائدة تتقدم القافلة الصغيرة، يتبعها الحمار الذي يلتزم ترتيبه ومساره دائمًا، ووراءهما بوبي الذي يتقدم أحيانا ويبطئ أخرى، والذي لا يلتزم الترتيب ولا الطريق أبدا، بل يتجول في جانبيها، يدس أنفه بين الحشائش يتشمم باحثا عن أي شيء.

هذا العالم الذي تعيش فيه الطفلة الصغيرة، قد يبدو للآخرين باهتًا ومملا، إلا أنه كان عالمها، تحيا كل تفاصيله بسعادة كبيرة، وهذا لم يسلبها الأحلام التي تأخذها إلى عوالم بعيدة خلف مجاهيل لا تحصى، صنعت لها مخيلتها الخصبة معالم لتلك المجاهيل، بعضها قد يكون حقيقيا بحكم ما يعرف من في مثل سنها، لكن معظمها من نسج خيال طفلة صغيرة حالمة، حملتها بالكثير من الأماني، وحملتها الأحلام إلى عوالم أخرى، وللأحلام قدرة عجائبية على التحليق بالحالمين بين عوالم الكون.

ما كان يميزها هنا، أنها من غرست بذور أحلامها لنفسها بعد أن جمعتها من أرجاء عالمها الصغير والمحدود أيضا؛ لتنبت تلك البذور

---

(١) أعواد جافة صغيرة، تحفز على اشتعال الحطب.

أحلاما جميلة، سقتها بقطرات صوت ملائكي، ولد معها كهِبة ربانية، عرفت أنها تملكه، عندما كانت تردد تلك الأغاني التي تستمع إليها عبر مذياع والدها المعلق على جدار البيت، كبرت تلك الموهبة الفطرية معها، ولم تحدث بها أحدا، حتى سمعتها أمها يومًا فدمعت عيناها تأثرا، ثم احتضنت الصغيرة التي سألتها:

-هل أعجبك غنائي يا أمي؟

-نعم يا حبيبتي، فقد أبكيتني.

فترد الصغيرة الحالمة:

-سأصبح مغنية عندما أكبر مثل الشيخة الحمداوية.

تنهدت الأم قبل أن ترد :

-نعم يا حبيبتي ستغنين في يوم فرحك

لم تفهم الصغيرة يومها تلميح الأم المتوجس، والتي كانت تعلم أن هذا الصوت الجميل سينقطع صداه قبل أن يصل إلى جبل أغينوس القريب.

تذهب الصغيرة، في رأسها حلم جميل، وفي قلبها آمال أجمل، لتعانق خيالاتها، لتُسمِع صوت غنائها إلى الجرف الذي يطل على وادي (زا)، حيث النهر الصغير الذي ينحدر من السد الكبير أعلى القرية، فيمر بجانبها مانحًا الحياة والارتواء لكل ما حوله، حتى يصب بدوره في نهر

أكبر منه، ثم تتلقف الأنهر بعضها بعضا لتكمل جريانها وكأنها تجسيد لمسارات البشر وتصب كلها أخيرا في المحيط الكبير.

تجلس الصغيرة على حافة الجرف مدلية قدميها العاريتين، تداعبان نسمات الرياح ثم تغني، بأعلى صوتها، لتُسمِع النهر صوتها ليحمله معه، ليوصله إلى الأنهار الأخرى، بل إلى المحيط علَّ أحدهم يسمعه، فتتشكل من صوتها مع خرير المياه المنسابة، وحفيف الأوراق الجذلة، ثنائيةً تجمع نقاءها بنقاء الطبيعة الأم، فتصنع سمفونية تقطر عذوبة لصدق عذريتها، تجعل (بوبي) الرابض بجوارها يهز ذيله طربا بما سمع، وتهيج ذائقة السنجاب الذي يقبل إليها محلقا من أعلى الشجرة ليحط بجوارها مطالبا إياها بالمزيد.

كلما غادرت براءة الطفولة جسد الفتاة، تترك مساحاتها لتجتاحها سمات الأنوثة، كلما تراجعت الطفلة تقدمت الأنثى، فيصطبغ صوتها بعذوبة نضج تجعل وقعه كالسحر، وبقدر ما كانت تتجلى موهبتها تجلى جمالها، جمال باهر يطاول حدود الكمال، جمال لا يحتاج الرائي إليه سوى لحظة ليرتد طرفه مسبحا لمن صورها.

والدها كان يري في جمالها نعمة، ستنشل العائلة من براثن الفقر، ووالداتها المشفقة كانت تتمنى ألا يصبح ذلك الجمال نقمة على صغيرتها، تكدر عليها صفو الحياة

يخاطب الأب زوجته:

-كبرت ابنتنا يا "حليمة"، وستتزوج ابن شيخ القرية، فلا يستحق جمالها أقل منه .

فترد الأم:

-ابنتي لن تتزوج في القرية، ستتزوج في أوروبا.

تسمع الفتاة حديث والديها، فتضيف أوروبا إلى أحلامها المحملة بخيالات كثيرة، فتنسج خيوط واقع حالم، لا يشبه واقعها في شيء، تتخيل ذلك الفارس القادم من أوروبا، بالطبع لن يكون أوربيا أشقر، بل مغربيا مهاجرا، سيأتي محلقا مع الغيوم ليلتقط خيط أحلامها المزروع بإحدى الغيمات، فتمسك بطرفه الآخر وتحلق، ترحل بعيدا عن جدران واقعها، كما تتحرر مياه النهر الصغير من جدران السد، سترى وهي في طريقها محلقة باتجاه المحيط، مدنا كثيرة، سترى تاوريرت، ووجده، وبركان، وعلى حدود البحر سترى مدينة الناظور، ثم تعبر ضفتي البحر الكبير لتدخل بعده عوالم ستكون أحن على صوتها، وأرحم بجمالها، وعندما تحط هناك في أشبيلية أو نوتردام أو باريس أو غيرها، سيترجل فارسها عن غيمته ليجدها أنثى، كما يجب أن تكون الأنثى، تملك جسدها وصوتها، والأهم أنها تملك حريتها في أن تحلم، لن يكون ذكوريا متسلطا فتكون خادمة المنزل، بل ستكون السيدة وحولها خدم كثيرون، والمطربة الشهيرة التي تتحدث عنها ضفتي المحيط.

تأخذ كل خيالاتها الجميلة تودعها صناديق العقل، في درجات الوعي واللاوعي، ثم تغلق تلك الصناديق بأقفال أمانيها، تستدعي تلك الخيالات عندما يتملكها التعب، فتذهب لتنام واضعة رأسها على تلك الوسادة التي تتشاركها مع أمها، والتي رغم ضعفها، كانت مصدر أمانها، والسياج الذي يحرسها من مخالب الزمن، ويحمي أحلامها من أنياب السنين الجارحة، فتحيا في سلام، وعلى دفء أنفاس الحنان، ونشوة خيالاتها تنام الفتاة مؤمنة بتحقيق أحلامها يوما، وللإيمان قوة السحر في تحقق الأحلام.

ذلك النضوج الذي كان يسوق الفتاه لتصبح امرأه قربها من الواقع حولها، وأبعدها عن أمان الطفولة وأحلامها، فعندما كانت تذهب إلى المدينة القريبة في السابق لم يكن يطالبها أحد أن ترتدي لباسا معينا، والآن عليها أن ترتدي الحايك وهو لباس أبيض من القماش تلتحف به المرأة لتستر سائر جسدها بل عليها أن ترتدي النقاب أيضا بطريقة مختلفة، فالطريقة التقليدية التي تبدي العينين للمتزوجات فقط، أما الفتيات في سن الزواج فعليهن أن يرتدين النقاب بطريقة مائلة، يكشفن عن عين واحدة فقط، هكذا تعرف الفتاه بأنها مستعدة للزواج.

مجتمع قريتها متناغم وهادئ، يمشي بقوانين توارثتها الأجيال، فكما أن للشلوح لغتهم الخاصة (الشلحة)، فلهم أيضا أعرافهم وتقاليدهم، أضفى عليها السلوك الجمعي قدسية ليس من السهل انتهاكها، فلن يسمح المجتمع لفتاة أن تصبح (شيخة)، والشيخة مفردة مغربية تطلق على

المرأة التي تمتهن الغناء، وذلك ليس مقبولا في أخلاقياتهم، و"يامنة" تعي ذلك جيدا، هي حتي في أحلامها لم تجرؤ على الحلم ضمن محيطها، رسمت أحلامها هناك في البعيد، تعلم أنها لا يمكن أن تغني هنا، ستغني بعد عبور المحيط، أو على الأقل على إحدى ضفتيه.

وكما أن للأحلام بداياتها فإن لها أيضا نهايات، وأحيانا كثيرة تكون تلك النهايات موجعة، بل قاتلة، فقد رحلت والدة "يامنة" عن الدنيا ليسقط سياج أمانها، تركتها وحيدة قبل أن ترسو بها على شواطئ الأمان، وكما كانت مؤمنة بأحلامها، أيقنت بنهاياتها، عرفت أن الزمن سيغرز مخالبه في جسد أحلامها الغض، وأن جمالها سيقدمه الفقر قربانا على مائدة ذئاب بشرية؛ لتنهشه أنياب السنين، ولم يطل انتظارها لهكذا مصير، فلم تكد تبلغ السابعة عشرة حتى جاءها والدها:

-لقد جاءني الشيخ يخطبك لابنه.

-لا زلت صغيرة يا أبي.

لم تجادل بعدها كثيرا، اكتفت بالصمت أمام تهديد ووعيد أمطرهما به، لن يفيدها الجدال بشيء، فبعد رحيل أمها لم يعد بإمكانها الهروب من مصيرها الذى تخشاه.

أوت إلى غرفتها، واحتضنت وسادة أمها لتتنفس كل ما بقي من أثر لها، سحبت خيط أحلامها الذي طال انتظاره بجوار الغيم، ولم يأتِ فارس أحلامها ليلتقطه، لملمت صناديق أحلامها، ومع خيوط الفجر

الأولـى ذهبـت إلـى النهـر الصـغير، لـيس لتودعـه صـوتها فيحملـه، بـل ليحملها هي، لتنساب مع مياهه الذاهبة إلى أنهار أخري قد تأخذها إلى المحيط.

* * * *

(14)

للأقدار تصاريف عجيبة، يبدو أحيانا ما تمنحه لنا من دروبٍ جميلةً جدا في بداياتها إلى الحد الذي لا يصدق، ثم تغدو أجمل فأجمل كلما واصلنا المسير منبهرين بالجمال الذي نراه، فتستدرجنا إليها بلا تفكير، إلى أن نكتشف أن وراء ذلك الجمال الذي توهمناه أفخاخَ ألمٍ قد نصبت لنا، فتنسينا كمائن الألم تلك في لحظة كل جمال البدايات.

أشياء كثيرة في الحياة تكون نهاياتها عكس بداياتها، كالحياة نفسها، تبدأ بفرح الولادة وتنتهي بحزن الموت، كثيرة هي الأشياء التي نتمناها، فرحين ببداياتها، فتنتهي بأن تكون مصدر تعاستنا، وأخرى كثيرة نخشى حدوثها ونتجنب مساراتها، ثم ندخلها مجبرين، فتكون هي ما يصنع سعادتنا، هكذا هي الحياة وكذلك هي أقدارها، لا نعلم ماذا تخفي، هكذا أوجدها الله لنعيشها، ولنا خيارات فيها، هكذا يفترض، لكن تلك الخيارات تغيب أمام ما هو أقوى منها، فلا خيارات أمام القلب ولا اختيار يمكن أن يوقف الرغبات العارمة.

كانت "أزهار" تخشى تلك السعادة التي تحيط بها، تخاف أن تنتهي، أو أن يحدث ما يبعثر عش سعادتها، ويقتل أفراخ أحلامها، لم تكن تريد الحب، فقد اكتفت بأحلامها، أما الحب فقد غلقت أبوابه حتى إشعار آخر.

لم تحب "خالد" من أول لحظة كما أحبها، بل بالتدريج، رويدا رويدا، كانت قناعاتها حاضرة مع عواطفها سواء بسواء، كانت لديها الموهبة لتغني قبل أن تحبه، إلا أنها عندما أحبته أُعطِيَ صوتها دفئا وعذوبة، ونضج أزغب به ريش أحلامها، فأصبح لها جناحان قويان تحلق بهما، واكتست كلماتها بشاعرية تلبستها منه، كانت زُهيرة أنثى صغيرة تحلم، فمنحتها قطرات رجولته تألقا أنضج أزهارها، فتفتحت تعانق خيوط الشمس.

تشربت حبه رشفة رشفة، وهذا هو أصعب أنواع الحب؛ ذلك الحب تملك روحها ذرة ذرة فكيف لها أن تنتزع حبه من روحها، نزع ذرة واحدة سيكون ألما كافيا لينهك الروح، فكيف بنزع ذرات وذرات؟

لم تعشقه كاملا كما عشقها كاملة في لحظة واحدة، بل أحبت أجزاءه؛ كل جزء على حدة، حتى اكتمل، أحبت أحلامه التي تلاقحت مع أحلامها أولا، ثم أحبت شاعريته التي ألهبت عواطفها، ثم نقاء روحه التي كتبت حبها في سطورها الأولى، ثم رجولته التي منحت أنوثتها رضًا أشبع كل ذراتها، لذلك لم تقتنع أن كل هذا الحب قد انتهى في لحظة الغضب تلك.

انتظرت أياما طويلة آملة أنه سيعود، سيعتذر إليها، وتعتذر إليه، لا لن يعتذرا، إذ يكفي أن تلتقي أعينهما بلا كلمات، فللعيون بين العشاق لغة أسمى من كل لغات الأرض، ستتعانق أعينهما المغرورقة بالدموع، سيحتضنان اشتياقهما وعتابهما، فيذوب كل شيء، تتساقط أوراق العتاب

الجافـة؛ لتنبـت علــى قطـر قلبيهمـا المحبـين أوراق الغفـران الخضـراء، ستتفتح أزهار الفرح على دفء حضنيهما، ثم سيبتسمان بل سيضحكان ضحكات تبدأ مشوبة ببقايا رغبة في البكاء، ثم تتلاشى تلك الرغبة رويدا رويدا على وقع كلمات قليلة، ستقول له بصوت متهدج:

-سأقتلك أن ابتعدت عني مرة أخرى.

وسيقول لها:

-كنت سأموت من دونك يا حبيبتي.

فتصفو الضحكات يملؤها الفرح، ثم يذهبان بعدها ممسكين يدي بعضهما إلى البحر الذي شهد قصة حبهما، الذي احتضن أسرارهما وحبهما وأحلامهما، حتى غدا خامس قصة حبهما؛ عاشقين وقلبيهما وهو خامسهم.

وهناك مع لحظات الغسق، عندما تبدأ الشمس في الأفول، وتلملم أجنحتها الذهبية من على قمم أمواج البحر المتكسرة، ستلقي رأسها على صدره، ومع مغيب الشمس سيبدو ظلاهما ظلا واحدا فقط، صورة تخبر عن لقاء عاشقين، ثم يقول لها الكلمات التي كتبها في غيابها، سيخبرها عن مدى الشوق الذي كان يعانيه، سيخبرها عن ألمه في فراقها، وكيف أنه كان يعد الثواني ليراها، وسيسألها بعد أن يقول لها كل شيء:

-وأنت يا حبيبتي، هل اشتقت إلي؟

وسترد:

-قليلا فقط، فقد كنت مشغولة بأشياء كثيرة.

تلك هي "أزهار" لن تقول له: (بل كنت أموت شوقا إليك كل يوم)، لن تقول له إنها أمطرت ليالي غيابه دموعا فاضت أنهارا، لن تقول: (يا حبيبي أنت لم تفارقني لحظة).

طبيعة فطرية في الأنثى، و"أزهار" أنثى، هي حواء كأمها "حواء"، أُخرج "آدم" و"حواء" من الجنة، فنزل في الهند، وهي في مكة، بحث عنها في أرجاء الأرض، وبحثتْ عنه أيضا في أرجاء محيطها حتى تعبت، ولأنه الأقدر وجدها، وعندما وجدها لهثت متعبة من البحث عنه، سألها:

-لقد بحثت عنك في كل الأرض، فهل بحثتِ عني؟

فأجابت:

-قليلا فقط.

ازداد الألم وطال الغياب، وهو لم يعد، في البداية منعتها كبرياؤها أن تسأل عنه في انتظار أن يسأل هو، وعندما يغلبها الشوق تذهب إلى أماكنهما، تذهب إلى حيث يمكن أن يكون، لعله يراها مصادفة، أو تراه، ثم غلبها الاشتياق فبدأت تبحث عنه، وعندما سألت، عرفت أنه غادر المدينة في ذلك اليوم، ترك الدراسة وكل شيء وذهب.

كيف ذهب؟! هكذا بكل بساطة يذهب! كيف يمكن أن يتخلى عن كل ذلك الحب في لحظة؟ هل كان يحبني أم أنني كنت واهمة؟ كيف يحبني ويرحل لأجل كلمة، كلمة واحدة، وهو المخطئ؟ تبا لذلك القروي وكبريائه.

إن كانت كبرياؤه أغلى من حبي، وسيضحي بحبنا لأجلها، فليكن هو الذي اختار، سأضحي بحبه لأجل أحلامي، وسأنساه وأغني، نعم سأغني؛ ليُسمع صوتي في أقاصي الأرض، وسيسمعني ذلك القروي يوما وهو في الجبل، فيندم، سأجعله يمتلئ حسرة، ويبكي، لا، لا أريده أن يبكي، أريده أن يأتي إليَّ مجردا من كبريائه الفارغة؛ ليرجوني أن أعود إليه، وسأدعه يتعذب كثيرا قبل أن أعود إليه، تبا لي! ما لي أنا أتعذب الآن؟! كيف سأغني، والغصة تقبض قلبي والعبرة تمسك تلابيب صوتي؟ كنت أخشى أن يقتل حلمي وجودُه، وها قد قتل أحلامي غيابُه.

بين بصيص من أمل وفيض من ألم ذبلت "أزهار"، انطفأت قناديل أحلامها، فمنذ ذلك اليوم لم تغن، ولا رغبة لديها أن تغني، غادرتها رغباتها مع أشياء كثيرة غادرت حياتها بمغادرته؛ غادرها الابتسام والفرح.

من كانت تملأ البيت ضحكا وغناء أصبحت صامتة كشواهد القبور، من كانت لا تستطيع البقاء دقيقة لوحدها، أصبحت لا تريد أحدا حولها، من كانت الابتسامة أبرز سماتها تفيض بها على من حولها، غادر الابتسام قسماتها.

تتألم والدتها وهي تراها تذوي أمامها، فظلت بجانبها آملة أنها ستنسى بمرور الأيام، لم ترد أن تزيد ألمها بأن تذكرها بأنها حذرتها، فما وقع قد وقع وانتهى الأمر.

رأى والدها الذي كان صديقها قبل أبوته أن ما كان يخشاه قد حدث، وهو يعرف أن أحاسيسها مرهفة، ومشاعرها أرق من خيوط العنكبوت، لن تتعافي سريعا، بل ربما لن تعود كما كانت أبدا، حاول إخراجها من أجواء عزلتها، ولم يفلح، جاءها بعرض كانت تحلم به؛ أن تغني للتلفاز، وسيتم بث أغنيتها، ولم توافق، فقرر أن يأخذها بعيدا، ففي هذه المدينة التي احتضنت كل تفاصيل لحظات حبها وأحلامها مع "خالد" لن تستطيع أن تنسى، فكل شيء حولها سيذكرها بكل شيء.

تكلم مع زوجته ولم تمانع، فتكلم مع أصدقاء يعرفهم أخبره أحدهم أن هناك برنامجا فنيا يبحث عمن يملكون موهبة الغناء، وأن ذلك البرنامج في بيروت.

-أخيرا يا صغيرتي سيتحقق حلمك.

-كيف ذلك يا أبي؟ وأي حلم؟

نبرة اليأس التي تعتري صوتها، وتشككها حتي في حلمها الذي لم يكن لها غيره، أثبتا للأب الحنون أنه على صواب في قراره، وأنها تحتاجه اليوم أكثر من أي وقت مضى.

-سنذهب إلى بيروت، ستغنين هناك.

-بيروت! ولكن يا أبي ...

-لن يعود يا "أزهار"، وأمامك حياة لتعيشيها.

كان رده حاسما لأنه يعرف سر ترددها، فتفكر "أزهار": سأسافر إلى بيروت، سأحقق حلما يراودني منذ طفولتي، كم تمنيت هذا اليوم، وها قد أتي، ما لي لا أفرح؟! ما لهذا الحلم أتى هكذا باهتا بلا فرح ولا روح؟! ما لي لا أنسى؟! لماذا تعلمنا الحياة كيف نحب ولا تعلمنا كيف ننسى؟ لماذا أحرقت قصائده ولم أترك واحدة منها لأغنيها فيحترق ألما؟! تبا للحظات الغضب! كم هي حمقاء ففي لحظة غضب واحدة انتهى حبنا.

-حسنا يا أبي، لن أخذلك، ولن أقتل حلمي.

-ستتعلمين مما حدث، أنت لست قوية الآن، لكن مواقف الحياة الصعبة ستجعلك أقوى.

-كم أتمني أن أكون أقوى!

حلقت الطائرة بـ"أزهار"، بأحلامها وآلامها، بأوجاعها وآمالها، بانكسارها وكبريائها، بالحبيبة المهجورة والفنانة الحالمة، لتحط في بيروت، مدينة راودت أحلامها صغيرة، وسمعت عنها الكثير عندما كبرت مدينة تتنفس فنا، بعد أن مرت في تاريخها بالكثير من المخاضات والدماء والدمار كعدن، ثم سئمت من كل ذلك لتغدو مدينة للفن والتعايش والسلام، كم تتمني أن تصبح عدن كذلك.

رأت كل شيء في المدينة ينبض بالجمال، والأجمل أن العالم كله يأتي إلى بيروت، شهدت ولادة فنانين، تجاوزوا حدود الشهرة ليلامسوا سقوف العظمة، هنا صدحت "فيروز" (أعطني الناي وغني)، فغنت معها صباحات العالم، حتى أصبحت أغانيها ثنائية لخيوط شمس الصباح، وهنا غنت الفنانة التي تعشقها؛ "ماجدة الرومي" (كلمات)، فكانت كلماتها دليلا للعذارى في اختيار فرسان أحلامهن، كثيرون جاءوا إلى هذه المدينة ولم يكن يعرفهم أحد، تنفسوا هواءها وتشربوا جمالية روحها، فغنوا ليسمعهم الشرق والغرب، كم من حالمين أتوا هنا فترجلت أحلامهم لتعانقهم، ثم طارت بهم إلى حدود الغيم وأقطار الأرض! وهي واحدة من هؤلاء، جاءت لتعانق أحلامها التي عادت إليها منذ النفس الأول لوصولها.

-كيف ترين المدينة يا "أزهار"؟

سألها والدها بعد أن رأى ابتسامة بدأت تراود محيا صغيرته المنبهرة بما حولها

-جميلة يا أبي، وكأنها أرض الأحلام.

ها قد عادت تتحدث عن الأحلام مرة أخرى، عادت "أزهار" التي يعرفها، كم كان مصيبا عندما سافر بها!

-هي أرض أحلام بحق يا صغيرتي، وهنا سيتحقق حلمك.

برنامج الأكاديمية برنامج فني لإحدى القنوات التلفزيونية العربية، يجمع المواهب الفنية في ما يشبه منافسة مفتوحة، ثم يتم اختيار من يملكون الموهبة المميزة، وفي حلقات متتالية يتم التصويت من الجمهور لاختيار من يرونه الصوت الأجمل.

شارك الكثير من الوطن العربي وعرب المهجر، كان البعض لطيفا فتحدثت معهم "أزهار"، والبعض الآخر غادرته اللطافة منذ ولد، فلم تشغل نفسها بذلك كثيرا، فقد جاءت لتغني، وهي واثقة من صوتها، ستثبت لأولئك المغرورين أنها أفضل منهم عندما تتفوق عليهم؛ لذلك لم تفكر في تكوين صداقات بل اكتفت بسلامات قليلة.

ذات صباح جاءتها فتاة في مثل سنها، جميلة إلى الحد الذي لا يصدق، ومع ذلك تكسو اللطافة وجهها، لها ابتسامة تدخل القلوب بلا استئذان، لا تدري لم تذكرها بفتيات قرية الجبل اللاتي رأتهن ذات يوم بعيد، تقدمت نحوها مبتسمة:

-مرحبا، أنا "مروة" من المغرب.

مدت يدها لتصافحها

-أهلا، وأنا "أزهار" من اليمن.

* * * *

(15)

يـا زمــــانَ الهجــرِ رفقًا فأنـا .:. عاشــقٌ والروحُ في نزعاتِها

أخذتنـي فــي دروب وانتهــت .:. ثــم ألقتني علـــى جنباتِهـا

يومها غنيت مـا أحلــى الهوى .:. وبكيــت اليـــوم من طعناتِها

لا تسلنـــي كيف أسلــو إنمـــا .:. اسأل الأنفــاس عـــن أناتِها

كيف أنساها ونبضٌ في الجَـوىَ .:. هو رجعٌ لصــــــدَى نبضاتِها

وإذا أصغيتُ للريــــحِ فمـــــا .:. أسمع الريح سوى ضحكاتــها

انزع الروح وصـــادر خافقـي .:. أو يلــمُّ المــوت أو لماتــها

هكذا كـان "خالـد" كمـا فـي القصيدة، فكمـا ملكـت نشـوة الحـب كـل كيانـه بـالأمس، فـألم الفـراق اليـوم تملـك كـل كيانـه، كـان الألـم حاضـرا اليـوم بقدر انتشاء الأمس بل أشد، كأنـه ألـم سرمدي لا يرحـل عـن لحظاتـه، ولا يستطيع هو الآخر أن يهرب منـه، فقد كان كالدبور الـذي حط علـي زهرة اللوتس فأسكره رحيقهـا، وبقـي هنـاك حتـى نسـي أنهـا تغلـق شـرنقتها عنـد المغيب، فأغلقت عليه، فعجز أن يخرج من بين جدرانها الرقيقة.

عدن المفردة التي بدأ حياته وهو يعرفهـا رمزيـة للألـم، ثـم تسـامى عن ألمه بشفاعة حب لم يكن لـه منـه بد، لـم يملـك خيـارا بـأن يكـون هـذا الحب في غيرها، فتصالح معها وسامحها؛ كي يستطيع العيش بسلام مـع حبـه، خلـق لنفسـه آلاف الأعـذار ليسـامحها كـي يسـتطيع أن يحلـق بـين شواطئها بأمـان فاستدرجته ليحبهـا، حتـى توهم أنهـا قـد أصـبحت مفـردة

للحب والجمال، إلى أن كشفت له عن وجهها الآخر، أو بالأحرى نزعت قناع الوهم وظهر وجهها الحقيقي، لتعود كما كانت رمزية لألم أشد ومفردة لوجع أقوى، ولن يسامحها مرة أخرى.

كان يأمل أن ما حدث لحظة غضب ستنتهي، إلا أنه وجد أن تلك اللحظة غيرت كل شيء، فانغلقت كل مشاعره تماما، انطفأ وهج الحب مع هبوب كلمات "أزهار" الجارحة؛ كلمات قتلت كل شيء، لأنها كانت منها، فالجراح تكون أشد إيلاما إذا جاءت ممن نحب، لم يستطع بعدها تجاوز لحظة الجرح تلك، وتحول الحب إلى وجع يؤلم كل لحظاته، ومرارة يشعر بها كلما خلا بأفكاره، وهو معها في خلو دائم، وكلما مرت الأيام اتسع الحاجز النفسي بينه وبين العودة إليها.

فكر أن يعود في لحظات اشتياق بالغ كانت تعتريه إلى حد البكاء، لكن كبرياءه حجرتْ على دموعه النزول، ومنعته عن العودة، كان يظن أنه في عيون "أزهار" كل شيء، بل أسمى من كل شيء، وفجأة وفي لحظة عرف أنه في عينيها مجرد فتى قروي يرعى الغنم، فكيف يعود؟!

أهذا أنا بالنسبة لك يا "أزهار"؟! أبعد كل هذا الحب؟ وأنا الذي أسكنتك عينيَّ فلم أر شيئا فيهما سواك! هل أحببتني يوما؟ أم كنت في نظرك فتى قرويا ساذجا تلعبين بمشاعره؟ أكنتِ تريدين رجلا أم ظل رجل تتدارين به عن هجير الألسن؟! أكنت تريدين ساترا عن المجتمع تدارين به أحلامك فقط؟! أنا لست ظل رجل يا "أزهار"، ولن أكون يوما، حتى إن رعيت الأغنام، فسأرعاها بكل رجولتي، لكنني لن

أرعاها، ستحققين حلما واحدا إن قدرتِ، لكنني سأحقق أحلاما، سأصبح أنا حلما بذاتي، بل أيقونة أحلام لكثيرات مثلك.

ظننتُ حبك البداية لحياة يملؤها السلام والحب، والآن سأجعل من جراحك بداية لحياة يملؤها الطموح والنجاح، حياة سأعيشها بلا قلب، فلم يكن قلبي معي على أية حال، ذبح بين يديك، بيديك، ولم أعد أريد مثل ذلك القلب الضعيف، الذي كاد أن يقتل كرامتي، لم أعد أريد مثل ذلك القلب الساذج، الذي اختزل الحياة كلها في "أزهار" واحدة، سأجد أزهارا كثيرة أرتشف من رحيقهن بلا قلب.

سأركب سفن الحياة، وأبحر لأرى كل شيء، وأعرف كل شيء، لترين إلى أين يمكن أن يبحر قروي متخلف، ويوما ما عندما تنزلق مجاديف غرور مدنيتك، وتتكسر سفن أحلامك أمام أمواج الحياة، وأنت هناك في سواد الليل وظلمة البحر تتشبثين بطوق نجاة، باحثةً عن من يرشدك إلى شواطئ الأمان، وتنظرين إلى النجوم لتدلك، فسترينني هناك سهيلا أكثر توهجا من غيره، ارتقى عن الحياة بعد أن شرب منها حتى ارتوى، ونهل من معينها حتى اكتفى، وتسامى فوق هامات التطور والنجاح، حتى عانق قمم المجد.

أنا ابن الجبل يا بنة البحر، لا تنحني رؤوسنا أمام عواصف الحياة، نقف شامخين في وجهها فتمر العواصف، ونبقي أشد شموخا ونقاء بعد مرورها؛ لأنها تنفض عنا غبار الزمن وذرات السنين المتطفلة عن وجه صخورنا.

عندما أراد "خالد" السفر إلى مصر لإكمال دراسته الجامعية، لم يكن من السهل أن يقنع جده ووالدته، لكنهما أمام إصراره رأيا أنه قد يكون محقا، وعندما رأى ترددهما حسم الأمر، فأخبرهما أنه يريد الذهاب إلى حيث ذهب والده؛ إلى مصر، فعلى خطى الراحل الغالي لن يمانعا أن يتابع ابنه تلك الخطى، ولم يحدثه أحد هذه المرة عن الزواج، فقد تيقنوا أنه لن يسمح لأي شيء أن يحد من طموحه الذي لا حدود له.

سافر إلى مصر في قلبه ألم زرعته "أزهار"، وفي روحه عزيمة ألهبتها كلماتها، فلم ينكفئ علي حياته باكيا، ولم يهِم في البراري لفراقها كما فعل "قيس"، بل تولدت لديه رغبة في انتقام يناسب صفاء معدنه، لن يكون انتقاما سلبيا ليؤذيها ثم يؤذي نفسه، فهذا النوع من الانتقام يدمر صاحبه في النهاية، بل انتقاما ايجابيا يمده بطاقة للنجاح، وإرادة ليرقى درجات المجد، إلا أنه وبرغم كل إيجابية نهوضه، ظل في صوته وجعٌ، وإن أخفاه، وفي كلماته حنين وشوق بالغان، وأن حاول كتمانهما، وفي عينيه ألم لا يخطئه كل من صارع أقدار الحب والفراق.

مصر أرض تتنفس تاريخا وحضارةً، تتألق فيها عوالم متعددة من كل بقاع الأرض، صنعت عظماء خلدهم التاريخ، فهنا في أم الدنيا ولد كثيرون ممن أنصتت الدنيا بأسرها لتسمعهم، وإلى هنا جاء كثيرون من أماكن متفرقة، فتعلموا في البلد التي سبقت غيرها في شتى العلوم، شربوا من نيلها، فبرعوا فيما جاءوا من أجله وأكثر، ثم عادوا إلى أوطانهم منارات أضاءت ما حولها، هناك شعراء مثله جاءوا من اليمن، جاءها

"الزبيري" فاعتنق نضالاتها، ليعود إلى اليمن شاعرا ثائرا فجر ثورة أطاحت بعروش الطغيان، وإليها جاء "باكثير" فكتب شعرا وملاحمَ دُوِّنت بين أساطير الشعر والأدب.

سيتعلم في مصر، وسيصنع لحياته بعدا آخر، فهنا سيلتقي بذلك الحلم الذي راوده منذ كان صغيرا، عندما كان يشعر أن حياته سيصبح لها معنى آخر، أعظم مما كان سيسمح به محيطه، ولمستقبله أبعاد أكبر من قرية جوار سفح جبل، ذلك الحلم الذي لم يكن يعرف كيف تلبسه، وكيف يصل إليه أو أين سيحققه، ها هو اليوم يراه قريبا منه، لم تتضح معالمه كاملة، لكنه يراه حاضرا، ويخطو خطواته الأولى إليه.

وكيف لا يرى ذلك وهو في مصر التي كيفما نظرت إلى كتب التاريخ بحد ذاتها أو من كتبوها، تجد أنهم مروا من هنا؟ هي الأرض التي ظهر منها مناظرو الفكر، والساسة، والقادة، والشعراء، والفنانون، الكل مروا من هنا.

هي الأرض التي جاءها والده قرويا بلا فكر، فاعتنق فيها الناصرية فكرا، ثم آمن بأفكاره إلى الحد الذي جعله يقدم حياته فداء لما يؤمن به، فحاز سيرة عطرة، ونهاية شامخة على قمم العزة والكرامة، منحته هو أيضا فخرا جللَّ كل حياته؛ لأنه كان ابنه.

هنا تتناثر رداءات العظمة في كل الأزمان والمجالات بانتظار من سيرتديها، فكيف لا يكون من هؤلاء؟! كيف لمثله ألا يكون نصيبه ارتداء

إحداها، وهو الذي يملك نبوغا واضحا ألا يرتدي ثوب نبوغ؟! كيف له وهو الذي يملك شاعرية متفجرة أن يرى النيل الذي فجر قرائح الشعراء بمعلقات العصر ألا يرتدي عباءة من عباءات الأدب؟

هنا سيلامس حياة شاعر النيل "حافظ ابراهيم" ليزيد شاعريته ألقا وسموا، وهنا سيقارب مراتع أمير الشعراء؛ ليتعلم كيف يكسو عمودية "المتنبي" بحداثية العصر، يتعلم كيف يصوغ امتناع بلاغة القدماء بسهولة لا تصعب على الفهم، هنا سيتلبس مشاعر "إبراهيم ناجي"؛ ليكتب أطلاله الخاصة عندما يولد للشرق كوكبٌ أخرى؛ لتغنيها، هنا سيقرأ لأبلغ من نظموا حر القصيد؛ ليتعلم كيف يفكك أعمدة القصيدة، فتصبح نصوصا شعرية تترابط أجراسها، فتنتشي الذائقة، وتتراقص المشاعر بين كلمات أدق وصفا، وتعابير تشبع الوصف.

وبعد كل هذا سيكتب هو قصائد ترسم شعاعات نور يضيء كل مساحات الظلام، شعاعات تتلبس صدقه، فتصل إلى القلوب، وتكتسي ألمه، فتعانق الأرواح المكلومة بفراقاتها، ثم ستسمعها "أزهار"، فترى إلى أين حلق ذلك القروي المتخلف؛ لتعلم أنه لم يعُد يومها باكيا إلى الجبل وانتهي على السفح منسيا لا يراه أحد، بل صارع الريح وتسلق جبال الحياة، حتى اعتلى قممها، ثم حلق كطائر الباز، ليرى الأرض بأكملها من الأعلى، ولن يحط مرة أخرى إلا على قمة من قمم المجد.

وفي مصر كان له لقاء آخر مع البحر؛ بحر الإسكندرية، حيث سيدرس في جامعة بيروت العربية، تردد في أن يتصالح مع هذا البحر

في بداياته؛ لأنه يعلم أنه متصل - ولو من بعيد - بذلك البحر الذي قتل أباه وقلبه، لكنه هادنه لأجل شاعريته، وعلى أمل أن ينسيه هذا البحر أوجاع سببها بحر آخر.

ومثلما أثبت تميزا وذكاء في دراسته، كان أكثر تميزا في شعره، متأثرا بالبيئة الجديدة، ومتطورا بما قرأ لغيره، فتألق في سماء الشعر.

انتبه أحد المحاضرين في جامعته، وكان شاعرا معروفا، لهذه الشاعرية، فأخذ بيده إلى آفاق جديدة، أتاحت لشعره أن يرى النور، وله أن يدخل الوسط الثقافي متعلما وشاعرا، فكتب شعره باسم مستعار، حيث رأى أن القصيدة أهم من الشاعر، ولا يهم من كتبها، المهم أنها ذاتها تستحق القراءة، ولا أهمية لاسم كاتبها، كان هذا سببه الجلي، وفي قلبه سبب آخر خفي لم يخبر به أحدا.

وهناك عندما يسطع من كنانة الأدب والشعر شعاع، يضيء جنبات الوطن الكبير من المحيط إلى الخليج، فسيحمل أحد خيوط ذلك الشعاع اسم شاعر جديد، اسمه (نديم الهجر).

*****

بثبات المخلص لأهدافه، والتزام المؤمن بغاياته، شق طريقه في دروب العلم والمعرفة فنبغ، وبشاعرية فطرية ومشاعر عاشق أضناه شوق لا يفارقه لحب أول، لم يحب قبله ولن يحب بعده، وبروح أتعبها طول الهجر، وأوجعها هجير الفراق، سطع نجمه كشاعر، صِدْق

إحساسه أوصل كلماته لتلامس شغاف القلوب، ومسحة الألم التي تكتسيها أوصلتها لتُعزف على أوتار الأرواح.

حاول الكثيرون ممن صادقهم أن يجرونه إلى دروب أخرى غير دربي العلم والشعر، ولم يوفقوا، فرغم بعده عن مجتمعه وأعرافه، وعن جده وأخلاقياته، إلا أنه كانت لديه دائما موانعه الذاتية، تلك الأخلاقيات التي غرست في وجدانه صغيرا، ومحاذيره الدينية التي تعلمها من منابع بسيطة وصادقة ونقية، لم يلوثها تشدد بغيض، ولم يضيعها تفريط وإهمال، تعلمها هناك بين جدران ذلك المسجد الصغير في قريته، ومارسها سلوكا بين أطهار تزين جباههم آثار سجداتهم على صخور الجبال، وبالإضافة لموانعه الأخلاقية التي رضعها من مناهل البداوة الصافية، فهو يريد لـ"أزهار" الحاضرة في وجدانه دائما أن تراه - عندما تراه يوما - يعانق السماء، لا أن تراه مترديا بين أوحال الثرى، وهذا الدافع القوي أجج روحه بما يكفي لتحلق وتسمو، تلك الروح التي كانت حاضرة دائما قبل جسده ورغباته.

كم رأى من أجساد تؤجج رغباته! ولم يهممْ بها، ليس لأنه ملك معصوم، ولا لأنه مجروح يحقد على النساء، وبالطبع ليس لأن الرجولة تنقصه، بل هي لديه مكتملة وتتملكها رغبات كثيرة، يؤججها عنفوان شبابه، وحرية غربته، لكن لرجولته فلسفتها الخاصة، فبالنسبة إليه هناك مساحات للروح يجب أن ترتوي أولا، ثم بعدها يبدأ إرواء رغبات الجسد، هو بحاجه أن يضم أنثى بين ذراعيه، لكنه يريدها أن تضم روحه

أولا، بحاجة أن يخط سطور رجولته على جسد أنثى، إلا أنه يحتاج أن تخط هي أولا سطور أنوثتها على جدران روحه، سيكون بعدها لالتقاء الأجساد لذة تتملك كل ذراتها، ومتعة تختلط فيها الشهوة بالنشوة، الرغبة بالحب، الارتعاش بالعشق، يريد لروحه الارتقاء إلى أعلى مراتب الإنسانية، فكيف يسمح لحيوانية تراوده عن نفسها أن تدنس طهر سموه الروحي.

في مصر التي يلتقي فيها الشرق والغرب، التقى "خالد" بـ"نايف"، وهو رجل أعمال من قريه قريبة من قريته، سمع عنه منذ زمن لكنه لم يره؛ لأنه كان مقيما في دبي، التقاه مصادفة في ندوة ثقافية، حيث كان لـ"نايف" اهتمامات أدبية، فنشأت بينهما صداقة قوية رغم فارق السن بينهما، فـ"نايف" من جيل والده، كما عرف والده وجده جيدا، إلا أن ما وثق عرى صداقتهما أنهما شاعران.

أدرك "نايف" تفوق صديقه الجديد ونبوغه، فقال له:

-عندما تنهي دراستك الجامعية يجب أن تأتي إلى دبي، فهناك سيكون لك مستقبل باهر.

-لا ياصديقي، سأعود إلى وطني، فهو يحتاجني.

-عن أي وطن تتحدث؟! في وطننا ليس هناك مكان للمبدعين، بل مقابر كثيرة للإبداع.. في وطننا ليس هناك مساحات للحالمين، فكل مساحاته محجوزة للانتهازيين والجهلة، في وطننا يا صديقي، إن عدت

إليه بكل هذا النبوغ، فسيعتبرك الجهل عدوا له، ويستبيح دمك، في وطننا نحن من أبناء المناطق الوسطى، ولا مكان لنا بين الطرفين إلا في دفع الأثمان، إن عدت إليه فستموت كل أحلامك، وتُدفن بين أكوام من البيروقراطية والفساد والجهل، اسألني أنا كم مرة حاولتُ أن أعود.. فأنا لم أنسَ وطني يوما، بل أجبرت على تناسيه، منعني من العودة إليه عقول لا يصلح معها حوار أو منطق.. في وطننا يا صديقي يموت الحالمون وتنتحر الأحلام.

يسمع "خالد" كلمات صديقه، فيعزوها إلى مرارة يشعر بها الصديق، ربما لمواقف مر بها، ففي عينيه هو يرى وطنا جميلا، تكمن كل تفاصيل الجمال بين سهوله ووديانه، يرى وطنا أصيلا، تمتد جذور أصالته في أعماق التاريخ السحيق، يرى تلك الأصاله على تجاعيد وجه جده، يرى وطنا مبتسما، تتجلى ابتسامته على قسمات وجه "منصور"، يرى وطنا بريئا طاهرا تتجلى براءته وطهارته بوضوح في عيني "سعدية"، وطنا حنونا بأبنائه، يشعر بدفء حنانه في أحضان أمه التي اشتاق إليها كثيرا.

كانت أمه التي يعتريها الشوق إلى وحيدها تأتي إلى مصر؛ لزيارته، عندما تبطئ بعودته الأيام، وكانت الأيام التي تقضيها معه من أسعد أيامه.

هناك في القرية شعر بأمومتها الطاغية، وحنانها الذي لا حدود له، ورعايتها التي أحاطت بكل تفاصيله، وهنا في الغربة رأى لأمه وجها

آخر؛ وجها جميلا كجمال كل حالاتها، وجد فيها صديقة يشاركها لحظات الحياة، تلبستها روح المكان، وكلما زادت معاناتها في الحياة كانت كالذهب الذي يزيده الإحراق صفاء.

عندما كان صغيرا لم يكن يحتاج أن يقول لها إنه يتألم حين يلم به الألم، إذ يكفيها أن تنظر إليه نظرة واحده لترى مواضع ألمه، فتمد يديها بلمسات حانية، تفر من ملمسها كل مشاعر الألم، واليوم هي لا تزال كذلك رغم اعتقاده أنه كبر، ففي عينيها لا يزال صغيرها، وهي اليوم ترى في عينيه ألمًا يجاهد في إخفائه، وفي كلماته حزنًا يعجز أن يداريه، فسألته:

-ما الذي يؤلمك إلى هذا الحد يا ولدي؟

-لا شيء يا أمي.

ثم تصنَّع الابتسام قائلا:

-من قال لك إنني أتألم؟

-الأم لا يخفى عليها ألم وحيدها.

-ربما بسبب الغربة يا أمي.

وجد الغربة سببا يمكن أن يوقف تساؤلاتها عما لا يريد البوح به لأحد، حتى أمه، وهي أقرب أرواح الخلق إلى روحه، لم يخبرها يوم أن كان من الممكن أن يتغير كل شيء بمعرفتها، لم يرد أن يسبب لها الألم

حينها، فكيف يخبرها اليوم بعد أن رحلت عنه "أزهار"، وغادر قلبه جنبات صدره ولم يعد الحديث ليشكل فارقا، إلا أن الأم التي تعرف أكثر مما يظن، بادرته بالقول:

-الألم الذي أراه في عينيك ليس وليد الغربة، فقد رأيته من قبل، يوم أن عدت من عدن في المرة الأخيرة.

كانت كلماتها مفاجئه بما يكفي لتهيج أوجاعه

-لا يا أمي، لم يحدث شيء في تلك المدينة.

لم يعد يريد ذكر اسمها حتى، فذكرها يثير ألمه الذي يحاول أن يتناساه، ولا يريد ذكرها أيضا مراعاة لمشاعر أمه، حيث يعلم ماذا يعني لها اسم تلك المدينة.

-بل حدث معك هناك كل شيء، عندما ذهبتَ إليها أول مرة، عدتَ وفي عينيك ألق، تمنيت ألا ينتهي، وعندما عدت منها في المرة الأخيرة انطفأ في عينيك الألق، وحل محله ألم لا تخطئه عين الغريب، فما بالك بعين الأم؟

بدا له أن أمه التي كان يظن أنها لا تعرف شيئا، كانت تقرأ كل شيء على صفحات عينيه، فأكمل هروبه من تساؤلاتها أملا ألا تسترسل أكثر:

-ليس إلـى هذا الحد يـا أمـي، كانـت مشـاعر عاديـة قد تعتـري أي شاب صغير السن، ينتقل مـن محيط لآخـر.. مـا الذي يمكن أن يكـون قد حدث أكثر من ذلك؟

-الحب يا صغيري.

"ما بال أمي اليوم تعري خفايـا صـدري هكذا"، سـأل نفسـه، لكنـه رد متسائلا:

-أي حب يا أمي؟

-حب "أزهار" يا "خالد".

-ماذا؟ "أزهار"! .. أية أزهار؟!

-"أزهـار" التـي عدت إلـى ممسوسـا ذات صباح، بعد أن رأيتهـا تحت شجرة الأثل.

-كيف عرفت؟! هل أخبرك أحد شيئا؟

-أخبرتنـي نظراتـك إليهـا منـذ اليـوم الأول، ثـم قـرأت فـي عينيـك سطورا للفرح ثم كتابا للحزن.

-هل كان كل شيء بذلك الوضوح؟!

-بالنسبه لـي نعم، أمـا غيـري فـلا أعلـم، لكـن صـمت "سـعدية" ودموعها أخبراني أنها أيضا كانت تعلم.

-ولماذا لم تتكلمي معي حينها؟

-كنت أريدك أن تختار لنفسك دروب حياتك.

-أحببتها يا أمي، وكنت أريد أن أتزوجها.

-ولماذا لم تتكلم أنت معي عن ذلك؟

-وهل كنت ستوافقين على الزواج من عدنية؟!

-ولم لا؟! ما ذنب الأماكن يا ولدي عندما يخطئ فيها البشر؟

-كنت أخشى أن أجرحك.

-أنت تعلم أن كل همي في الحياة سعادتك، ولم أكن لأقف عائقا أمامها.

-وأنا لم أكن لأبني سعادتي على أنقاض سعادتك.

-ومن قال إن سعادتي كانت ستهدم؟! بل سأكون أسعد منك، كنت سأسعد اليوم أيضا لو كان ما أراه في عينيك الفرح، بدلا من الألم.

كان البوح لأمه اليوم بما يجيش به صدره، مريحا إلى الحد الذي شعر معه أنه أزاح عن صدره جبالا من الوجع، فحكى لها كل شيء عن عدن والبحر، عن "أزهار" وأحلامها، عن كل ما جرى بين لحظتي الحب والفراق، عن اللحظة الأولى التى أخذته إلى حدود الشمس، وعن الأخرى التي أردته صريعا بلا قلب.

دمعت عينا الأم، احتضنت وحيدها، وما أن لامس رأسه دفء صدرها، حتى انهمرت دموعه التي طال احتباسها في محاجرها لتواسيه:

-كنت أعرف كل ذلك يا ولدي، لكنني لم أرد أن أختار لك حياتك حينها؛ كي لا أكون سببا لندمك يوما ما.

-هل تظنين أنه يمكن أن أعود إليها؟

-لا أعلم فهي قد سافرت منذ سنين مع أهلها.

-سافرت! إلى أين؟ وكيف عرفت؟

-ذهبتُ إلى عدن لزيارتهم بعد سفرك، وكنت سأتحدث مع أمها ومعها لأجلك، فلم يكن سهلا علي أن أراك متألما .

-هل ذهبت إلى عدن؟

-نعم يا ولدي ذهبت إلى عدن لأجلك، سألت عنهم فعلمت أنهم سافروا إلى بيروت.

احتضن أمه وقبل رأسها، فهو يعلم ماذا يعني أن تتسامى على جراحها، وتذهب إلى عدن لأجله، يعلم مقدار الوجع الذي اكتنف خطواتها وهي ذاهبة إلى الأرض التي سلبت منها روحها، نظر إلى بحر الإسكندرية الذي أمامهما، فاستيقظت فيه أحلام ترى ما لا يراه غيره قائلا:

-إذًا فهي على الضفة الأخرى لهذا البحر.

فتجيبه أماني أمه مواسية:

-ربما تجمعكما الأقدار مرة أخرى، كما جمعتكما أول مرة.

أمه التي كانت ترى كل آلامه، بل تشعر بها بذات القدر الذي يشعر به وأكثر، كانت تتألم بصمت منذ زمن، ليس فقط ذلك الألم النفسي الذي تجرعته في عز شبابها، ليس لأنها تعبت من الإبحار وحيدة لأجل وحيدها، بل لأنها كانت مريضة، ولم تتكلم يوما عن مرضها، كانت تنتظر أن ترسو سفن الحياة بولدها فتخبره، لم تكن تريد أن تقلقه بألمها، ولم تكن لترضى أن يغير مسارات حياته من أجلها، لكن المرض استبد بها يوما فأخذها إلى المستشفى مرغمة، حيث أخبرته أنه ألم بسيط، وسيزول، فأجابها:

-وإن يكن، نحن في مصر وبها أمهر الأطباء، على الأقل سنذهب إلى المستشفى لعمل فحص طبي فقط.

وفي المستشفى كان على موعد مؤلم آخر مع القدر، كُتب فيه فصل مظلم، أطبق على كل مساحات الضوء التي بقيت في دهاليز روحه، فصلٌ نزف فيه بقايا روحه لتنضم الى قوافل الراحلين.

❋ ❋ ❋ ❋

(16)

انتهت تصفيات المرحلة الأولى من برنامج الأكاديمية، وتم اختيار مجموعة من المواهب الغنائية المميزة التي ستتنافس في المرحلة الثانية، وكان هناك عدد من المواهب التي أثبتت تميزها منذ الحلقة الأولى، منها "أزهار" و"مروة"، فقد كان واضحا أنهما ستصلان إلى النهائيات.

بقواسم مشتركة كثيرة بين الاثنتين؛ المشاعر المرهفة، الأحلام الجميلة، الإيمان التام بموهبتيهما، الصفاء الذي تملكه الاثنتان اللتان تخطوان خطواتهما الأولى، ولم تعبث بروحيهما السنين، بدأت بينهما صداقة جميلة تتوثق عراها أكثر كل يوم، تكبر كلما زادت أحاديثهما، فللأحاديث قدرة بالغة في توثيق الروابط الإنسانية، فهي تفتح الآفاق لرؤية الإنسان الكامن وراء الجسد، وتنشئ روابط بين الأرواح عندما تتشارك همومها وآلامها، أفراحها وآمالها، تصبح أكثر قربا.

وللنساء دائما قدرة على الحديث أقوى مما لدى الرجال، فالمرأة تحتاج لدقائق من الحديث مع أخرى لتنشئ صداقات سريعة، تكون غالبا نهاياتها أسرع، هكذا هي عواطف المرأة، بعكس الرجل الذي يحتاج لمساحات أطول لبناء صداقاته، لكنها أيضا تعمر أطول، الارتياح الذي تشعران به بدأ يتحول إلى الألفة والثقة، فتداعب "مروة" صديقتها الجديدة:

-اسمك جميل، "أزهار" من الزهور.

-وأنت أيضا يا صديقتي، اسمك جميل له دلالات روحية "مروة."

-من الذي سماك "أزهار"؟

فترد مستغربة السؤال:

-سماني أبي، فمن يمكن أن يسمي غير الأب؟!

فترد "مروة" التي رأت والد "أزهار" يرافقها أكثر من مرة:

-أنت محظوظة بأبيك.

-وأنت أيضا، فقط أعطاك اسما جميلا.

تتنهد "مروة" وتبدأ في سرد فصول حكايتها لصديقتها، حكت لها أنه لم يكن اسمها في الأصل، بل كان اسمها "يامنة"، وقد حُفَّ جانبا طريقها إلى هنا بالأشواك والدموع، حكت لها عن قريتها الصغيرة، كيف عاشت بها طفولتها، حكت لها عن صناديق أحلامها الصغيرة التي ضاقت بأحلامها يومًا، عن أمها التي رحلت عن الدنيا في أكثر وقت كانت تحتاجها فيه، وعن والدها الذي كاد أن يبيعها صغيرة باسم الزواج، وكيف أن جمالها أصبح نقمة عليها بعد وفاة والدتها، فجعلها مطمعا لكثيرين، وكأنها سلعة تباع وتشترى، وأنها تركت قريتها بكل ذلك ذات صباح، رحلت عن مراتع طفولتها حاملة معها صناديقَ أحلامِها فقط؛ لتحط رحالها في مدينة تاوريرت عند عمة لها تسكن هناك.

أبدت العمة تفهمًا لمعاناتها، ثم ساعدتها بمعارفها في المدينة لتغني يوما في مهرجان المنقوشي، فسمع أحد القائمين على المهرجان صوتها وأعجب به فتبنى موهبتها ثم أخذها إلى مدينة أكبر هي مدينة وجدة؛ لتغني في مهرجان (الراي)، الذي يقام كل سنة عند عودة المهاجرين من أوروبا في إجازاتهم، ومن هناك بدأت أولى خطواتها في طريق أحلامها، ثم اختار لها اسم "مروة" قائلا: (لا يصلح اسم "يامنة" لفنانة)، ولم تمانع، بل رأت ذلك مناسبا، فهي لا تريد لأحد أن يعرف "يامنه" أصلا.

بعد أن انتهت سألتها "أزهار":

-وما هو (الراي)؟ هل هو لون من الغناء المغربي؟

-لا، هو في الأصل فن جزائري، ونحن في شرق المغرب تأثرنا به لقربنا من الجزائر، لكنه انتشر في المغرب بأكمله.

استغربت "أزهار" قصة صديقتها القادمة من المغرب؛ ذلك البلد الذي يجاور أوروبا ويتلبس روحها، البلد الذي تسمع عنه أن المرأه هناك تفعل ما تشاء، وترتدي ما تشاء، ولا سلطة لأحد عليها، إلا أن "مروة" أوضحت لها أن ذلك قد يكون صحيحا في بعض المدن الكبيرة، وأولئك الفتيات التي تتحدث عنهن يأتين من أوساط معينة؛ كمدن الصفيح والعشوائيات، وأن هناك في المغرب مجتمعات محافظة لا زالت تعتبر غناء الفتاة أو تبرجها خروجا لا يغتفر عن أعرافها، ومن تلك المجتمعات مجتمع الشلوح من حيث تأتي.

حكايات "مروة" أخذت ذكريات "أزهار" إلى قرية الجبل، حيث التقت "خالد" للمرة الأولى، لتتساءل هل لو كانت تزوجته أكان سيسمح لها بالغناء ويقف مع أحلامها مخالفا أعراف مجتمعه الذي لا تراه مختلفا عن مجتمع محدثتها اليوم؟ كيف لو لم تكن هي من عدن؟ وكيف لو لم يكن مجتمعها ووالدها متفهمين؟ لتقطع "مروة" عليها سيل الذكريات الذي بدأ يغمر جنبات عقلها:

-وأنت أيضا بلا شك عانيت الكثير، فأنت قادمة من اليمن، وأسمع أنه مجتمع محافظ جدا.

استغربت "مروة" بدورها عندما أخبرتها "أزهار" ألا شيء من ذلك قد حدث معها، ولم يكن هناك حضور للمعاناة في طريقها، بل جاءت من بيتها مع والدها مباشرة إلى هنا، وأنها ولدت باسم "أزهار" ولا زالت هي "أزهار".

وبين استغراب الشابتين اللتين لم تختبرا الحياة عن تناقض ما يعرفان مسبقا عن بلديهما، وعما يسمعانه اليوم، كانت هناك حقيقة غابت عن حوارهما، الحقيقة أنه لا توجد صفات مطلقة يمكن أن يوصف بها بلد ما، فالمسألة نسبية تعتمد على عوامل كثيرة، منها الدين، والأعراف، والعلم، والامتدادات التاريخية والجغرافية، يتشكل من هذا الخليط سلوك جمعي يصبح هو الصفة الغالبة لكل مجتمع، بقدر ما أخذ من موروثاته ترتبط تلك الصفات بالمجتمعات نفسها وليس بالبلدان، فقد يوجد في بلد واحد أكثر من مجتمع، وكل مجتمع مختلف عن الآخر تماما، إلا أن كل

المجتمعات على وجه الأرض تتفق على شيء واحد، وهو رفض التغيير في بداياته، واستنكاره، بل معاداته، ثم شيئا فشيئا يتسرب ذلك التغيير في تركيبة المجتمع، حتى يصبح منكر الأمس معروفَ اليوم، ومعروف الأمس تخلفا.

-إذًا كانت دروبك ممتعة و سعيدة يا صديقتي.

-لا، فقد كان لي من الألم نصيب غير في كل شيء.

-وكيف ذلك؟

-الحب يا صديقتي.

-كيف يسبب الحب الألم و هو أسمى أنواع السعادة؟

-بالفراق.. فالفراق ألم.

-ولماذا افترقتما؟

تدفقت سيول الكلمات على لسان "أزهار"؛ الكلمات التي تحكي قصة حبها؛ تللك القصة التي بدأت كحلم جميل، لتنتهي بيقظة مفزعة، ماتت معها كل الأحلام التي حلقت بها عاليا فوق سماوات جميلة، لتنتهي بفراق تَرَدَّتْ معه كل أحلامها، تلك القصة التي تملكت روحها إلى حد الهيام في السماء، ثم ألقتها على الأرض جسدا بلا روح، حكت لها كيف أحبت لتغني للنوارس والبحر وكيف جعلها الفراق تغني للهجر والوجع .

-أحببته يا صديقتي بكل ما في.

-وهل أحبك؟

-أحبني حد الجنون.

-ثم ماذا حدث؟

-ثم رحل، فقط رحل من دون حتى أن يودعني.

بدأت دمعات "أزهار" تتساقط وهي تتذكر كل ذلك، اقتربت منها "مروة" لتحتضنها محاولةً تلطيفَ وجع صديقتها.

-على الأقل عشتِ قصة حب لتحكيها.

-وأنت، ألم تعيشي قصة حب؟!

-نعم، لم أكن محظوظة، فلم أجد من يحبني.

-لماذا وأنت بكل هذا الجمال؟!

-ربما بسبب جمالى لم يحبني أحد.

-كيف ذلك؟! والجمال هو أول ما تراه العين، وهي بدورها مفتاح القلب.

-بل حجب عن الأعين أن تنظر إلى قلبي وروحي، كانت العيون ترى جمالي وجسدي فقط، وتنسى أن بداخل هذا الجسد قلبا يحتاج الحب، لتستمر نبضاته، فعاهدت نفسي ألا يستبيح مساحات جسدي إلا من تنبض بحبه شغاف قلبي، وإلا سأكتفي بالغناء ...

ثم أكملت ضاحكة: "وأتَبَتَّل"

فيضحك قلبان أتيا من ضفتي محيطين بعيدين؛ قلب جاء من ضفاف الشرق العربي، وآخر جاء من ضفاف غربِه، ضحكةً تتجاوز كل الحدود والفواصل الجغرافية والمعنوية، لتتعاهد الصديقتان على صداقة أبدية، وهما لا تعلمان إلى أين ستأخذهما دروب الحياة ومسارات القدر.

تلك الصداقة وكأي شيء جميل لم تسلم من عبث الأقدار، ذلك المسار الجميل الذي رسمته الصديقتان أبت الحياة إلا أن ترسم مسارات أخرى لهما، ومن إحداها جاء "عصام" رجل الأعمال الثري، ومالك القناة المنتجة للبرنامج الذي تشتركان فيه.

لاحظت "مروة" اهتمامه بها من البداية، بدأ حديثه معها بكلمات جميلة يمتدح صوتها تارة، ويمتدح عواطفها تارة أخرى، وبدأت ترتاح لأحاديثه، لأول مرة تجد من يخاطبها بلغة القلوب بعيدا عن إيحاءات الجسد التي أصبحت تشعرها بالاشمئزاز، هكذا رأت "عصام" فبدأ إعجابها به يتغلغل في مساحات قلبها، ويداعب أحلامها، وعدها أن يساعدها في تحقيق أحلامها الغنائية، فبدأت السعادة ترسم لها غدا سيكون أجمل من الأمس.

هكذا كانت الصورة من جانبها وليس لأحد أن يلوم اندفاعها، فلا زالت بكارة مشاعرها الغضة قابلة لتصديق ما لم تألفه.

ما لم تكن تعلمه أن هذا الخمسيني هو نوع آخر من الرجال، نوع لم تلتقِه من قبل، ذلك النوع الذي نهل من الحياة كل شيء ولم يكتفِ، ذلك النوع الذي ينال الأجساد باسم الحب، فيكون نيلُها أكثر متعة وأشد إرواء لعطش لا ينتهي، يغلف شهوانيته برقة يسلب بها القلوب، ذلك النوع الذي يحب أن ينال ما يراه صعبا؛ ليرضي وهم رجولته التي كلما جربت شيئا تولت عنه لتجرب غيره.

ما كدر صفو أمانيها أنه وبلا مقدمات أو أسباب حول اهتمامه فجأة عنها ليوليه لـ"أزهار"، صديقتها التي لم ترَ منها أي سبب قد تكون أبدته له ليهتم بها، "صديقتها" التي حكت لها أنها لم تعد تريد في حياتها حبا ولا رجالا، كما أنها لم ترَها معه يوما لوحدهما، فهي تراها تتعامل معه برسميات كاملة، تؤدي التزاماتها فقط في المسابقة، وتكون دائما برفقة والدها الذي لا يتركها إلا حينما تكون معها، حاولت كثيرا أن تفهم "لماذا "أزهار"؟ لماذا يهتم بها هكذا ويتركني وهي التي لا توليه اهتماما يذكر؟!".

عندما وصل البرنامج إلى الحلقة النهائية غنت "مروة" فأجادت، وغنت "أزهار" فأبدعت، وكذلك المتسابقون الآخرون من الخمسة الذين وصلوا للنهائيات، إلا أن الفوز كان من نصيب "أزهار" وفي لحظة إعلانها فائزة كان أول ما فكرت بفعله أن تحتضن صديقتها، فأحتضنتها فرحة، لكن "مروة" استقبلتها بحضن باهت لا روح فيه، عزت "أزهار" ذلـــــك - ربما - لأنها لم تفز فواستها:

-لا يهم من فاز يا صديقتي، فأنت أفضل مني، هي فقط مسألة أصوات، وأنت قد فزت بقلوب الكثيرين، وأنا أولهم، وسنظل صديقتين إلى الأبد.

-مبارك يا "أزهار"، مبارك على كل شيء.

في صباح اليوم التالي ذهبت "أزهار" إلى غرفة "مروة"، فوجدت أنها قد رحلت من دون أن تودعها أو تخبرها كيف وأين يلتقيان مرة أخرى.

ذكرها رحيل صديقتها التي أحبتها بدون وداع، برحيل آخر كان بدون وداع أيضا، فتساءلت بمرارة "ما بال كل من أحبهم يرحلون دائما دون وداع؟!"

❊ ❊ ❊ ❊

(17)

أمامــك اليوم والعبـــــــرات تخنقني .:. يـــا قبلة النــــور يا محرابنـــا فيها

ما لي أسجيك يا روحـــي ويـا أملـــي .:. من يحيي الروح إن مـــاتت معانيهـا؟

لو كـان للمـــوت تبديــلا ومنصـرفـا .:. فدتـك روح بكـــاك اليـوم مفديهـــا

فلتعذري أن دموعي أمطـــرت حزنـــا .:. فلـن تطيق احتباســا فـــي مآقيهـــا

حملتني وسيـــوف المـــوت حـائمـــة .:. لم ترهبـــي مَن ستُردي أو سيرديهـــا

أرضعتني من حليب الصبر راضيـــة .:. أسقيتِني مـــن كـؤوس الروح غاليها

علمتني كيف أسلـو والجـوى ألـــم .:. وكيف لـــو جــارت الدنيــا أغنيهـــا

قد كان يكفيك حتـى تعرفــي ألمـــــي .:. أن تقرأي فــي عيوني كــي تداويهـــا

لكنني مؤمـــن يا حســن خـــاتمتـي .:. يكفي رضاك عن الدنيـا بمـا فيهـــا

وأنني إذ أراك اليـــــوم بـاسمـــــة .:. لأن روحـــك تسمـو فـــي مراقيهـــا

أيقنـــت أن سمـــاء الله قـــد رفعـــت .:. ما أهدت الأرض والقطرات تسقيهـــا

روح الطهارى تزور الأرض في عجل .:. ففي السمــــاء سريعـــا من يناديها

سأكتفـــــــي برثـــــاء ما به سخط .:. ولترحلي بســـلام عنـــــد باريهـــا

إلى جنـــان إلى خلـــد إلى عـــــدن .:. ولتهنأ النفس وليرضيـك مرضيهـــا

يا جنــــة الأرض قولي للسمـــاء غدا .:. بأنني نلت شطـــرا مــــن تساميهـــا

ولتسألـــي الله يرحمنـــي ويجمعنـــا .:. يا جنتي أنت من حتمـــا سآتيهـــا

نُشرت هذه القصيدة في الكثير من المجلات والجرائد، وتداولتها المواقع الثقافية، تحدث عنها القراء لصدق كلماتها، وتكلم النقاد عن بروز

اسم شعري سيكون لـه شأن فـي فضـاءات الشعر بـلا شك، ولأنـه يملك إرادة لاحتمال الألم، فكلما زادته الحياة ألمًا ازدادت روحـه صفاء، وكلما وارى أحلامـه الثـرى نبتـت مـن بـين ذرات ثراهـا أحـلام أسـمى فـي مضامينها، وكلما كَسرت أجنحَتَه المحنُ بزغت في أعقابها أجنحـة أكثر قوة، فيواصل تحليقه، تلك الإرادة التي جعلت من ألمه بحد ذاته إبداعا متفردا، صنعت من جراحه بلسما يداوي به جراحات الآخرين، وكان ذلك سر تميزه.

فقد قلبه يوم أن فقد "أزهار" فكتب عن موت القلوب ما أحيا به قلوبا كثيرة، وفقد روحه يوم أن فقد أمه، فكتب في رثائها ما كان فيه عزاء لأرواح مكلومة، فقدت سياج أرواحها.

واصل تحليقه بلا قلب، يبحث عن قلب آخر ليسكنَ صدرَه، بعد أن سكنه خواء يسمع فيه صرير رياح الفراق، أو أن يعود إليه قلبه يوما، سعى إلى عالم الأرواح يبحث عن روحه، وأنَّى للأرواح أن يكون لها بديل؟! أنى له أن يجد كروح أمه التي منحته إياها راضية؟ تلك الروح التي علمته أبجديات الحياة، تلك الروح التي علمته طهر الأرواح، وسمو النفوس، علمته كيف يسمو بروحه؛ ليتسامح مع كل شيء، فيكسب سلام روحه ذاتها، علمته كيف يتسامى على جراح البشر وآلام الزمن؛ ليجعل منهما بلسما يشفي جراحات آخرين، علمته أن السعادة في العطاء بلا انتظار جزاء، علمته أن السعادة ليس في أن يطوِّع الحياة كما يريد، بل أن يتقبلها كما هي، علمته كيف يصنع من مرارات الحياة شرابا لذيذا،

عندما يذيبها في أحضان الصبر وعناقات الرضا، حتى أنها في رحيلها علمته أن الأرواح الطاهرة لا تنتهي بموتها، فهي ترحل بعد أن تزرع من طهرها بذرات أرواح أخرى، ستحلق حيث حلقت، لتكمل رسالتها الإنسانية.

عاشت كل حياتها صابرة مبتسمة صامتة، رغم كل آلامها بعد رحيل والده، لم ير دموعها يوما، كان قلبها يبكي صامتا في دواخله، وهو أصعب أنواع البكاء، لم تكن تريده أن يرى دموعها، برغم أنها في أدنى درجات ضعفها، كانت تريه دائما أنها قوية؛ لكي يستمد منها قوته، كان يراها دائما مبتسمة رغم أن دموعها قد تحجرت في مآقيها لطول احتباسها؛ لكي تمنحه السعادة، وتزرع فيه البسمة، بينما كان السرطان بخبثه يجتاح مساحات جسدها النحيل، ولم تبد ألمها، أو تخبر أحدا أنها مريضة، فعزة نفسها كانت أكبر من أن تتقبل شفقة من أحد، حتى تمكن المرض منها ولم يعد يصلح معه دواء.

كانت تؤجل كل شيء حتى يكبر وحيدها، فلم تكن تريد أن تكدر عليه صفاء طفولته أو تقلق سعادة شبابه، جمعت آلامها وأوجاعها وركنتها على رفوف الصبر، حتى ترسو به سفن الحياة، ويصبح رجلا يتجلى فيه فخرها، حينها ستسند رأسها على كتفه وتقول له كل شيء، ستحكي له عن ليالٍ طويلة مسهدة، قضتها وحيده تكابد آلام فراق حبيب اختطفته يد الأقدار قبل أن ترتوي بضمة، عن حبيب رحل بقراب ماء

حياتهـا وهـي فـي أوج سـاعات العطـش، سـتبوح لـه أنهـا قـد تعبـت مـن مصارعة أمواج الحياة.

ستروي له قصة إبحارها وحيدة، وهي التي لا تملك مركبا بعد أن تحطم مركبها وسط أمواج بحر بعيد غادر، ستخبره كيف تعلقت بلوح أمل صغير تبقى من الحطام، فاحتضنته صغيرا بإحدى يديها، وجدفت بالأخرى باتجاه شواطئ النجاة لأجله، ستقول له إنها أجلت فرحها إلى يوم فرحه.

ستخبره أنها ستنسى كل ما كابدته عندما تحتضن أول أحفادها، ستكون قد أكملت رسالتها، وهنالك ستبتسم من كل قلبها وهي تناغي حفيدها، ثم تحتضنه وتنام كما لم تنم من قبل، ستنام حينها بلا ألم، حينها لن يوقظها وجع الليالي الموحشة فتبكي لفرط وحدتها، بل سيوقظها بكاء الصغير الجائع، فتستيقظ فرحة باسمة، لترضعه ماء روحها، وتهدهده بنبضات قلبها.

هي من الأخيار الطيبين، أولئك الذين تبخل عليهم الحياة بأيامها، تأخذهم يد المنون قبل غيرهم، كأنهم خلقوا لعوالم غير عالمنا، كأنهم يأتوننا زائرين فقط ليذكرونا بالإنسانية والعطاء والتضحية والسمو، ثم يرحلون سريعا قبل أن ينالوا جزاء لطهر أرواحهم؛ لأن جزاءاتهم هناك في العالم الآخر؛ جزاءات سامية تعجز دنيانا أن تمنحهم إياها، هي كذلك رحلت على بعد خطوات قليلة من لقاء أمانيها، وما آلم "خالد" أكثر من

ألمه لرحيلها أنه كان بإمكانه تقصير تلك الخطوات، لو أنه تزوج أبكر، كم كان سيفرحها ذلك!

لو أنه أخذها للمستشفى في وقت أبكر لكان من الممكن تدارك مرضها، لو، ولو... لكن تلك الـ(لو) التي تفتح أبواب الشيطان لن تعيد حبيبا ولن تغير من قدر، ولن تطفئ ألما يستبد به، سيتلبس روحها، ويكتفي برثائها

رحمك الله يا أمي بعدد سجدات صلاتك ..

رحمك الله يا أمي بعدد خفايا صدقاتك..

رحمك الله يا أمي بعدد أنات وجعك..

أنتِ الآن عند مَن لا يظلم، وسيُكرم مثواك عند من لا تخفى عليه خافية، وسيكافئ خفاياك التي كانت كطهر ظواهرك..

رحمك الله أيتها المتبتلة الصابرة، رحمك الله أيتها الزاهدة بصدق الأولياء، رحمك الله أيتها العابدة بصفاء الأتقياء..

رحلتِ ولم تنالي جزاءك في الدنيا، لكنك اليوم عند من لديه خير الجزاء.

هناك محطات في الحياة، مَن يمرُّ بها يخرجُ منها مختلفا عن ذاته حين دخلها، وهكذا كان "خالد"، تغير الكثير بعد رحيل والدته، تغيرت نظرته لأشياء كثيرة، ذلك الوطن الذي كان يعد أيامه ليعود إليه أصبح

وجعا لا يريد العودة إليه، فلم يبق له فيه إلا ذكريات الأحباب الذين رحلوا، فكيف سيعود إلى قرى لم تعد فيها أمه؟ كيف سيعود إلى مدن لم تعد فيها "أزهار"؟ كيف يعود إلى وطن رحلت عنه حبيبتاه؟! كيف يعود إلى مدافن أحلامه؟ ستموت شاعريته التي لم يبق له سواها.

كيف سيعود وهو يعلم أن خطواته عائدا ستكون باكية حزينة؟ تذكر - وهو يفكر كيف يتفادى بكاء خطوات العودة، بكاء خطوات الرحيل - كيف كان يبكي صغيرا وهو يغادر القرية لأن أمه هناك، ثم كيف تدحرجت دمعاته شابا يوم فراقه لعدن؛ لأن "أزهار" فيها.

رحل كل الذين كان يبكي لفراقهم، فلا يدري هل أصبح الوطن بلا روح ليهزه الحنين أن يعود، أم أنه هو الذي فقد روحه؟! تساؤل لا يعرف الآن له جوابا، ما يعرفه أنَّ عليه ألا يعود، عليه الآن أن يبتعد حتى تبرأ الجراح ويخفت الألم.

هاتف صديقه "نايف" وأخبره أنه قادم إلى دبي، وعندما حط رحاله فيها تذكر تلك الفراشات اللاتي رآهن ذات يوم في القرية، وعرف سر ذلك الألق الذي أضاء ليل القرية تلك الليلة، فكيف لمن يسكن في هذه المدينة ألا يتألق وهي مدينة مخلوقة من ألق فريد؟! كيف لا تسمى مثل تلك الفراشة باسم كـ"أحلام" وهي في مدينة هي الأحلام ذاتها؟!

مدينه تشع من كل جنباتها منارات تضيء جنبات الحياة، تعتلي قمم السحاب تطورا وحداثة، ويكتسي تطورها بروح إرث رائع وماض

جميل، هي مثال للإرادة التي تصنع من الأحلام واقعا ملموسا، مدينة زرعت في رمال الصحراء مجدا وقف له العالم إجلالا وانبهارا.

عرف الآن لماذا يعرفها كل العالم، ففي عروق أبنائها ولاء صنع مجدها، صبته قطرات عرقهم ليروي نخيلها، ولهم إرادة صنعت من كثبان الرمال بروجا مشيدة، هنا تترجم الأحلام - مهما بلغت - واقعا، وتُتَنفَّس الحرياتُ حتى تُرتَوَى، وهنا يجد الإبداع مرتعه، فيشع ليصل إلى أقاصي الأرض، وهنا تجد بذرات المواهب تربة خصبة، فتنمو في فضاء واسع لا يحد من نموها شيء، عرف منذ اللحظة الأولى أن "نايف" برغم كل ما قاله عنها كان مقصرا في وصفها، وعرف أنه كان صادقا عندما قال له:

-ليس لمثلك إلا دبي.

مدينة رغم صغر مساحتها تحتضن العالم بأكمله، تقبل كل من أتاها، تقيمه فقط لإبداعه وإمكانياته، تمنحه مساحات لا متناهيه للإبداع والتطور، تيقن أنه سيجد له مكانا هنا في مدينة هي ذاتها لوحة شعرية كاملة، فكيف لشاعر مثله ألا يجد لكلماته مساحاتها؟

استقبله "نايف" بفرح غامر قائلا:

-أخيرا عملت بنصيحتي!

-وقد كنت محقا يا صديقي فهي مدينه إبداع بحق.

"نايف" هو رجل أعمال ناجح، سر نجاحه أنه استثمر فيما يحبه؛ الأدب والشعر والثقافة، ولذلك كانت شركاته تعمل في هذه المجالات، لديه شركه إنتاج فني، ودار للنشر، ودور للطباعة، لذلك أسدى صديقه نصيحة أخرى:

-لتنجح في عملك يجب أن تعمل فيما تحب.

-وكيف ذلك؟

-أنت شاعر وأديب، ويجب أن تعمل في هذا المجال.

-وهل الشعر عمل يا صديقي؟

ضحك الصديق العارف قائلا:

-الشعر رسالة أسمى من ذلك، لكن ما أقصده أن تعمل في ما يتعلق به.

-اشرح لي أكثر، فقد اختصت دراساتي بمجال آخر.

-أعلم، لكنك إن عملت بوظيفة فستقتل روح شاعريتك، والتي أوصلتك إلى ما أنت عليه اليوم، وكذلك التجارة، فلا تدع ماديات الحياة تطغى على روحك التي هي سر تميزك.

يعرف "خالد" صدق نصح صديقه، ولذلك وافقه عندما عرض عليه إدارة دار النشر، وعرف "نايف" أيضا بحدس رجل الأعمال أن

"خالد" سيكون إضافه تأخذ الدار إلى آفاق أوسع، فهو قد وضعه في بيئته المناسبة.

تولى إدارة الدار فكانت روحه حاضرة في عمله، أجاد انتقاء الأعمال الأدبية فحققت الدار أعلى المبيعات، وتعهد الكتابَ والشعراءَ المبدعين فأخذ بأيديهم إلى آفاق أبعد، أحبه الكثيرون مِمَن تعاملوا معه؛ لأنه تعامل معهم بروح الشاعر والصديق.

اكتسب احترام الأوساط الثقافية والأدبية، فكان مدعوا في أغلب المحافل والفعاليات، وهي كثيره في دبي التي تشهد حراكا فكريا وثقافيا وشعريا يكاد لا يتوقف طوال أيام العام، فحققت الدار في ظل إدارته الكثير من الإنجازات التي أخذتها إلى مصاف الدور المتميزة، فكُرمت الدار ومديرها ومنشوراتها بالكثير من الجوائز، أيقن "نايف" أنه أحسن استثمار موهبة صديقه، فكافئه بأن جعله شريكا وليس فقط مديرا.

أصبح الأستاذ "خالد" أديبا قديرا، وناقدا أقدر، ورجل أعمال صاعدا في نظر كل من يعرفه، لكنه مع نفسه كان (نديم الهجر) الشاعر الذي يحمل في وجدانه حبا لم يمت، وفي كيانه جراحا لم تبرأ، وفي قلبه حب وطن ومراتع طفولة يحن إليها ولا يجرؤ أن يعود، مع نفسه هو الوحيد الذي فقد أمه التي أحبها أكثر من أي شيء، وهو الحبيب الذي نفته الأقدار مرغما عمن أحب.

لم يبق له من عالمه الداخلي سوى شعره؛ لذا فضل (نديم الهجر) أن يبوح بأوجاعه للأوراق ويسطر معاناته كلماتٍ وحروفًا، يكتب لتحلق كلماته في فضاءات العالم علها تصل يوما إلى مسامع الحبيبة، علَّ كلماته تُدمع عينيها، فيغسل بها جراح قلبه لتبرأ، علَّ ذلك الألم الذي يسكن وجدانه يغادره يوما، فيشعر بسلام يعاود به الحياة التي أقفلت أمامه دروب سلام القلوب والأرواح، ولصدق ما كان يكتب لامست كلماته القلوب ليصبح اسم (نديم الهجر) حديث محافل الشعر، ولم يعرف أحد من هو (نديم الهجر) سوى "نايف".

ذهب "خالد" إلى مكتب "نايف" يوما لمناقشته في أمر ما، فأخبرته السكرتيرة أنه في اجتماع، فجلس ينتظر.

خرج "نايف" من مكتبه لسبب ما، فرآه جالسا ينتظر، فعاتبه لانتظاره، وقد أخبره مرات كثيرة أنه لا حدود ولا رسميات بينهما، لكنه يعلم أخلاق صديقه، لا زالت بداخله أصالة أخلاق البدو الحاضرة في كل تعاملاته، ثم قال له:

-ادخل معي، فقد جئت في وقتك المناسب.

دخل إلى المكتب ورأى زائر صديقه، امرأه جمالها يشع؛ ليجعل كل ما حولها جميلا، أنثى من ذلك النوع الذي تقف بك لحظة رؤيتها فلا تستطيع أن تتقدم، فتموت على أسوارها، ولا تتأخر فتموت حسرة على

فقدانها، تتملكك رهبة أمام جمالها، فتسلب الألباب وتسبى القلوب، لا تملك أمامها إلا أن تسأل أمن الطين خلقت؟! أم النور؟!

بادر "نايف" بتعريفهما ببعض:

-الأستاذ "خالد" مدير دار النشر، وصديقي وشريكي، الفنانة "مروة" مطربة موهوبة، وسيكون لها شأن في المستقبل.

مدت يدها لتصافحه:

-تشرفنا يا أستاذ "خالد".

فمد يده بخجل استغربته الشابة قائلا:

-الشرف لي يا سيدتي.

بدأ "نايف" الحديث عن أنه عن طريق شركة الإنتاج التي يملكها قد اتفق مع "مروة" على التعاون في إنتاج ألبوم لها وبعض الحفلات التي ستحييها، وأنه يريد أن يقدمها للجمهور في الخليج، وأنه عرف حين التقاها في المغرب وسمع صوتها أنها ستنجح هنا إن وجدت من يهتم بها من حيث الإنتاج والألحان والكلمات، وعند ذكره للكلمات قال موجها حديثه لـ"مروة" وهو يشير لصديقه:

-بالنسبة للكلمات فأنت أمام شاعر سيعرف كيف يختار لك الكلمات المناسبة.

-بإمكانك أن تختار ما تراه مناسبا يا أستاذ "نايف"، فأنا لا أعرف الكثير عن الكلمات واللهجات الخليجية، وأحتاج من يعلمني نطق الكلمات بطريقة صحيحة أولا.

-أنتِ مع الشخص المناسب، فـ"خالد" سيكون معك، ولك الحق أن تختاري من بين الشعراء الذين تعرفينهم .

-لا أعرف كثيرين، لكنني في الطائرة قرأت قصيدة لأحد الشعراء في مجلة عن الأم وقد ابكتني، وأنا أحب الكلمات التي تحرك القلوب، فهي سبب مهم لنجاح الأغنية.

-وما كان اسم الشاعر؟

-لا أعرف بالضبط، ولكن ..

مدت يدها في حقيبتها لتخرج هاتفها، نقرت بأصابعها على شاشته ثم ناولته لـ"نائف"، وهي تقول:

-هذا هو .

نظر "نايف" في شاشة الهاتف قليلا، ثم التفت إلى "خالد" مبتسما:

-الشاعر (نديم الهجر) هو صديق "خالد"، سيختار لك من قصائده، وهو بالفعل يكتب كلمات جميلة وقد غنى له عدد من المطربين.

-أعرف ذلك، فقد قرأت عنه فيما بعد، وأعجبتني كلماته جدا.

ثم التفتت ناحيه "خالد" لتسأله:

-هل هو صديقك يا أستاذ؟

-هو أقرب أصدقائي.

-هل توفيت أمه قريبا؟

-نعم، ولذلك كتب تلك القصيدة عن فقدان الأم.

-كم تأثرت بها، فأنا الأخرى فقدت أمي منذ سنين.

-رحمها الله.

-صدقا أتمني أن أقابله يوما.

-سأتحدث معه، وأختار لك قصائد لشعراء آخرين لتختاري منها ما يناسبك.

-شكرا للطفك يا أستاذ.

-العفو سيدتي.

أخبرهما "نايف" أن عليهما التنسيق فيما بينهما للانتهاء من اختيار القصائد؛ ليتم الانتقال إلى المراحل التالية.

في الموعد الأول التقيا على أنه موعد عمل، ولم يعرفا أنه من تلك المواعيد التي يدبرها القدر لتلتقي فيها مسارات لم يظن أحد أنه من الممكن أن تلتقي يوما، موعدٌ دبره القدر لتعرف هي شيئا لم تتوقعه، وليعرف هو شيئا لم يكن له حتى أن يتخيله، موعد دبره القدر ليقول

لطرفيه: إن التقاء مساراتكما اليوم ليس مصادفة أو لقاء عمل فحسب، بل هو تقاطع مسارات كونية، مررتما بها يوما، تلامست وتباعدت، التقت وافترقت، وأنتما لا تعلمان، واليوم ستتقاطع وأنتما تعلمان.

أحضر لها الكثير من القصائد التي أعجبت بها، وما أعجبها أكثر شغفه الذي يتحدث به عن الكلمات، واقتناعه الذي يحدد معانيها، والأهم من كل هذا إيمانه الواضح بما يفعل، لم تر في حديثه ما يشي بأنه مدير عمل، بل إنسان يتحدث، وشاعر يطوع الكلمات، وكان ذلك ديدنه في كل حوارهما، إلا أنه عندما كان يتحدث معها عن قصائد (نديم الهجر) رأت بوضوح أنه يتحدث عنها بقلبه، ويفسرها بروحه، حتى كأنه هو من كتبها، وهي الفنانة المرهفة التي تعرف لغة القلوب سألته:

-هل (نديم الهجر) صديقك فعلا؟

-وما الذي يدعو لأن تشكي في ذلك؟

-لا أشك أنك تعرفه، بل أراك وأنت تتحدث عن قصائده كأن ما بينك وبينه أكثر من الصداقة.

-أنا صديقه المقرب.

-بل أنت هو.

-لا، ليس كذلك.

-بل أنت هو، وأراهن على ذلك.

-وما الذي فضح أمري؟

-الروح التي تتحدث بها الكلمات، هي ذات الروح التي تكتسي كلماتك حين تتحدث.

-أتمنى ألا يعرف أحد غيرك.

-أعدك أن يكون هذا سرنا.

صار الحديث بعدها أكثر ودية، حكت له عن أمها، وسمعت أيضا حكاية أمه، فزاد هذا الألم المشترك علاقتهما ارتباطا، فالهموم الإنسانية المشتركة تقرب القلوب من بعضها، وعندما تتحدث القلوب فحديثها يكون عابرا للهويات، تزيح الحواجز النفسية بين البشر لتتواصل مع بعضها البعض، بصفاء صادق يجعل ارتباطها أشد وثوقا وأقوى.

حكت له أنها وجدت في طيبة قلبه وصفائه أشياء، ذكَّرتها بصديقة يمنية اشتركت معها في برنامج موسيقي، بل كانت كأختها، إلا أنهما افترقتا ذات يوم بعد أن فازت تلك الصديقة في البرنامج، فسألها:

-وهل كان فوزها هو سبب فراقكما؟

-لا، لا لم يكن ذلك السبب، بل لسبب آخر لا أريد أن أتذكره، فقد مر على ذلك زمن، ونسيت الأمر برمته، إلا أنني تذكرتها اليوم عندما رأيت فيك أشياء تذكرني بها.

-وأين هي تلك الصديقة اليوم؟

-لا أعلم أين هي بالضبط، لكنها قد أصدرت ألبوما أو ألبومين، ونجحت في مسيرتها الفنية حيث ساعدها زوجها المنتج الشهير.

-وما اسمها؟

-"أزهار".

بمجرد أن نطقت الاسم توقف اندفاع الحديث، رحل محدثها بكل حواسه إلى مكان آخر فقاطعت "مروة" الصمت المفاجئ لتسأله:

-هل تعرفها؟

-لا، كنت أعرف أنها تغني، لكنني لم أعرف أنها تزوجت.

أوحى الجواب لـ"مروة" أن وراء كلماته قصة، أرادت أن تعرفها بفضول الأنثى، لكن العلاقة بينهما لا تسمح لها الآن باجتياز الكثير من مساحات الخصوصية، ستعرف يوما سر شروده، ما تعرفه هي اليوم أنها وجدت فيه صديقا ترتاح له، صديقا يحاور فيها الإنسانة، يتحدث إلى "يامنة" لا "مروة"، صديقا يتسامى عن الماديات وأجسادها، يتحدث عن الأرواح والسلام، عن الأحلام والأمنيات، طوال حديثهما لم يجتَح بعينيه مساحات جسدها قط ليخبرها كم هي جميلة، بل كان يحدثها وعيناه في عينيها فقط كأنه يسبر أغوار روحها، وأخبرتها عيناه بالكثير دون أن يقوله، أخبرتها أن روحها جميلة حالمة، أخبرتها أن نبضات قلبها تغريدة حب أزلية.

في نبرات صوته صدق يشي بأنه لا يعرف الخداع، وفي كلماته ألم ينبئ أنه لا يمكن أن يسبب الألم لغيره، فتشاركا حكاية شكلت رابطا صادقا بين إنسان وإنسانة، وجدت فيه صديقا ربما تشاركه رحلة حياة، تكتب كلماته مشاعرها، وتغنيها هي، لكنها تراه الآن قد غادر المكان، وبقى أمامها جسدا فقط، ترك الأوراق المتناثرة وساد الصمت المكان، فعذرت شروده الذي لا تعرف سره، واستأذنته بالرحيل على أن يلتقيا في وقت آخر.

أما هو فقد ظلَّ في مكانه، كان قد سمع أن "أزهار" تغني، وأنها سافرت وراء حلمها، لكنه تعمد بدوافع يعلمها وبخوف لا يعرف سببه ألا يسمع عنها يوما، هو لم ينسها، ولم يبارحه وجع فراقها، لكن الوجع كان قد بدأ يخفت، فالوقت يمحو أوجاع القلوب، لا تنتهي مرة واحدة بل رويدا رويدا، وتصبح أخف كلما تناءت الأيام، لكنه اليوم عندما سمع أنها تزوجت قد عاوده الوجع كما يوم فراقهما، وكأن زواجها كتب السطر الأخير في نهايات أمل كان يسكنه دون أن يدري.

أَمِلَ أنها ربما تعود يوما، رغم أنه علم أن ذلك لن يحدث، لم يتزوج، فلم يكن يريد أن يكتب هو نهايةَ الأملِ القاتلةَ، ترك بوعي و بلا وعي باب قلبه مواربا، لعل نسمات من الحنين تهزها يوما فتعود، لم يكن يريدها أن تعود فتجد أبواب قلبه مغلقة، لكنها اليوم مَن أغلقت أبوابها في وجهه إلى الأبد، منذ اليوم الأول لم يجرؤ أن يعود، لكنه راهن على تلك

الأقدار التي كتبت لقاءهما الأول، علها تكتب لقاء آخر فردد بألم: (كيف استعطت أن تتزوجي يا "أزهار"؟!).

في لقائه بـ"مروة" كانت الأقدار حاضرة، لتبلغه أن "أزهار" قد رحلت إلى حيث لا يُرجى أن تعود، وكانت حاضرة لتبدأ حكاية أخرى كتبت فيها "أزهار" بدايات سطورها أيضا، فعندما جاء للقاء "مروة" اليوم لم يكن أكثر من لقاء عمل كما حدث من قبل، حيث التقى قبلها بمطربات أُخريات، تحدث معهن في حدود العمل وانتهى الأمر.

لماذا تبدو هذه الفتاة مختلفة؟! هل لأنها التقت "أزهار" تلبست روحها؟ أم لأن روحها مختلفة لذاتها؟ فقد تعلقت بشعره قبل أن تراه كما عرفت أنه (نديم الهجر) من دون أن يخبرها، يشعر بارتياح لحديثها، وكأنه يعرفها منذ زمن، وفوق كل شيء لديها ذكريات مع من كانت صديقتها وكانت حبيبته، وسيسألها يومًا (هل حدثتك "أزهار" عن "خالد"؟).

بدأت اللقاءات بينهما تصبح أكثر ودية، شعرا بالارتياح لبعضهما، فنانة وشاعر تشاركا حكايات كثيرة، وجدا فيها متشابهات أكثر مما كانا يظنان، حكايات عن قريتين تشبهان بعضهما كثيرا رغم بعد المسافات بينهما، بل أنهما في قارتين مختلفتين، وعلى شواطئ محيطين بعيدين، قريه الجبل في دهاليز جبال بعيدة في اليمن، وقريه لغراس بين جبال شرق المغرب، حكاية قريتين وأغنامهما، وبساطة عالميهما، حكاية ألعاب من الأعواد والحصى، حكاية عن حملان الصغيرة "يامنة"،

وحكايـة عـن عصـافير "خالـد" التـي فـرت مـن قفـص الحطـب، حكايـة طفولتين متشابهتين تماما، رغم الاختلاف، ليصبح الارتياح بينهما ودا فيمازحها:

-ربما قريتكم كانت أصلا في اليمن، وتم نقلها كاملة إلى المغرب.

فترد ضاحكة:

-وربما العكس، فأنت شاعر لأنك تلبست شاعرية قريتنا وجمالها.

فيضحكان سويا لتسأله:

-لماذا أنت مختلف عن الآخرين؟

سؤال ذكره بذات السؤال الذي سألته "أزهار" يوما ليخبر نفسه: لا شك أنها تلبست ما هو أكثر من روح أزهار فيجيبها:

-وكيف ذلك؟

-لا أعلم، أشعر كأنني أعرفك منذ سنين، وأحلق مع كلماتك إلى عالم آخر.

-ربما لأن كلماتي تنبع من القلب، وربما لأن لك قلبا مرهفا، لذلك يحلق.

-وهل ترى في شيئا آخر غير قلبي؟

ويرد ليتعمد إغاظتها، وهو يعلم ماذا تقصد:

-مثل ماذا؟

فتغضب قائلة:

-مثل جمالي، ألا تراه؟!

-بلى أراه.

-فلمَ لم تتحدث عنه يوما؟

-لأنني اعتدت أن أخاطب القلوب يا سيدتي الجميلة.

-وقد أحسنت مخاطبة قلبي حتى ارتوى.

-إذًا سأتحدث عن جمالك.

-وأنا أريد أن أسمع كلماتك عنه، أرني هل تعرف لغة الأجساد كما تعرف لغة القلوب!

-إن وجدت كلمات تقدر أن تصف جمالك فسأقولها لك.

فتنتشي بالكلمات:

-إلى هذا الحد تعجز أن تصف جمالي!

-كيف يصف من على الأرض جمال السماء، وأنت هبة من السماء؟!

فيعتريها خجل لذيذ، حتى في وصفه لجمالها يصفه بلغة أخرى، بكلمات سامية تجعل كل ما سمعته قبلها مبتذلا.

-ألن تكتب فيَّ قصيدة وتصف ما تراه؟

-سأكتبها حين تولد الكلمات، وسأصف بها حتى ما لا أراه.

وحين كتب أسمعها:

يا جمعَ كلِّ المفرداتِ تمهلي

لا تسأليني أصفك، فإن وصفَكِ مطلبي

بل إنني أستأذنك

هل تمنحين قصائدي شرفا بأن تُهدَى إليكِ؟

أزفها مبهورةً

يا ربة الحسنِ الإلهي والجمالِ

....

فلدى سواك سجية للحسن أو حتى اثنتان

ولديك من كل السجايا ما يمثلها لديك

فلترفعي بأناملك

خصل السواد لتشرقي

ودعي سواد الليل يرحل كي يُرى

نورُ الصباح على جبينك مشرقا

مدي خطوط النور حتى تلتقي

قمم القلوب فتنتبه غفواتها

لك تنحني

ردي عليها كي يعود

سحر الليالي السود بعد الانسدال

......

حين التقت نظراتُنا

وقرأتُ بين سوادها

وبياضها أن العيون لديك لون مفرد

هو غير ألوان العيون لدى سواك

فلدى وضوحك كل أفراح الحياة وسحرها

ولدى غموضك ما علمت بأنه

حقا لديك عوالم أخرى بداخل مقلتيك

عجزت حروفي أن تفيها حقها

فوصوفها شيء محال

.....

وتكلمي فإذا نطقت

تساقطتْ قطراتُ شهد في الحروف

تعطر الأنفاس يسكر شدوها

بل تنتشي حتى حدود الاختيال

......

وإذا صمت وأطبقت شفتيك

تغدو لوحة مرسومة

كجوارحي نوارس

تمخر عباب الأفق عائدة ترادف بعضها

رسمت خطوط الانحناء بها بألوان الظلال

......

يكفي بأنك إن أدرتِ الرأس عني يمنة أو يسرة

ونظرتُ للعنق الذي عني أشاح

أقرأ هناك حكاية للحسن هاك سطورها

سطرا يقول بأن ما بين النهار وليله

ستر رقيق في جدار مفاتنك

أنت التي له تملكين

سطرا يقول بأنه عقد لنحرك قد خلق

أهدتك إياه السماء

و هناك سطر ثالث متوسط

يخبر بما هو تحته

يفصل حدود الجنتين وخمرها

ويراود النساك مثلي بالكؤوس وإنها

نضجت عناقيد العنب

والآن حان قطافها

ويقول لي خذ من ضفاف الصدر إحداها فقد طالت سنون الانكفاء

واشرب ليزداد الظمأ فتنتهل منها المزيد

وترتشف رشفاتها حتى حدود الارتواء إذا ارتويت

وأنا هنا رغم الحياء ورغم شدة حشمتي

من بين كل موانعي يولد سؤال

....

ماذا إذا قبلتها في مفرق السطرين

أو مرتْ على صفحاتها

شفتاي بالشغف الذي يجتاحني

ونثرت في واحاتها البيضاء حبات الكرز

ماذا إذا استنشقت بعضا من نسائم نحرها

ماذا إذا فاضت غيوض رجولتي وتفجرت

إن قررت أن تنمحي كل السطور

وتنتهي كل الموانع والحدود

ماذا إذا ضاق المجال

.....

تتزاحم الرغبات ينحدر النظر

ليرى انسكابات الخصور وضيقها

ليرى مساحات العبور تحددت

ما بين قوسين أدارا الظهر عن بعضيهما

وتقاربا حد التلامس واللقاء بلا التفات

ليشكلا للحسن تجسيدا

وللأنثى حدودا

حيث يقتتل الرجال

....

وأنا هنا يا جمع كل المفردات سأكتفي

كي يسكن النبض الذي يجتاحني

وتكف أسئلتي وحدة رغبتي

و سأترك الباقي وقد بقى الكثير

وليكتب الشعراء والأدباء والبلغاء والكتاب عما فاتني

وليشهدوا أن الجمال ممالك أنت التي تتربعين عروشها

من دون شك أو جدال

*****

كلمات أشعرتها بنشوة لم تختبرها قط، وصفٌ لجمالها أشعر أنوثتها بارتواء مثمل، بحثت عمن يدق أبواب قلبها، فجعلت كلماته قلبها يخفق طربا، بحثت عمن يلامس روحها، فوجدته يحلق بروحها إلى حيث تسكن خيالاتها، بحثت عمن يجتاح مساحات جسدها بعد ارتواء روحها، وها هو يجتاح كل شيء بهذه الكلمات، كأنه كان معها في القرية عندما كانت تقفل صناديق أحلامها، ها هو يفتحها واحدا تلو الآخر، كأنه يملك مفاتيحها، فتتجسد معه أحلامها واقعا جميلا تراه وتلمسه، ألهمها فغنت كما لم تغن من قبل، كتب لها فوصلت أغانيها للقلوب.

لم تجده يوما مبتذلا أو مترددا بل مؤمنا بكلماته إلـى حدود التشـدد، متمسكا بأخلاقياته إلى حدود السمو.

بدأ الارتياح يصبح إعجابا كلما اقتربت منـه أكثر، ثم تسلل الحب إلـى قلبهـا متجاوزا مساحات الإعجاب والتحفظـات، فبدأت حـالات قلبهـا تتبـدل لتقتـرب منــه، لكنهـا كلمـا اقتربـت وجـدت أن الألـم لا يغـادره، ومساحات كثيرة من الفراغ لا تترك عينيه، حاولت أن تجعله يبوح بسره الذي يتدثر بهذا الألم وتلك الجراح بلا جدوى.

أحسـت أنـه يبادلهـا الإعجـاب إعجابـا، والـود ودا أكبـر، إلا أن مـا يقلقهـا أنهـا لا تعـرف هل بـدأ يحبهـا كمـا تحبـه، تشـعر أن قلبـه مغلـق أمـام الحب إلى الأبد، يتحدث معها عن كل شـيء إلا عن الحـب، يكتـب كلماتـه عن كل شيء إلا الحب.

يقضيان أوقاتهما معًا، فتعلم أنه ليس في حياته امرأه أخرى، وأنـه يعاني من حب قد انتهى، كانت شكوكها تستحثها كي تضطره للبوح، لكن خوفها أن تخسر صديق روحهـا منعهـا، فهـي لا تعلم مقدار عمـق الجـرح الذي في صدره، وإلى أي حد قد يؤلمه نكئه.

تعلم أنه يود أن يحبها، لكن مغـاليق قلبـه ليست بيده، عرفـت وهـي الأنثى أن هناك أنثى قبلها مرت علـى هذا القلـب فقتلتـه، تمنـت صـادقة لـو عرفت من تكون تلك الأنثى فتمزق قلبها وتثأر لقلبه، فمن تلك التـي تقتـل قلبا كهذا؟! وتـهجر روحـا كهذه؟!

* * * *

(18)

"أزهار" الصغيرة الحالمة التي كانت تدندن على أوتار عود والدها، وكان وحده كل جمهورها إن لم يُحتسب سكون الليل مستمعا، ها هي اليوم مطربة تغني على إيقاع عزف فرقة كاملة، ولها جمهور يُسمع صدى صوت هتافاته في الآفاق، حققت حلمها وتعيش فرحة تحقيقه بلا شك، هكذا يبدو المشهد بكل بساطة لمن يراه، إلا أن للأحلام أيضا فلسفتها الخاصة، فما أن يتحقق حلم حتى يولد في إثر تحققه حلم آخر، ثم تتوالد الأحلام من بعضها؛ حلم إثر حلم، ولا تتوقف إلى أن تنتهي حياة الإنسان، مهما بلغ من السنين، ومهما حقق من الأحلام فسيبقى له حين يموت أحلام لم تتحقق.

إلا أن "أزهار" كانت محظوظة، فهي لم تحقق حلما واحدا لتنتظر ولادة آخر، بل حققت أحلاما عدة دفعةً واحدةً، كان القدر كريما معها لأسباب وحده يعرف كنهها، غنت وكان طريقها إلى النجومية مفروشا بالورود، وصلت إلى أعلى مراتب الشهرة، محتفظةً بروحها وشغفها، وعفة جسدها أيضا.

مبتدئة أخرى مكانها كانت لتمر بمعاناة كاملة؛ لتحصل على بداية فقط، كانت ستمر بالكثير حتى تصل إلى أقل مما وصلت هي إليه، بل كانت ستدفع أثمانا غالية لأجل ذلك الوصول، ستدفع ثمن خطواتها خطوةً خطوةً على تلك الطريق، ابتداءً من محاولتها العثور على موضع الخطوة

الأولى، بين مواضع خطًى لا تحصى لكثير من العابرات على دروب أحلام الشهرة والنجومية، وابتزازات على طريق البدايات تدفع مقابلها الأجساد من حرمات عفتها، مرورا بتنازلات نفسية وجسدية تستهلك الروح والجسد.

تكون محظوظة من وصلت ولو جسدا بلا روح، تكون محظوظة من لم تُستبحْ أنوثتها كاملة، وتبقَّى لها منها شيء، وكثيرات مررن بهذه الدروب، وبذلن كل شيء، فعبثت الكلمات الخادعة بقلوبهن، واستباحت الشهوات العابثة أجسادهن، ولم ينلن أحلامهن، لتنتهي بهن خطى تلك الأحلامِ على دروب أخرى في الحياة، دروب تثأر فيها الأحلام التي ضاعت بين شهوات العابثين لأجسادٍ أكثر منها ضياعا، أقصى ما تصل إليه في ثاراتها أنها تقبض أثمانا لعبث آخر ينكأ من جراح الأرواح أكثر مما يُبرئ.

ما اختلف لدى "أزهار" هنا هو تواضع أحلامها، كانت ترى أن الفن رسالة سامية، فلم تكن تبحث عن شهرة أو نجومية، بل أرادت الغناء؛ لأنها تحب أن تشدو من قلبها لتسمعها القلوب، ولم يكن يهمها عدد القلوب التي ستسمعها، ومع كل ذلك لم تكن في منأى عن حتمية مساومات الحياة، عن حقيقةٍ أزليةٍ أن الحياة لا تعطي بلا ثمن، عن رغبات تمتهن شراء الأحلام وبيعها.

في أولى خطواتها وبعد فوزها، وجدت أمامها وحولها "عصام"، رأت في عينيه رغبات تراودها عن أحلامها، ووضع في يديها كل

أحلامها، ووعدها أن يضعها بأحلامها بين النجوم، بمجرد أن تطرف بعينها سيلبي كل رغباتها، وكان بالفعل قادرا أن ينفذ وعوده، فلديه من المال والنفوذ ما يستطيع بهما أن يحول الأحلام إلى واقع في غمضة عين، فسألته:

-وما الثمن؟

-لا شيء سوى أن نصبح صديقين .

ايحاءاته وهو يقول ذلك أفهمتها ما يقصده بكل وضوح، فأجابته بوضوح أكبر:

-من حيث آتي فلا صداقة بين رجل وامرأة .

فيلمح لها:

-إذن لن تحققي الكثير في حياتك.

فتجيبه صادقة بعدم مبالاتها.

-وأنا لا أرغب في الكثير أصلا.

فيضفي على حديثه الترغيب:

-كانت صديقتك "مروة" ترغب في صداقتي، وتتمناها وغيرها الكثيرات، وتركتهن لأجلك وأنت ترفضين!

-ذلك شأنهن، وقد عرفت ما كان بينك وبين "مروة".. تركتها بعد أن أحبتك بصدق وأوهمتها أنك تركتها لأجلي.

-وهل هذا سبب امتناعك عن صداقتي؟

-آلمني أنك جرحتها، وما آلمني أكثر أنها ظنت أنني السبب، وقبل هذا وذاك لدي أخلاق وتربية لا يسمحان لي أن أتعامل معك إلا في حدود العمل فقط.

أمام ردها الحاسم ووضوح كلماتها أيضا، أيقن "عصام" أنه أمام امرأة من نوع آخر، لم يتعود أن ترفضه إحداهن من قبل، وقد دخل مجال الإنتاج ليس لأنه مجال مربح، وليس لأنه بحاجة إليه، فلديه ثروات طائلة، وأعمال أخرى، دخل هذا المجال لأنه رآه مدخلا يلتقي فيه القادمات الجدد إلى عالم الفن، يلتقي فيه الأجساد الطرية الغضة التي تتلمس خطواتها الأولى، يلتقي بالحالمات قبل أن يختبرن الحياة، أولئك اللاتي ترضي براءتُهن نزواتِه، يجد فيهن متعة لا يجدها عند سواهن ممن أينعت الحياة قلوبهن، واستنفدت رعشات رجال آخرين مياه أجسادهن، فتصحرت منابع لذاتِهن.

امتناعُ "أزهار" عنه أو تمنُّعُها - كما يظن - زاده تعلقا بها، بل أصبح بالنسبة له تحديا، يجد فيه متعة، وهو الذي لم تعد تمتعه أشياء كثيرة، رغم امتلاكه لكل متع الحياة، وجد في امتناعها لذة يمارس فيها هواية صيد امرأة، هواية افتقدها منذ زمن بعيد، فكل طرائده توضع على

مائدته بمجرد أن ينظر إليهن بلا عناء، وهو اليوم يرى طريدة تستحق رحلة صيد يشعل بها رغباته، ويثق أنها لن تعجزه، ربما ستتعبه قليلا، لكن لديه أساليبه لنيلها، فهو ينال مبتغاه دائما.

لديه أساليبه المرهبة والمرغبة، ولديه أيضا من يساعدونه في تحقيق رغباته، وهنا سيستعين بـ"صوفيا" أحد أذرع رغباته، رسميا هي سكرتيرته الخاصة، وبحق كما هو مسمى وظيفتها فمهمتها خاصة جدا.

ترافقه دائما، تعرف مزاجه وأوقاته ورغباته، لا يحتاج أن يكلمها لتعرف ماذا يريد ومتى يريد، تختار له العشيقات، فهي تعرف نوعه المفضل منهن، وهي أيضا عشيقته في الأوقات المستقطعة التي لا يكون فيها مع إحداهن، ما يعجبه فيها أنها تفهمه، وتقبل منه كل شيء، وتفعل له أي شيء، لذلك هو متمسك بها.

ينفق عليها بسخاء، ويرى أنها تستحق، فيوليها ثقته وأسراره، مما أكسبها دورا مؤثرا عليه دون أن تشعره بذلك طبعا، لكن الكثيرين من مدراء شركاته والمتعاملين معه يعرفون جيدا مدى تأثيرها عليه، وكثيرا ما يلجأ إليها من استعصى عليه إقناع "عصام" بأمر ما، فتتولى ذلك إن أرادت ورأت أن الثمن سيكون مجزيا، أخبرها "عصام" أنه يريد "أزهار" بأي ثمن، فسألته:

-هل تقصد الشابة اليمنية؟

-نعم.

-لماذا وقد اخترت لك "مروة"؟

-"مروة" من نوع جربته من قبل، لكن "أزهار" من نوع جديد لم أجربه يوما.

-حسنا، اترك الأمر لي.

بدأت "صوفيا" تتقرب من "أزهار"، قدمت نفسها كصديقة معجبة بغنائها، فهي ذكية تعرف كيف تمشي في دروب أهدافها، وكان لذكائها بجانب جسدها وأشياء أخرى تحسن استغلالها الدور الاكبر في أن تسيطر على "عصام"، فهي تستطيع أن تكون كما يتطلب منها الموقف، تعرف متى تتلبس البراءة لتبدو راهبة خرجت للتو من الدير، وتعرف متى ترتدي الرسمية فتبدو سيدة أعمال لها هيبة ووقار، وتعرف متى تلبس ثياب الراقصة فتعري بارتجاف ردفيها أستارَ الوقار، تعرف كيف تخاطب القلوب فتلامس شغافها، وكيف تحاور العقول لتقنعها بمنطقها، وكيف تحدث الأجساد فيسيل لعابها.

صنعت منها الحياة خليطا يجمع بين كل تناقضاتها، خليطًا امتزج فيه فقر طفولتها بمشاعر الحرمان، عنفوان شبابها بعبث من أسلمتهم صدق مشاعرها، اتساع طموحها بقلة مواردها، كل ذلك جعل منها امرأة من أولئك اللاتي يعرفن كيف يجعلن الحياة تدفع أثمان أرواحهن التي فقدنها يوما تحت سطوة الأقدار.

حـددت مسـاراتها وأهـدافها بكـل وضـوح مـع نفسـها، وفـي أحـد مسارات حياتها التقتْ "عصام"، فوجدت فيه كل ما تريد، وجدت فيه اختصارا لمسافات كثيرة وجب اجتيازها لتحقق طموحاتها، تملكت قلبه لفترة، وعقله لفترة أخرى، وجسده لفترة أطول، لكن الأهم أنها تملكت نزواته، وكانت أقوى أدوات تملكها عليه، ولأن الثمن الذي كانت تقبضه منه من جراء علاقاتها به مجزٍ تمسكت به، تقبلت كل طباعه المبتذلة والمتبدلة، بل طوعت طباعها هي لتسير معه كيفما سار، وتتوقف حيثما يتوقف، لذلك بقيت في حياته دائما رغم مجيء كثيرات ورحيلهن.

خاطبت "أزهار" بلغة القلوب لتتقبلها كصديقة وتقبلتها "أزهار"، فهي امرأة مثلها، ولا ضير في ذلك، ثم بدأت تساعد "أزهار" وتوجهها، بل بدأت تعلمها كيف تتعامل مع الحياة الجديدة التي لم تألفها، أصبحت مقربة منها إلى درجة جعلتها تستشيرها في ملابسها وأغانيها، وهنا بدأت "صوفيا" المرحلة التالية من مهمتها، فأخبرتها أن "عصام" يحبها، فوجدت وهي الخبيرة في القلوب أن قلب "أزهار" مغلق أمام الحب، فانتقلت إلى خطاب عقلها:

-سوف يساعدك في مسيرتك، لن تحتاجي لأي شيء وهو بجانبك، ستنتقين أغانيك و تغنين ما تشائين، لن يضطرك الزمن يوما لفعل شيء لست مقتنعة به، بل ستكونين المتحكمة بحياتك ومسيرتك.

بدأت كلماتها تتسلل إلى عقل "أزهار" لتسألها:

-وما المطلوب مني؟

-أن تحضري الحفلات التي يقيمها، وترافقيه كصديقة .

-وماذا سيستفيد من صداقتي ليصر عليها كل هذا الإصرار؟!

-أنتِ ذكية، وتعرفين ماذا يريد .

-نعم، أعرف ماذا يريد منذ اللحظة الأولى .

-ماذا يضير أن ترضيه والثمن سيكون مجزيا؟!

فترد "أزهار" بغضب:

-أنا لا أبيع نفسي، وقد أخبرته ذلك بكل وضوح.

تداركت "صوفيا" الحوار لتلطفه حتى لا يأخذ منحنى آخر غير ما ترغب به:

-لم أقصد ذلك، فبإمكانك أن تضعي شروطك.

-إذا كان يريدني بهذا القدر فلي شرط واحد.

-وما هو؟

-إن أرادني فليتزوجني.

لم تكن "صوفيا" تقصد من حديثها عن الشروط شرطا كهذا، صحيح أنها على استعداد لترضى كل نزوات رئيسها؛ أحضرت له عشيقات كثيرات يعيش معهن فترة، ثم يمل منهن، فتقبضن الثمن،

ويرحلن، أما أن تحضر له زوجة فذلك يتعارض مع مخططاتها هي، كما أن "عصام" متزوج وله أولاد، لكن تلك الزوجة قد كبرت، وهي بعيدة عن حياته، لا تهتم به أو يهتم بها، ولا تسأل عما يدور في حياته، اكتفت منذ زمن بأولادها وأموالها وحياتها، وبمسماها كزوجة للمليونير الشهير، ومع أنها تعرف الكثير عن عبث حياته، فقد أبرمت معه اتفاقا غير معلن؛ لك حياتك، ولي حياتي، ولا مشكلة لـ"صوفيا" معها، أما زوجة جديدة كهذه التي يبدو "عصام" متعلقا بها، فقد تسبب لها مشاكل جمة، ليس بأقلها أن تهدد علاقتها بـ"عصام".

فكرت "صوفيا" مليا، وأوجدت بدائل أخرى لـ"عصام" كي ينسى هذه الشابة، إلا أنه أبى، بل اتهمها بالتقصير، فأبلغته مضطرة أن "أزهار" تطلب الزواج، وعندما فاجأها بموافقته اضطرت أن تنفذ رغبته، آملة أن يكون زواجا عابرا، يرضي فيه نزوته وغروره لفترة ثم ينتهي، وإن لم ينتهِ فهي ستعرف كيف تنهيه في حينها.

تم الزواج، وأقام لـ"أزهار" حفل زواج كالأحلام، قضيا شهر العسل في جولة حول مدن لم تتخيل يوما أنها ستراها، والأجمل أنه ترك كل شيء خلفه؛ ليعيش معها كل تلك اللحظات، وفي تلك اللحظات أمطرها بكلمات حب لا تنتهي، وباهتمام لا مثيل له، حتى شعرتْ بالذنب لسابق ظنونها عنه.

عادا إلى بلده، فأسكنها قصرا بمفردها، حولها خدم وحاشية، لا تفعل شيئا سوى الذهاب إلى استديوهات التسجيل أو المقابلات التلفزيونية، فانطلقت مسيرتها الفنية بسرعة كبيرة.

أضحى الكل مستعدًا للتعاون معها، حتى بدأت تشعر أن نجاحها ليس بسبب صوتها وأغانيها، بل لمكانة زوجها، أزعجها ذلك في البداية، إلا أنها عندما بدأت تعتاد حياتها الجديدة رأت أنه لا بأس في بعض التنازلات البسيطة، مقابل ما أصبحت تعيشه اليوم.

تملكها انبهار اللحظات الأولى ببهرجة حياتها الجديدة وكلما كانت تنغمس في تلك الحياة، تنسى ذلك العالم الذي جاءت منه، وبدا لها بعيدا جدا، لكن بمرور الأيام بدأ يخفت الانبهار، والذي يخفت عادة بالاعتياد، بدأ تفكيرها يصفو لتفكر كيف تنشئ أسرتها الخاصة في ظلال هذا العالم الجميل، كيف تنجب أبناء يخففون وحدتها، ويكملون حياتها، وعندما تحدثت عن ذلك مع زوجها تبدلت أحواله تجاهها، فتحول الاهتمام إهمالا، والحضور غيابا شبه دائم، صحيح أنه أسكنها قصرا، لكنها كانت تريده معها فيه.

بالرغم من كل التغيير الذي حدث في حياتها، وتغير الكثير من عاداتها، إلا أن هناك أشياء فيها لم تتغير، أولها مفهومها عن بناء أسرة، وبرغم كل محاولاتها للتطبع بطباع محيطها الجديد وتغيير بعض العادات، فقد كانت تُغيّر للأفضل، على الأقل ما تراه هي أنه الأفضل، لكن بعض العادات التي تربت عليها أو تلك المتأصلة فيها لم تتغير، ولم

يكن من السهل أن تتغير، فشخصيتها لا زالت ترفض الكثير إلى الآن من طباع مجتمعها الجديد، وكان لابد من صدام بين محاولات تطبعها وأصالة طباعها.

ابتدأ الصدام برفضها غياب "عصام" الدائم عن حياتها، بدأت تسأله و تساءله، وكانت كلما اتصلت به في غالب أوقات اشتياقها إليه ترد "صوفيا" على هاتفه، وتخبرها أنه مشغول، وسيعاود الاتصال بها.

الاتيكيت المفترض أنها تطبعت به أن يكون هذا شيئا مقبولا، لكن أصالة طبعها لم تتقبل، كيف لامرأة ألا تستطيع الاتصال بزوجها متى شاءت؟! وعندما عاد عاتبته على ذلك، بدأ العتاب هادئا ثم غادر الهدوء عتابَها أمام إجاباته التي لا تجيب عن شيء، سوى أنه مشغول دائما، أخذ الغضب يكسو كلماتها معه ليجيبها: "كنت تعلمين عن حياتي، فلماذا قبلت الزواج بي؟!"

ليهدئ مخاوفها أو بالأحرى للفكاك من احتجاجاتها المتكررة، كان يعِدُها مرات كثيرة أن يقلل غياباته، ويتواجد معها أكثر، أحيانا كان يفي بتلك الوعود، فيعود إليها إلا أنه حتى في عودته تلك لم يكن كما أملت.

لم يعد ذلك العاشق الذي أمطر خطواتها بورود الأرض يوم وافقت على الزواج منه، لم يعد ذلك الزوج الذي يشاركها أحاديثها، ويتشارك معها أحلامها، ويخططان معا لقادم حياتهما، أصبح يعود بجسده فقط، ولم يبق من لغة للتخاطب بينهما سوى لغة الجسد، بل تشعر

أحيانا أنه يعود إليها فقط عندما يحتاج لجسدها، وعندما يصبح لقاء الأجساد خاليا من دفء المشاعر ورجفات القلوب، يصبح جافا بلا لذة، ولا انتشاء، يصبح وظيفة بيولوجية تستهلك طاقات روحية هائلة، فتموت لحظات الانتشاء، وتنطفئ جذواتها، وحتى ذلك الاتصال الجسدي بينهما بدأ يتباعد بمرور الأيام حتى أصبح شبه نادرٍ.

على وقع لحظات فراغها الطويلة، وخلو أوقاتها، ووفرة موارد الحياة حولها، بدأت تتساءل لماذا تشعر بكآبه قاتلة رغم نجاحها الفني ورغد عيشها؟! لماذا تحس بأن حياتها تنقصها أشياء كثيرة رغم أنها تملك كل شيء؟! لماذا مقابل كل ما تحقق لها فقدت شغفها بالحياة؟! لماذا رغم كل هذا الترف الذي تحياه أصبحت تشتاق لتلك البساطة التي كانت تعيشها؟! لماذا قلت ملذات حياتها حتى أنها تكاد تنعدم، رغم أنها كانت تجد ملذات كثيرة في أشياء بسيطة في العالم الذي جاءت منه؟! لماذا رغم حياة النجومية والثراء أصبحت تشتاق للحظاتها القديمة على شاطئ البحر؟ عندما كانت تكفيها حبيبات الذرة المشوية لتشعر بأقصى درجات السعادة، لماذا تشتاق للحظات بين جدران ذلك البيت الصغير الهادئ ويزداد اشتياقها له كلما زاد صخب القصر الذي تعيش فيه اليوم؟!

حسمت أمرها مع أفكارها وبحدود مهاراتها ومعرفتها لدور المرأة قررت أن تستعيد زوجها، أن تذكره بوجودها، وأن تخبره أنها لا زالت شابة، لها قلب وروح، أحلام وطموح، وليست فقط إحدى مقتنياته، يلتقط معها صورا للمجلات والمواقع الإخبارية، ولا سيارة من سياراته يعود

لقيادتها عندما يشاء من باب التغيير، فصبت كل اهتمامها عليه، حاصرته بقدر ما كانت تقدر على حصاره، فضاق هو بذلك، ولم تتوقف، فهي من وجهة نظرها زوجته، ولها الحق في ذلك، فاشتكاها إلى "صوفيا" التي ذهبت إلى "أزهار" متقمصة دور حمامة السلام؛ لتتحدث معها، فوجدتها "أزهار" فرصة لتبوح لصديقتها - كما تظنها - ما يحدث بينها وبين زوجها.

شكت لها إهماله، وحكت لها عن ابتعاده، وكصديقة أبدت "صوفيا" تفهما لمشاعرها، وأصغت إلى كل تفاصيل الحكاية، ثم أيدتها تماما ونفخت بكل قوة أنفاسها في جذوات غضب "أزهار"، لتصبح نارا يفر منها "عصام".

أخبرتها أن الرجال لا أمان لهم إن لم تفرض المرأة وجودها في حياتهم، إن لم تحاصر كل تفاصيل حياتهم، إن لم تراقب كل لحظاتهم، وعليها ألا تكرر خطأ زوجة "عصام" الأولى، التي تركته يفعل ما يشاء، حتى أصبح اليوم لا يهتم لها، تلك النصيحة أسعدت "أزهار"، ففي مثل هكذا مواقف يحب الإنسان من يوافقه، من يؤيده، ويظن أنه الصديق الحق، ويكره من يصدقه القول، أو ينتقده، أو يخبره بخطأ رأيه، ويبتعد عنه.

أكد لها حديث "صوفيا" أنها محقة فيما تفعل، فازدادت إصرارا على المزيد من التضييق على زوجها، وكان لـ"صوفيا" في نصائحها مآرب أخرى، فهي لم تنس أن "عصام" أهملها أول أيام زواجه ب

"أزهار"، بل هجر رفقتها لفتره طويلة، حتى كادت تفقده، ولم تستعده إلا بعد تعبٍ أنهكها وهي تنسج خيوط حيلها، وعندما ظنت أن "عصام" قد انتهى من "أزهار"، وأزف أوان رحيلها، وجدتها متمسكة به، وتخطط لتستعيده؛ لتبني معه أسرة وأبناء، لتوقف عبثه، ذلك العبث الذي يبقيه بحاجه لها، ذلك العبث الذي إن انتهى فستنتهي مبررات وجودها بجواره، لذلك نصحتها بما تعلم جيدا، وهي التي تعرف "عصام" أكثر من أي إنسان آخر، فدست لـ"أزهار" سم الانتقام في عسل النصح، كي تتخلص من هذه المرأة التي طال مكوثها مع "عصام"، وأربكت الكثير من مساراتها معه.

في غمرة الهموم التي تخنق أنفاسها، كانت "أزهار" تجد لها متنفسا عندما تغني، فتنسى إلى حينٍ مشاغلها، أحيت حفلات ناجحة، وأصبحت مطلوبة لحفلات أكثر، تحدث الكثير من النقاد فأشادوا بها، وبقدر شعورها بالفرح لنجاحاتها آلمها أنه لا يوجد حولها أحد تشاركه تلك اللحظات، وبقدر ما كانت تشعر بالسعادة عندما تقرأ ما يكتب عنها كانت تحتاج بذات القدر وأكثر من تشاركه سعادتها، وهكذا هو الإنسان بتركيبته البشرية، يحتاج دائما من يشاركه لحظات الفرح والنجاح، فيغدو للفرح طعم ألذ وللنجاح معنى وروح.

قررت أن تعود إلى منابع الصفاء، أن تعود إلى عدن؛ لتزور أهلها، لتستنشق نسمات بحرها، ليتجدد صفاء روحها، أرادت أن تخطو أقدامها على آثار خطوات طفولتها؛ لتستعيد ذاتها، أن تصغي السمع

للحظات الهدوء؛ ليصفوا تفكيرها، أن تجدد ذكريات أحلامها؛ لتصنع أحلاما أخرى تجعل لقادم الحياة روحا ومعنى، أن تلتقي نوارس البحر؛ لتعلمها كيف تجدد الفرح رغم اغترابها وتعدد موانئها، أن تلتقي بأبيها البحر؛ ليعلمها كيف تصارع أمواج الحياة، أن تحتضن أمها الطبيعة؛ لتعلمها كيف أن النساء أكثر صبرا من الرجال، وعلى جبال صبرهن تنكفئ صاغرة عواصف الهموم.

بعد زياره جددت ألقَها، وأحيت شغفها، وأعادت إليها الكثير من "أزهار" التي افتقدتها وهي تجتاز الكثير مما لا تعرفه ولم تألفه، حلقت لتحط رحالها في محطة من محطات القدر التي يرسم مسالكها، في دبي حيث ستحيي حفلتها الأولى في تلك المدينة التي سمعت عنها الكثير، فأصبحت كأنها تعرفها، لكن ما لم تسمعه أن دبي يسكنها الكثيرون ممن رحلوا عنها يوما دون وداع.

❋ ❋ ❋ ❋

(19)

هناك اعتقاد يكاد أن يصبح حقيقة مطلقة في ذهنية الرجل، أن كل امرأة جميلة غير ذكية، وينقصها أشياء كثيرة، ليس بأقلها المشاعر، والحقيقة أن ذلك الاعتقاد ليس حقيقة مطلقة، ولا حتى نسبية، بل هي صفة غالبة؛ لذا يصعب تصنيفها، الذي يحدث أن الأنثى الجميلة بوعي وبلا وعي تكتفي بجمالها عن أشياء كثيرة، إذ تعتقد أن جمالها يكفي لمواجهة الحياة، فيندر أن تهتم بالتعلم، أو اكتساب المهارات، وتكتفي بمقدار ذكائها الفطري إن وجد، ولا تكلف نفسها حتى تطويره، فهي تشعر بأنها ليست بحاجة إلى تطويره، ولا تهتم باستخدام مشاعرها؛ لأنها ليست بحاجة لذلك كما تظن، فسيأتيها جمالُها بالكثير من الرجال، لتختار من بينهم، ولذلك الاختيار المبني بلا معايير سليمة - التي لا تملكها بعد أن أوهمها جمالها أنها لا تحتاج لامتلاكها - عواقب سيئة غالبا، فقلما تجد جميلة وفقت في اختيار الرجل المناسب لها.

أن تمتلك المرأة الجميلة الذكاء مثار للدهشة، فخليط من الجمال والذكاء يكون رائعا، يملك قوة السحر في اجتياز دروب النجاح، الإعجاب بجمالها والاحترام لعقلها يفتحان أمامها طرق المجد لا النجاح فقط، ويستغرب أيضا أن تملك الجميلة من المشاعر سوى الغرور، لكنها عندما تمتلك مشاعر جميلة ترتقي عن الأرض، وتضفي أحاسيسها على جمالها ألقا سماويا، فتزدان الأرض بوجودها عليها، ولنا أن نتخيل ذلك ونحن نسمع شاعرة جميلة تلقى كلماتها بإحساس، أو فنانة فاتنة تغني،

يصبح للكلمات وقعًا يطرب القلوب، ويآسر العقول، وبين كل هذه الحقائق أو أشباه الحقائق في حدها الأدنى يظل أغلب من يمتلكن الجمال يرتكبن ذات الخطأ، فيكن جميلات بلا عقول، فاتنات بلا قلوب، فيصبح جمالهن - مصدر قوتهن في نظرهن - أكبر نقاط ضعفهن، ومصدر استغلاهن، يصبح نقمة تكدر عليهن صفو حياة هنيئة هادئة.

وفوق كل هذا وذاك هناك حقيقة غائبة واعتقاد حاضر دائما، الحقيقة أن المرأة هي إنسانة في داخلها كيفما كان شكلها الخارجي، وبمقدار مهاراتها الذاتية ومؤثرات محيطها يتحدد مدى ظهور الإنسانة التي بداخلها، فيكون ظهورها أحيانا واضحا لا نحتاج سوى النظرة المجردة لنراه، وأحيانا أخرى يحتاج لظهورها حوار إنساني آخر يخرجها من مكامنها، والاعتقاد الحاضر دائما أن كل جميلة هي جمال شكل بلا عقل أو قلب، وهذا بالضبط ما كانت تعانيه "مروة"، هكذا نُظر إليها منذ أن بدأت تنفح ثمار أنوثتها، وتنضج مقاطف فتنتها، وتتشكل تضاريس جسدها، فكل ما كانت تسمعه أنها جميلة، حسناء، فاتنة.

فتنتها تلك الكلمات في بواكير شبابها، أشعرتها بالرضا، لكن ذلك الشعور تحول إلى سخط واشمئزاز أحيانا، ليس لأن جمالها كان سببا لبيعها ودفن أحلامها، بل لأن ذلك الجمال أعمى العيونَ أن ترى فيها حقائق أخرى، حقائق أهم بالنسبة لها، كذكائها الفطري التي اجتازت به دروبا صعبة في الحياة، أو أن يرى أحد كم هي موهبتها عظيمة،

ومشاعرها مرهفة، أن يرى فيها الفنانة التي تسحرها الكلمات، وتطربها النغمات.

لم تسمع من يقول لها يوما "أنت ذكية" لم يقل أحد "إنك تملكين من المشاعر ما يفوق جمالك"، لكم تمنت أن يعترف لها محيطها أنها كذلك، ولم تجد في محيطها سوى الاعتراف بأنها جميلة، لا تنكر أن جمالها خدمها في الوصول إلى حيث وصلت، لكن ذكاءها كان حاضرا ليحمي جمالها وقلبها، تركت الكثيرين ممن خدموا مسيرتها يحومون حول جمالها، فلم ينالوا منه ما يريدون فيكفوا، ولم تقطع مطامعهم ليعفوا، ذكاؤها جعل من جمالها فاكهة محرمة، وفي مقابل أماني اقتطافها نالت الكثير مما أرادت.

واليوم ذكاؤها يخبرها أيضا أن هذه الفاكهة أصبحت بحاجة إلى سياج أمان أكثر من أي وقت مضى، يحمي نضجها إلى حين يحدد قلبها أنه قد آن أوان قطافها، وإن لم تجد سياجها فستقطفها رغبة عابث، أو سطوة حاجة، وإن سلمت من هذا وذاك فستنتهي بالذبول والسقوط على الأرض، فلا تصلح بعدها للأكل، ولا تستحق الالتقاط .

بدأت تبحث عن سياج يحمي شغفها، وعن قلب يؤويها، فقد وصلت في مسيرتها إلى حيث لا يمكن أن تراوغ أكثر، وصلت إلى مفترق طرق؛ إما أن تستثمر جمالها، وتقدم تنازلات لتتقدم، ثم تترك بعدها لفنها الذي تؤمن به أن يقرر مكانها الذي تستحق، وكان هذا الخيار يخيفها لأنها تعلم أنها ستخسر فيه روحها التي هي متأكدة أنها سر تألقها،

كان يخيفها أن تطغى الماديات على شغفها الذي هو مصدر إبداعها، وكان خيارها الآخر أن تتوقف، وكان هذا الخيار صعبا أيضا، بل أنه لا يمكن أن يسمى خيارًا البتة، فهي قد وصلت إلى حيث لا يمكنها الرجوع، تركت بيتها وأهلها وقريتها منذ زمن، واجتازت مسافات نفسية ومكانية، تجعل من العودة خيارا غير ممكن.

وفي بحثها عن خيارات أخرى تيقنت أنها لن تجدها في محيطها، فقررت البحث في محيطات أخرى، علها تجد خيارات أفضل، فوجدت من عرفها على "نايف" صاحب شركة إنتاج فني في دبي، حلقت إلى هناك، وبينما هي في الطائرة تقلب صفحات مجلة ما، وجدت قصيدة عن الأم هيضت ذكراها عن أمها، وهي الحاضرة دائما في وجدانها، فلامست أحزانها، تخيلت مشاعر ذلك الشاعر وهو يكتب تلك الكلمات، فتمنت أن تلتقيه؛ لتخبره عن مشاعرها فيكتبها، فإذا بأمنيتها تتحقق منذ اليوم الأول لوصولها.

كانت تبحث عمن يحدث قلبها، فوجدته يوقظ في قلبها أحاديث مختلطة بالألم والأمل بما يجعل من هذا الخليط أكسير يحيي القلوب، كانت تبحث عن شغف روحها وإلهامها، فاستمدت إلهامها من صفحات عينيه التي تقرأ فيها أسمى سطور الإلهام، وكلما قرأت في كتاب عينيه، وجدت نفسها تود أن تستزيد، استمدت شغفها من ابتسامته، وهي تعلم أنه يبتسم لأجلها رغم دموعه الحائرة في مآقيه.

سألته يوما:

-من علمك كيف تبتسم لأجل الآخرين رغم ألمك؟!

-حبيبتي الأولى؛ أمي التي ابتسمت لأجلي عمرا كاملا وقلبها يبكي بدل الدمع دماء.

فتلامس كلماته مواضع وجعها ملامسة تزيد ارتباطها به، وعندما يرى تأثرها، وهو يعلم أنها فقدت أمها أيضا يواسيها:

-اعذريني، لم أقصد أن أثير مواجعك.

فتعود لتسأله متأثرة برفْقِه الذي يكتنف مشاعرها:

-من علمك كيف ترفق بالقلوب؟

فيجيبها:

-حبيبة أودعتها قلبي يوما.. ولم ترفق به، فعرفت كم هو مؤلم وجع القلوب.

فتجد فيه طبيب قلوب، صنع من جراحه بلسما يداوي به جراح الآخرين، فيتنفس قلبها من نسمات كلماته نسمات تملؤه بالحياة، رأت معه الحياة من أعلى قمم نقاء القلوب، ومن سماوات صفاء الأرواح.

لم يكتفِ بإظهار إنسانيتها، بالاعتراف بعقلها، باستثارة مشاعرها، ويتجاهل جمالها، بل علمها كيف تصنع من هذه الثلاثية معنى آخر للحياة، معنى أسمى وأجمل، علمها أن العقل يزين الأنثى، فيزفها إلى أعلى مراتب النجاح، أن جمال الروح يرفع الأنثى إلى أعلى مراتب

السمو الإنساني، أن زينة العقل وجمال الروح عندما يُضافان إلى جمال كجمالها يجعلان من الأنثى حورية تمشي على الأرض.

كانت تتمنى أن تبادله القليل مما منحها، أن ترد له جزءًا مما أضافه لحياتها، وحاولت بكل سبلها، قاربته وهي تشعر بالامتنان والحب معا، وفي كل مقاربة وجدت فيه الصديق الملهم، والناصح المخلص، وجدت فيه كل شيء مما أملت أن تجده في رجل يوما، إلا الحبيب لم تجده، بل لم تعثر على بداية تخطو نحوه بها خطوات حب.

لم تملك إلا أن تتساءل: لمَ الحياة ظالمة هكذا؟! لا تأتي بشيء مكتمل، تعطي أشياء وتأخذ أشياء! لماذا لا تقدم الحياة آمالنا كاملة؟! فتتذكر كلمات والدتها "الكمال لله يا صغيرتي".

اكتفت بقربها منه إلى حيث وصلا، وتقبلته كما هو، آملةً أن يأتيها يومًا بأكمله، راجية أن وجودها بجانبه الآن كافٍ حتى يبرأ جرحه، فتكون بجانبه لتحتضنه يوم نزعات جراحه المغادرة، لتدفئه بأحضانها في برد ليل شفائه، واكتفى هو بها صديقة قريبة وجميلة ملهمة، أضفى وجودها لحياته الكثير، فبدأ يستعيد بوجودها حوله أجزاء من روحه وقلبه، ذلك القلب الذي ذكر "مروة" بقلب آخر عرفته، يمتلك ذات الصفات والصفاء لتسأله:

-هل كلكم قلوبكم هكذا؟

-من تقصدين بكلكم؟

-الآتين من اليمن.

-لا أعلم، ولكن ربما لبساطة حياتنا، وقربنا من الطبيعة تكون قلوبنا هكذا.

-أنت تذكرني بقلب آخر يشبه قلبك.

لم يسألها كما توقعت قلب من، فهو يعرف الرد، ستجيبه: أنه ذات القلب الذي أوجع قلبه، ستقول له إنه القلب الذي منحه كل حبه حتى لم يعد يستطيع أن يحب قلبا غيره حتى قلبا كقلبها، والتي يرى بصدق أنها تستحق، فواصلت حديثها:

-لم تسألني أي قلب!

-لأني أعرف ذلك القلب.

تسأله متحدية بدلال:

-أتحداك أن تعرف قلب من.

فيرد وهو ينتزع كلمات رده من بين أشواك وجعه:

-قلب "أزهار"، وهل هناك قلب غيره؟

فترد باستغراب من الطريقة التي أجاب بها:

-كيف عرفت؟

-أنت حدثتِني يوما عنها.

ولو كان بإمكانه لسألها هل حدثتك يوما عني، فأكملت:

-آه، نسيت، ولكن كلامك يوحي بأنك معجب بها.

-لم أسمع أغانيها أبدا.

بالفعل لم يجرؤ يوما أن يسمع أغانيها أو يقرأ عنها، كان يعلم أن كل مقاربة من "أزهار" ستنكأ فيه جراحه، صمت شاردا فأعادته من شروده:

-عندي لك مفاجأة.

-وما هي؟

-"أزهار" هنا في دبي للغناء في حفلة، وسأذهب لألتقيها؛ لأن لي حديثا طويلا معها، وبإمكانك أن تأتي معي.

أن يذهب ليرى "أزهار" بعد هذه السنين فذلك يعني أن يستشير كل ذرات كيانه ووجدانه ذرة ذرة، أن يسأل ذكرياته هل ستتحمل رؤية ألم لم يغادرها يوما، أن يسأل قلبه أو بالأحرى ظِلَ قلبه: هل بإمكانك أن تلتقى مَن رحلت بذاتك؟! أن يسأل: وجعه هل بإمكانك أن ترى أين ولدت؟! أن يستشير رجولته التي ثارت يوما لمجرد أن "أزهار" حدثت أحدهم: هل ستتحمل أن ترى "أزهار" وهو يعلم يقينا أن رجلا غيره تنفس أنفاسها، لثم ثغرها، قبَّل نحرها، نهل شهد عذريتها؟! هل يستطيع أن يرى تلك التي كان يغار عليها من نسمات العليل عندما تلامس

خصلات شعرها؟! وهو يعلم أن أنفاس رجل آخر لامست كل ذرات جسدها!

توقفت تساؤلاته التي تدافعت من كل كيانه على صوت "مروة" التي استبطأت رده:

-هل ستأتي معي؟

-نعم سآتي.

جواب تفلت من بين زحام تفكيره، وكأن كل أجزائه التي استشارها، والتي لم يستشرها، أخبرته أن عليه أن يراها، كأن كل شيء فيه كان يود أن يراها، تداعت فضول أشيائه لترى كيف غدت أشياؤها بعد سنوات من الغياب.

أخبرته "مروة" أنها ستذهب قبل الحفل لتقابلها، فهي تريد أن تخبرها أمرا ما، وقد اشتاقت للقائها، فسألها:

-ألم تكوني غاضبة منها؟

-بلى، ولكنني قد سامحتها.

-ما شاء الله، أصبحت متسامحة.

-تعلمت منك، وسأسامحها لأجلك.

فيخاطب نفسه ليتني أستطيع أن أسامحها أنا أيضا لأرتاح، لأستطيع أن أحبك.

-حسنا وأنا سأذهب إلى الحفل.

-ولم لا نذهب سويا؟! سأعرفك بها، وستعجبها كلماتك، فأنا أعرف ذوقها واختيارات أغانيها وربما يحدث بينكما تعاون.

-لا داعي لذلك، اذهبي أنت إليها، وسأنهي بعض الأعمال وآتى بعدها إلى الحفل لنلتقي هناك.

*****

التقت "أزهار" بـ"مروة" فوجدتها لم تتغير كثيرا، عاتبتها "أزهار" على رحيلها من دون وداع، فاعتذرت "مروة" وأخبرتها عن "عصام".

أقسمت "أزهار" أنها لم تكن لترضى أن تخسر صداقتهما لأجله أو لأجل أي شيء، وأن ما حدث لم تكن تعلم عنه شيئا إلا بعد رحيلها، "مروة" أيضا أكدت لها أنها غير غاضبة منها، واسترسلت في حديثها عما عرفته فيما بعد عنه، ثم استدركت قائلة:

-سامحيني يا صديقتي على الكلام الذي تفوهت، به فأنا أعلم أنه زوجك، وأتمنى لكما التوفيق.

-وأنا أيضا أتمنى لك كل خير، وقد اشتقت إليك لكني لم أكن أعلم أين ذهبت.

-ذهبت إلى مصر ثم المغرب، والآن أنا في دبي كما ترين، ما زالت مسيرتي متعبة كبدايتها.

ثم أكملت ضاحكة:

-لم أكن يوما محظوظة مثلك.

-لو تعلمين ماذا أدفع من أثمان لما تسميه حظا!

-والناس يحسدونك على ما أنت فيه.

-لأنهم لا يعرفون ما أعانيه.

-وكيف زواجك؟

-الحديث عنه يحتاج لوقت أكثر، سنتحدث لاحقا، فأنا الآن أحتاج صفاء ذهن كي أتمكن من الغناء، المهم أنني رأيتك، حدثيني الآن عن أشياء جميلة كتلك التي كنتِ تحكينها؛ كي أدخل في نفسية مناسبة للغناء.

-لازلت أبحث عن الحب يا صديقتي.

فتضحك "أزهار":

-إلى الآن لم تجديه!

-بل وجدته، ومع يمني مثلك يذكرني بك في أشياء كثيرة، وهو سبب مجيئي إليك اليوم.

-لماذا؟

-علمني أنه بالتسامح وصفاء القلوب تعيش الأرواح في سلام.

-وهل يحبك هو الآخر؟

-إلى الآن لا أعلم يا صديقتي، يبدو أن في قلبه جراحَ حبٍ لم تبرأ، أراها في كلماته وشعره، فهو شاعر، لكنني سأداوي تلك الجراح وأشفيه.

-أنت قادرة على ذلك بجمالك ومشاعرك، وكيف لمثلك ألا يحبها شاعر؟! ولكن احذري من قلوب الشعراء يا صديقتي، فهي ليست كما تبدو، قلوبهم قاسية وظالمة.

-من كلامك يبدو أنك قد جربت حب الشعراء!

-أحببت واحدا منهم، وهو الذي أخبرتك عنه، ولم أحب أحدا غيره، لم أنسه إلى اليوم، وكل محاولاتي لنسيانه تذكرني به .

-هو مختلف وسأعرفك عليه فربما تتغير نظرتك عن الشعراء.

فتضحك "أزهار" ضحكة خفيفة بمرارة لترد:

-هناك أشياء لا تستطيع السنون تغييرها يا صديقتي، لكني سأقابله لأعرف من الذي تملك قلبك المغرور هكذا.

بحثت "مروة" عن "خالد"، فقد كانت تتوقع أن يكون في الصفوف الأولى قريبا من المسرح كما اعتاد في حفلات كثيرة، بحكم

علاقاته في الأوساط الثقافية والفنية، ولما لم تجده هاتفته لتجد أنه جلس في زاوية بعيدة مظلمة، طلبت منه أن يأتي للأمام فرفض متعللا بأن هناك أشخاصًا لا يود أن يلتقيهم فجاءت هي لتجلس بجانبه.

صعدت "أزهار" على المسرح فصفق الجمهور للمطربة، وصفقت "مروة" لصديقتها وزميلتها، إلا "خالد" لم يقف، لم يصفق، لم يبدِ أية ردة فعل ظاهرة، فقط نظر إلى من كانت حبيبته، وما أن نطقت أول كلمات أغنيتها، حتى حلقت به ذكرياته إلى ذلك الصباح البعيد تحت شجرة الأثل، حيث سمع ذات الصوت، وعندما ملأ عيناه منها، تلاشى كل شيء حولها ليراها هي فقط، كما تلاشى كل شيء ذات مساء في عرس حدث منذ زمن في قرية الجبل الصغيرة، ذات الإطلالة، لا زالت هي "أزهار" نفسها لم تغيرها السنون كثيرا، سوى أن بريق عينيها قد خفت، وصوتها فقد عذريته.

كل حركة كانت تفعلها المطربة "أزهار" على المسرح كانت تأخذه الى أماكن تلتقي فيها ذكرياته بالحبيبة "أزهار"، كل شيء يراه اليوم يسافر بذكرياته إلى أماكن كانت شاهدة على لحظات حب عاشاها معا، تذكر وهي ترفع سبابتها لتمسح حاجبها عندما كانت تفعل ذلك وهي تغني له وحده على شواطئ (الجولد مور)، إغماضة عينيها وإيماءتها لا زالت كما يعرفها، ليذكره ذلك ببيت شعا قرأه يوما لمجنون ليلى:

لم تزل ليلى بعيني طفلة .:. لم تزد عن أن أمس إلا إصبعا

من يرى شروده عما حوله يظنه مستمتعا بأغاني المطربة "أزهار" على المسرح، لكنه شارد مع "أزهار" وجدانه، محلق بين عالمين بعيدين بحكم الزمان والمكان، بينما هما في ذكرياته عالم واحدا فقط، فـ"أزهار" المطربة التي تقف أمام الناس اليوم، هي "أزهار" ذاتها التي كانت تسند رأسها على كتفه لتغني، وبين المكان الذي هو فيه الآن والأماكن التي حلقت إليها ذكرياته في رحلات ذهاب فكره وإيابه ولدت في ذهنه أسئلة كثيرة، كان آخرها وهي تغادر المسرح مبتسمة بعد انتهائها: (من سيحتضن ابتسامة فرحك يا "أزهار")

كما لم يفت "سعدية" - الأنثى القروية البسيطة - فهم نظراته لـ"أزهار" ذات يوم، لم يفت "مروة" اليوم - وهي الأنثى التي تعرف الكثير - أن وراء تلك النظرات ما هو أكبر من نظرات معجب إلى فنانة، لم يكن يبدو عليه أنه يستمع إلى أغانيها، نظر اليها ولم يرفع عينيه عنها، وظل شاردا بفكره طوال وقوفها على المسرح، الشرود الذي تملكه لحظة رؤيتها الأولى هو ذاته لم يكن يتغير عندما تنهي أغنية وتبدأ في أخرى، بل أنه لم ينهض من مكانه ليغادر بعد انتهاء الحفل ومغادرتها المسرح إلا عندما استعادته "مروة" من حيث كان:

-"خالد"، قم فقد انتهى الحفل.

-حسنا لنذهب.

أجاب وهو ينهض، فسألته "مروة" التي بدأت تشعر بشيء من نظراته لـ"أزهار":

-ما رأيك في غنائها؟

-لم أسمعها جيدا.

ردت مستغربة:

-لم تسمعها! إذًا ماذا كنت تفعل وأنت لم تبعد عينيك عنها لحظة؟!

-أقصد.. أنني لم أكن منتبها؛ لأن بالي كان مشغولا بشيء آخر.

-ظننتك معجبا بها.

-لا، ليس إلى هذه الدرجة، ولكنها كانت تبدو رائعة.

-تعال معي إذًا لأعرفك عليها فقد أخبرتها عنك.

فرد بحدة استغربتها "مروة":

-ماذا أخبرتِها عني؟

-لا شيء سوى أنك صديقي، وشاعر من بلدها.

فزادت حدة استنكاره:

-ولماذا أخبرتها بذلك؟!

-هي صديقتي، وقد تحدثنا في أشياء كثيرة؛ أخبرتها أنك تكتب شعرا رائعا، وسيعجبها أن تغني لك.

-أنا وهي لا يمكن أن نلتقي.

لم يكد يكمل جملته الأخيرة حتى غادر المكان، تاركا "مروة" وحدها، الجملة الأخيرة أذكت في هواجس "مروة" شكا، يكاد يكون يقينا، أن لصديقها قصة أكبر مما حكى لها يوما، وتمنت ألا تصدق ظنونها بأكثر من كون "أزهار" ذكرته بشبيهة لها أحبها يوما، لكنها لاحظتْ في الأيام التي تلت الحفل، أن الصمت خيم على حياة "خالد"، تغير كثيرا، أصبح يحب وحدته أكثر من رفقتها، بل أصبح يختلق الأعذار كي لا يكون معها، وهي صديقته المقربة والتي تحبه وإن لم تصرح له بذلك، لكنها لن تتركه هكذا وحيدا، فكما وقف بجانبها ستقف بجانبه، كما شاركها همومها ستشاركه همومه، ولن تسمح حتى له هو أن يمنعها من ذلك.

تعلم أن في قلبه ألما بدأ يخفت بوجودها حوله، لكن حفلة "أزهار" كما يبدو قد أيقظت دفائن مشاعره وألمه مرة أخرى، وفوق كل هذا تريد أن تعرف إلى أين ستنتهي علاقتها به، هي تعلم إلى أي مدى هو مهتم بصداقتهما، أخبرها مرات كثيرة أنها أغلى صديقة على قلبه لكنها تريد ما هو أكثر من الصداقة فسألته:

-باسم صداقتنا أخبرني عنك كل شيء كما أخبرتك كل شيء عني.

-ليس هناك ما لم أخبرك به.

-بل هناك، وأراه واضحا في تبدل أحوالك هذه الأيام.

-هي فقط هموم تعتريني أحيانا كأي إنسان آخر.

-بل هو ألم، وأعرف من أثاره، أعرف أن في قلبك حب امرأة أخرى، ولن تستطيع أن تحب أو تحيا قبل أن يغادر حبها قلبك، ولن يغادر إن لم تبح بما في قلبك.

-كما غادرت هي سيغادر حبها يوما.

-لكنني أراها تزداد حضورا، وإن لم تتكلم عن مشاعرك معي فمع من ستتكلم؟!

-تعرفين أن هناك أشياء لا يستطيع الإنسان الحديث عنها حتى مع أقرب الناس إليه.

-أنت لا تعلم ماذا تعني لي، ويبدو أنني لا أعني لك شيئا.

-ماذا تريديني أن أقول؟ وبماذا سيفيد مثل هذا الكلام؟

-سترتاح، وسأرتاح أنا.

-لماذا تصرين على ذلك؟ اتركي كل شيء بيننا جميلا كما هو .

-لأنني قد بدأت أحبك، وأعلم أنك تود أن تحبني، لكنك لا تستطيع، فلا يزال قلبك رهينة لحبها أخبرني إن كانت لا تزال في حياتك قبل أن أحبك أكثر فينكسر قلبي.

أمسكته من يده التي تؤلمه، لن يرضى بأن يكسر قلبها، أو يجرح مشاعرها، أصبح لزاما عليه أن يخبرها؛ لتعرف وهي قادمة لتطرق أبواب قلبه، فيجنبها خطوات ألم يرى أنها على وشك أن تخطوها.

-نعم أحببت إحداهن.

-أعرف، وأعرف أيضا أنها يمنية، وأن أغاني "أزهار" ربما ذكرتك بها، ولكن أين هي؟!

-صدقتِ، ولكن لم تذكرني بها أغاني "أزهار".

-إذًا لماذا تغيرت بعد الحفل؟

-لأنها هي التي أحببت.

لم تستوعب "مروة" من يقصد فسألته:

-من تقصد بـ(هي)؟

-"أزهار" نفسها هي التي أحببت.

فسألته كأنها لم تتأكد مما سمعت:

-تقصد أن "أزهار" نفسها هي من أحببت!

-نعم هي نفسها.

ثم حكى لها ما استطاع عن قصة "أزهار" و"خالد"، فحكت له أن "أزهار" أخبرتها يوما أجزاء من تلك الحكاية، لكنها لم تتوقع وهي

القادمة من أقصى المغرب العربي، أنها ستلتقي بطرفي قصة حب من أقصى المشرق باعدت بينهما الأقدار، ليس لقاء عابرا فقط، بل لتصبح هي ثالثة طرفي هذه القصة، فأحبتهما من دون أن تعلم، الأولى كصديقة مقربة تعلقت بها لحظة رؤيتها، والثاني كصديق روح حميم على بعد مليمترات فقط ليصبح حبيبها.

عجبًا كيف ترسم الحياة مسارات البشر، تلك الأنثى التي كانت تريد أن تنتقم منها لقلب "خالد"، ليست سوى صديقتها التي كانت تحتضنها للتو، والتي سامحتها لأجله، عرفت اليوم لم حذرتها "أزهار" أن تحب شاعرا، عرفت اليوم لم أغلقت "أزهار" قلبها أمام الحب، وبأشد منها أغلق "خالد" أبواب قلبه أمام الحياة ذاتها، عرفت لماذا كان يقول لها دائما:

-أتمنى أن تستمر صداقتنا جميلة هكذا، وألا يقتل الحب جمالها يوما.

فتساله مستغربة:

-كيف يقتل الحب الجمال وهو الجمال ذاته؟

-بوجهه الآخر.

-وهل للحب وجه آخر؟

فتجيبها تنهدات حرَّى تسابق كلماته:

-الفراق هو وجه الحب الآخر الذي يقتل جمال البدايات.

ما لم تستطع فهمه إلى الآن، لماذا "أزهار" من بين كل نساء الأرض من تتقاطع معها مسارات أقدارها؟!

تصادقنا حتى ظننا أن صداقتنا ستستمر إلى الأبد، ففرضت علينا الحياة صراعا قدريًّا أقرب إلى معركة بقاء، تسابقنا في الغناء وفازت هي، تركني "عصام" لأجلها يوما، وها هي اليوم تغلق ذكرياتُها أبوابَ قلب "خالد" أمامي، ماذا يرى فيك الرجال يا "أزهار" ليتركوا جميلات الأرض لأجلك؟! ما الذي تملكينه ولا أملكه ليتبتل "خالد" في محراب حبك حتى بعد رحيلك؟! ليحبك كل هذا الحب الذي استنفد كل ذرات قلبه! كم مرة ستنتصرين عليَّ يا "أزهار" من دون أن تفعلي شيئا؟! وأخسر أمامك رغم أنني أفعل كل شيء؟! لكن ليس هذه المرة يا "أزهار"، ليس هذه المرة يا صديقتي، إلا "خالد"، لن أترك قلبه مرميا بين أطلالك، سأنفض عنه غبار ذكرياتك بنسمات حبي، وسأرفع عنه ركام بقاياك بأذرع صبري، وسأزرعني هناك حبيبة تكتب على صفحات قلبه حبا جديد.

كان تفكيرها ساميا، وخطابها لنفسها واقعيا وعقلانيا، لو أنها فقط أصغت إليه وعملت به، لكن غيرة الأنثى كانت أشد سطوة على تصرفاتها، بدأت الصديقة اللطيفة تغضب وتعاتب، بدأت تغيب بينها وبين "خالد" أحاديث القلب والروح، فمن تتحدث اليوم أنثى غيور غاضبة، لم تكن هكذا قبل أن تعرف أن "أزهار" هي قصته، وندم هو -

كما كان يخشى - لأنه أخبرها بذلك، وتعلم درسا آخر عن الأنثى لم يكن يعرفه، تعلم أنه لا يجب أن تتحدث مع أنثى تحوم حول قلبك وتبحث عن ظلال تحت جدرانه، عن أنثى كانت تسكن قلبك أو ما زالت، فأنت بذلك تخبرها بكل وضوح أنه لا مكان لها، وإن وجد فهو مكان منقوص ،وستشعر بذلك دوما، وسيكون ذلك مؤلما جارحا قاتلا لقلبها، فالأنثى مهما بلغت من التطور والوعي والفهم، فالغلبة دائما عندها على كل تلك المفاهيم والتطبع لطباعها الغريزية التي فطرت عليها، ستغيب العقلانية أمام العاطفة، حتى لا يعود لها وجود، بل ربما تنقلب كل مشاعرها إلى الضد.

"مروة" التي كانت من قبل مكتفية معه بصداقة جميلة، لا تطلب من صداقتها سوى مشاركة إنسانية سامية، وشراكة فنية راقية، لم تكن تسأل إلى أين ستصل علاقتهما، ها هي اليوم تسأل عن ذلك، بإلحاح بدأ يسيل أصباغ لوحة علاقتهما الجميلة، فتتداخل ألوانها مع سيلانها لتشكل رتوشا لا معنى لها، بالأمس كانت الفنانة المرهفة، تحدثه عن الكلمات والأغاني والشعر، واليوم هي أنثى غيور تحسب نبضات قلبه لمن تنبض، نظرات عينيه أين تنظر، بالأمس كانت تسأله عن الروح والشغف والإلهام، واليوم تعنف قلبه الذي يحتاج من يرفق به لا من يهز مواجعه.

كأن جراحه التي حكاها لها انتقلت إليها، لم يفهم كيف أصبحت جريحة هكذا، هو حدثها بقصته التي حدثت له قبل سنين طويلة من

لقائهما، وأخيرا وكما توقع سألته السؤال الذي كان يراود شفاهها، وكان يتمنى ألا تسأله إياه يوما:

-هل تحبني؟

وعندما لم يجب أعادت صياغة سؤالها ممتزجا بالأمل:

-هل تستطيع أن تحبني يوما؟

هو لم يحسم أمره مع قلبه أصلا؛ ليحسم أمر قلبه معها، وقد زاد سؤالها المشهد تعقيدا، ليتساءل هو بدوره عن الحياة ذاتها، لماذا تتدخل الحياة حتى في الصداقات الجميلة لتعبث بها وتعقدها هكذا، بل ليتساءل عن حياته ذاتها، استبدل عالمه بعالم آخر، ومع ذلك وصل هذا العالم إلى حتمية تغييره، فإلى متى عليه أن يبدل عوالمه؟

في عالمه السابق البسيط خسر "أزهار" لأنها اتهمته بالتخلف، فقرر مدفوعا بجراح كلماتها أن يرى العالم من الجانب الآخر، فتعلم وامتلك المال والشهرة وأحاط بسبل الحداثة من أطرافها، ولم يستعد "أزهار"، ولا يستطيع أن يحب غيرها، ها هو اليوم رغم سيول الحداثة الجارفة من حوله يحن إلى ذلك العالم البسيط، حقق حلمه وأحلام كثيرة توالدت إثر بعضها حتى تمنى أن تتوقف الأحلام، فقد فقدت حتى الأحلام لذتها، وكأن الحياة بمجملها هي متناقضات لا يمكن أن تجتمع سويا.

التكنولوجيا التي تحف حياته اليوم عاجزة أن تعطيه لحظة سعادة واحدة، كان يحصل عليها بمجرد جلوسه لدقائق أمام ذلك التلفاز الخشبي

في القرية، يملك اليوم من المال ما يستطيع أن يشتري به ما يشاء، لكنه مهما اشترى لا يستطيع أن يحصل على سعادة دقيقة واحده كان يحصل على ساعات منها صغيرا عندما يشتري له جده ملابس العيد، والتي كان لفرط سعادته بها ينام محتضنا إياها، يتحرى شروق الشمس ليرتديها مزهوا كمن يملك كل كنوز الأرض.

لا يزال يتذكر لحظات السعادة والانبهار التي تملكته ذات ليلة في القرية عندما رأى تلك الفراشات اللاتي أحلن ليل القرية أغنية فرح اهتز لها قلبه، وها هو اليوم في المدينة التي جئن منها، رأى فيها الكثيرات مثلهن بل أجمل منهن، ولم يعد يشعره ذلك بشيء، وصل إلى أكثر مما كان يحلم أن يكون، ومع ذلك يجد شعورا يعتريه لا يعرف سببه أن هناك ما ينقصه، فيتساءل هل هي طبيعة الإنسان بتركيبته؟ أم أن ما يعتريه حالة خاصة به؟ ربما لأنه فقد الكثير من روحه وقلبه في رحلته في الحياة، ففقد بذلك أحاسيس السعادة ومدارك الفرح، لو كان اكتفى بأن يبقى في القرية وتزوج "سعدية" فهل سيكون أسعد؟ ربما كان ذلك ممكنا، على الأقل لم يكن سيرى في الحياة ما رأى، ولم يكن سيعرف عنها ما عرف.

كان سيكفيه ما في ذلك العالم البسيط، لأن الإنسان كلما رأى وعرف أكثر عن الحياة، تصبح سعادته أصعب إرضاء، وأمام حقيقة كهذه لا يواسيه سوى قناعته أن الحياة هي التي أخذته في دروبها، فلم

تعرض له الحياة خيارات كثيرة، بل لم تعرض عليه خيارات أصلا، أو هكذا يظن على الأقل.

لم يتوقف يوما ليفكر، ليقرر، ليختار، تتبع فقط مسارات قدره المرسومة، وخطى أحلامه وطموحه التي أخذته بعيدا عن ذلك العالم البسيط، مثلما أخذت غيره إلى عوالم أكثر تعقيدا يصعب قراءة تفاصيلها للوصول إلى قناعات أو إجابات، فكيف يكون ما يعيشه حالة خاصة به؟ فحتى "سعدية" أخذتها مسارات قدرها إلى أمريكا حيث أصبح لها هناك أسرة وأولاد في عالم جديد لا يشبه عالمها السابق في شيء.

ربما الفارق بينه وبين غيره أنهم يتقبلون أقدارهم ببساطة، ويعيشونها دون تساؤلات عن تعقيداتها، وهو لا يستطيع ذلك، فهو شاعر يرى كل شيء من زاوية حساسة تكشف عن خفايا كثيره للقدر، وهو طموح، لذلك يجلد ذاته كثيرا، قرأ يوما - لا يذكر أين - أن أكثر الناس طموحا أكثرهم تدميرا للذات، لكنه لا يريد تدمير ذاته، بل يبحث عن ذات يغمرها السلام والرضا، يبحث عن عالم يمنح روحه سلامها المفقود.

المفارقة هنا أنه يملك الكثير من السلام ليمنحه للكثيرين من حوله، وهو أشد الناس حاجة إليه ولا يجده لنفسه، واليوم عليه أن يحدد موقفه مع نفسه، ليعرف ماذا يريد هو من الحياة، ماذا يريد من "أزهار" وقد ذهبت إلى حيث لن تعود، لماذا أحبها ولا زال من بين ملايين النساء؟!

لم تكن له يوما، ترك "سعدية" لأجلها، وربما ما يحدث له اليوم هو انتقام لأقدارها منه، لماذا لا يستطيع أن يحب "مروة" التي يرى حبها جليا على صفحات عينيها وثنايا كلماتها؟! وهي الجميلة التي يذهل العقول جمالها، المرهفة التي يلامس رفق كلماتها شغاف القلوب، الرقيقة التي تمثل أروع تجسيدا لما يمكن أن يطلبه أكثر الرجال تطلبا من أنثى، لا ينكر أنه أعجب بها بل تعلق بها منذ لقائهما الأول، لكن ما لا يعرفه، هل تعلق بها لذاتها؟ أم لأنها كانت مع "أزهار"؟ أم لأنها تشبهها؟! فهو يرى فيها "أزهار"، لكنه لا يستطيع أن يقول لها إنه يحبها بملء قلبه كما قالها لـ"أزهار" يوما، حاول صادقا أن يفعل ذلك لكنه لم يقو على نطقها، هل من الممكن أن يقول لها "أحبك لأني أرى فيك أزهار"؟!

كيف ستطاوعه رجولته ومبادئه أن يكافئ صدق حبها بأن يقول لها ذلك؟ أن يمنحها شبه حب وهي التي لا تستحق إلا حبا كاملا لذاتها، تستحق كيانا بروحه وقلبه وكل ما فيه، وهو لا يملكه، لذلك قرر أن يوقف سيول حيرتها ودفق تساؤلاتها، قرر أن يجنبها ألم خطوات قادمة إلى قلب أُغلقت أبوابه حتى تملكها الصدأ، فتكاد لا تفتح، سيجيبها بصدق كما أجاب "أزهار" ذات يوم، يعلم أنه بصدقه معها قد يخسرها كما خسر "أزهار" من قبل، لكن أي حب ذلك الذي يبنى على كذب المشاعر وزيفها؟! سيخبرها أن ما لديه بقايا قلب وفتات روح، وهي تستحق قلبا وروحا كاملين، ذهب إليها وكان هو المبادر هذه المرة:

-سألتني هل أحبك.

-نعم.

-أحب صداقتك ووجودك في حياتي وما نتشاركه.

-أليس لديك تعريفا أكبر للحب؟!

-بلى، وأعرف أي حب تقصدين، لكنه ينتهي إلى جراح في القلوب، ولا أريد أن أصبح يوما سببا لجرح قلبك؛ لأنني لن أمنحك الحب الذي تستحقينه.

-هل هذا كله بسبب "أزهار"؟

-لا، ليس بسببها، فقد ذهبت إلى الأبد، بل لأجلك أنتِ، أريدك أن تظلي جميلة كما أنت، مشاعرك مرهفة بلا جراح، سعيدة كما أتيت إلي، لن أستطيع أن أمنحك السعادة وأنا أفتقدها، أنت تستحقين أفضل مني، تستحقين رجلا يحبك بكل كيانه، يمنحك قلبه صافيا لتكتبي أنت سطوره الأولى.

-وهل تعتقد أنه من السهل أن أجد قلبا كهذا؟

-ستجدينه.. سيدلك عليه صفاء قلبك، فالقلوب الطيبة تعرف كيف تجد أندادها.

-كنت أريد قلبك أنت.

-صدقيني لو كان لدي لسلمتك إياه بلا تردد، لكنني فقدت قلبي منذ زمن على شواطئ بحر بعيد.

-وإن وجدته يوما؟

-سيكون لك، فأنت تملكين جمال قلب وروح، يضاهي جمالك الظاهري.

-كما أحببت كلماتك قبل أن أعرفك، أحببت فيك اليوم صدقك، رغم ألمي الذي أجد أنه اليوم يرقى بمكانك في قلبي، عرفت أنني غالية عندك؛ لأنك لم تقبل أن تكذب علي أو تستغلني، أخبرتني بكل صدق أنك لا تستطيع أن تجد لي مكانا في قلبك، لكنني أتمنى أن يكون لي مكان في حياتك، أن نظل صديقين نتشارك همومنا وأحلامنا ورحلة إلهام نحن بحاجة إليها.

-أعدك بذلك يا صديقتي الجميلة، فأنت ملهمتي، معك قد بدأت حياة بين أنقاض قلبي، وربما على يديك قد تبرأ جراحي، وفي إبحاري معك قد تعيد الأمواج قلبي لنلتقيه معا.

-وعنما نلتقيه سأكون أشد فرحا به منك.

بقدر ما تألم قلبها أراحه نبله وصدقه، كان أسمى من أن يستغلها، لم يخدعها حتى في أقسى لحظات ضعفها، أخبرها بكل وضوح أنها تستحق من يحبها لذاتها حبا كاملا صافيا، لا منقوصا كحبه لأنه يرى فيها امرأة أخرى.

علمها صداقة الأرواح، ومعا تشاركا رحلة إلهام وإبداع ووفاء، صداقة بين إنسان وإنسانة تسمو بهما فوق كل شيء، ألهمته فكتب لها ما غنته بكل جوارحها فحلقت في سموات الإبداع.

جاءته يوما لتطلب منه قصيدة قرأتها في مدونته فسألها:

-أية قصيدة؟

-قصيدة (قدر أتى)، التي مطلعها "أو تسأليني هل أحبك يا أنا؟ "

أخبرها أنها من القصائد التي لا يريد لأحد أن يسمعها، أصرت عليها، فاعترض:

-لم تصرين عليها؟

-لأنها الوحيدة بين قصائدك التي تتحدث عن الحب، بينما جل قصائدك عن الفراق والهجر.

-اختاري غيرها، فلها ذكرى موجعة لا أريد إيقاظها.

-أعلم أنك كتبتها في "أزهار"، لكنها جميلة ومعبرة، وأعجبتني كلماتها.

لم تقل له إنها تريد هذه القصيدة بالذات لأنها في "أزهار"، لم تقل له إنها بعقلها الواعي تريد أن ترسل رسالة لـ"أزهار" أنها انتصرت عليها في جولة واحدة عندما تغني كلمات كتبت لها، ولم تقل له ولنفسها

إنها في لا وعيها تريد الانتقام من صديقتها، وها هو سيتحقق عندما تسمعها "أزهار"، وفي محاولة أخيرة منه للتهرب من إلحاحها قال:

-كلماتها على لسان رجل، ولا تصلح أن تغنيها امرأة.

ردت وكأنها قد أعدت الإجابة سلفا:

-بإمكانك أن تغير مطلعها كأنني سألتك فأجبتني.

-دعيني أفكر في الأمر.

-فكر كما تشاء، لكنني أريدها لأغنيها لأتخيل أنك أحببتني أنا ولو للحظات، ولن تحرمني من ذلك.

هي تعرف دائما طريقها إلى مواطن ضعف قلبه، لن يرد لها طلبا أمام استعطاف كهذا، وهو يشعر بالذنب تجاهها وإن لم يظهر لها ذلك، ثم فلتسمعها "أزهار" علها تشاركه لحظة من لحظات ذكرياتهما معا، إن تذكرت.

*****

جاءه "نايف" بعد أن حكت له "مروة" ما حدث بينهما معاتبا:

-هل يرفض أحد حب امرأة مثل "مروة"؟

-قلبي ليس بيدي يا صديقي ولا أريد أن أظلمها معي.

-كانت ستنسيك حبك القديم.

-المشكلة أنني أرى فيها حبي القديم، ولم أستطع أن أحبها لذاتها.

-لماذا لا تجرب؟! فالنساء مثل كؤوس الخمر، كل كأس تنسيك ما قبلها.

-ليس بالنسبة لي، فالمرأة عندي كأس مقدسة، لن أشربها إلا على طهر قلبي وصفاء نواياي.

-لن أجادلك في أشياء أعلم أن الأنسان لا يملك أمامها خيارات.

سكت "نايف" الصديق الإنسان ليتكلم "نايف" رجل الأعمال:

-المهم أن تعاونكما معا أنتج أغاني رائعة، وبالذات الأغنية الأخيرة فقد حطمت الأرقام القياسية للمبيعات منذ طرحها، وأصبحت تبثها الكثير من القنوات.

فيرد "خالد" الذي لا يغادر إنسانيته أبدا:

-هي لا تزال صديقتي وملهمتي ، وسأعمل معها لتتألق أكثر.

❋ ❋ ❋ ❋

(20)

حققت "أزهار" نجاحات كبيرة في مسيرتها الفنية، لكن ذلك النجاح الظاهري كان له أثمان تستهلك إنسانيتها، فأصبحت - من حيث لا تستطيع تشخيص الأسباب - شخصيتين متضادتين تماما، وبين نجاحها الظاهري وخسائرها الداخلية حاولت التعايش مع هذه التضادات لفترة طويلة، بانتظار ذوبان تضادها أو خفوته على الأقل، لكن مع الأيام قلت قدرتها على التحمل، وكان لا بد من الصدام بين ظواهرها ودواخلها.

بدأ الألم الداخلي يفرض سطوته على النجاح الظاهري، ليس فقط بسبب شعورها بالألم الداخلي وتبعاته النفسية والمعنوية، بل تضافرت مع ذلك عوامل خارجية ساهمت في خروج الألم منتصرا على كل مشاعر النجاح بشكل جلي.

من تلك العوامل الخارجية بل أشدها تأثيرا، غياب زوجها شبه الدائم عن حياتها، وحضوره النادر الذي لا يفرق كثيرا عن غيابه، قد يبدو كل هذا يمكن احتماله إلى حينٍ على أمل إصلاحه، كان من الممكن للخليط الذي فرضته الحياة عليها بين طباعها وتطبعها أن يساعدها على عبور المرحلة، خصوصا أنها - كما تظن - قد بلغت من النضج ما أصبحت تعرف به جيدا أن لكل شيء في الحياة ثمنًا.

هي لم تنس أن زواجها من "عصام" كان سياجَ أمانٍ حمى أنوثتها، لم يجرؤ أحد أن يبتذل معها يوما، لأنهم كانوا يعرفون من

هو زوجها، ولذلك شعرت بجميل لـ"عصام"، يجب عليها أن تقدره وتحفظه، في الحد الأدنى أن تتغاضى عن عيوبه الشخصية وقد فعلت.

هي أيضا لم تنس أن نجاحها في مسيرتها الفنية كان له الدور الأكبر فيه، فقد أوصلها إلى مراحل متقدمة أبعد بكثير مما كانت تأمل وتطمح، صحيح أن موهبتها وصوتها كانا حاضرين ليعترف لها الوسط الفني أنها تستحق مكانتها التي وصلت إليها، وليس فقط لأنها صاحبة حظوة، لكن تلك الحظوة وبلا أدنى شك اختصرت عليها مسارات طويلة ومتعبة كانت ستمر بها رغم موهبتها، ومقابل هذا كانت أصالة طباعها تفرض عليها أن تبادله المعروف معروفا أكبر، ولأنه زوجها فأول وسائلها لترد له هذا المعروف أن تصون شرفه، أن تكون زوجة جميلة خُلقا وخَلقا، هكذا كان تفكيرها نتيجة لعوامل طبعت شخصيتها وتربت عليها منذ الصغر، لكنها اصطدمت بما لا يمكنها - رغم كل مشاعر الامتنان التي تشعر بها - أن تتقبله فضلا عن أن تحتمله.

لم تر في أخلاقياته ما يكافئ فضيلتها، بل رأت العكس تماما، في أدنى الأحوال يهملها وكأن كل ما تفعله لا يهمه ولا يعني له شيئا، وفي أسوأ الأحوال ينتهك فضيلتها بدواع كثيرة، أولها أن عليها مواكبة نمط حياته الذي هو - من منظورها الأخلاقي - خارج عن الأخلاق تماما، بدأ ذلك الانتهاك بنقد شفاهي جارح لطريقة لبسها قابلته بالصمت، وعندما طال سكوتها بدأ يطالبها بعكس ما تظن أن يطلب زوج من زوجته،

يطالبها بأن تخفف من احتشام ملابسها عندما تظهر معه في الحفلات فتستنكر بحدة:

-تعلمت ألا أبدي مفاتني إلا لزوجي.

فيرد بما يزيد حيرتها ارتباكا:

-وأنا أريد أن أتباهى بجمالك أمام الآخرين.

فتزيدها هذه الكلمات امتعاضا وتشككا، ماذا تكون بالنسبة إليه؟ زوجة تشكل نواة بناء أسرة كما تظن؟! أم عشيقة تحت مسمى زوجة لإرضاء نزوة ستنتهي؟!

هكذا أصبحت المسألة بالنسبة لها أكبر من اختلاف بين طباع وتطبع، صارت مسألة صراعٍ أخلاقيٍّ يضرب في الجذور، ولا مكان لحلول وسط، فإما زوجة واحتشام، وإما عشيقة وابتذال، تناقضات عصفت بعقلها لتتساءل "هل يعقل وأنا الممتنة والمحتشمة خلقا وسلوكا لأجله أن يطالبني بهتك ستار حشمتي؟!".

وشيئا فشيئا وجدت أن ذلك الصراع النفسي الذي يعتمل بين قلبها وعقلها بدأ يؤثر على نفسيتها، فسيطر عليها القلق والاضطراب، والاكتئاب الذي لا يدع لها مجالا لتتنفس فضلا عن الغناء، بدأت مسيرتها الفنية تتباطأ خطواتها إلى أن وصلت لحدود الغياب التام عن الساحة الفنية.

وفـي مقابـل إلحاحهـا ومحاولاتهـا جـره إلـى مفهومهـا عـن الحيـاة الزوجيـة، بـدأ يكثـف ضـغوطه عليهـا ليجرهـا إلـى مفهومـه، ذلـك المفهـوم الذي يشمل الكثير من الحفلات المختلطـة والسـهرات العابثـة التـي يختلط فيهـا عـرْي الأجسـاد بعـري العقـول التـي تنـزع عنهـا كـؤوس الشـراب سـتائرها المتهتكـة أصـلا، فينـتج عـن ذلـك الاخـتلاط اخـتلالٌ أخلاقـي لا ضوابط له ولا حدود.

أكثر ما كان ينفرها من مثل هذه الحفلات أنها كما تبدأ عقلانية إلى حد ما ومنظمة؛ يأتي إليها أفرادها فرادى وثنائيات ومجموعـات علاقـاتهم محددة؛ زوج وزوجته، صديق وصديقته، صديقة وصديقتها، فإنهـا تنتهـي - بعد انتشاء العقول أو بـالأحرى بعد انتهائهـا وغيابهـا - بجنـون لا يعـود معه واضحا من أتى مع من ابتداء، تختلط فيه الجماعات وتتبدل العلاقات أو تتبـادل، ويصـبح الـذين أتـوا فـرادى ثنائيـات تجمعهمـا لحظـات عبـث متجردة من كل شيء له صلة بأي أخلاق، وكثيرا مـا كانـت لا تحضـرها، وإن حضرتها مرغمة لإرضـاء "عصـام" فهـي تغـادر مبكـرة قبـل أن يبـدأ الجنون والعبث، فهي كما لن تقبل على نفسـها أن تنتهـي بهـا لحظـة جنـون فـي حضـن رجـل آخـر تراقصـه، لا تسـتطيع أن تـراه هـو الآخـر محتضـنا أخـرى ليراقصـها، ففـي مثـل هكـذا لحظـات تصـبح تلـك الرقصـات المتحضرة - كما تسمى - أنصاف عملية مواقعة جنسية، لا ينقصها سـوى سقوط تلك الرقع المتبقية على الأجساد لتكتمل.

تنظر حولها فلا ترى في محيطها القريب سوى "صوفيا"، فتجد أنه من الممكن التحدث معها عن مشاكلها مع "عصام" كونها الأقرب إلى الطرفين، فهي متواجدة في حياة "عصام" بصفه دائمة، تبدي "صوفيا" اهتمامها وتفهمها لمعاناتها، لكنها دائما تنصحها بذات النصيحة، بأن تضيق عليه أكثر فتذهب "أزهار" إلى "عصام" لتسأله:

-هل من المكن أن نتحدث؟

فتتلقى منه ذات الرد:

-أنا مشغول هذه الأيام، سنتحدث في وقت آخر.

فتصرخ غاضبة .

-ومتى سيأتي هذا الوقت؟

-عليك أن تقدري النعمة التي أنت فيها، ويجب أن تعلمي أن وقتي ليس ملكي.

فتهدأ قليلا باحثة عن مدخل لبدء الحوار معه:

-وعليك أن تعلم أنني زوجتك، ولي حقوق في وقتك وحياتك .

-وهل قصرت في حقوقك؟

-أنت غير موجود في حياتي أصلا.

-أنتِ التي ترفضين التواجد في حياتي لأنك لا تتقبلينها.

-وهل تسمي هذا العبث الذي تعيشه حياة؟!

-هذا لأنك متخلفة، ولن تفهمي.

فتتوقف عن الجدال معه عندها لتتحدث إلى نفسها: "هل أنا متخلفة لأنني أرفض حياة غير سوية؟! هل تمسكي بأخلافي التي تربيت عليها يعتبر تخلفا؟! ثم هل الانحلال الأخلاقي هو التطور؟ يا الله! يا لسخرية القدر! نفس الكلمة التي قلتها يوما لـ"خالد"، ها هي الأقدار تردها لي، بعد أن ظننت أنني بلغت من التطور أعلى مراتبه، أجد نفسي اليوم في ذات الموقف الذي وضعت فيه "خالد"، يومها وبسبب هذه الكلمة خسرته وانتهى حبنا، وكانت خسارة مؤلمة، واليوم ولذات الكلمة فأنا على وشك أن أخسر زوجا وحياة.

بعد هذا الحوار لم تتحدث معه عن شيء، رحل هو وهدأت هي لتفكر في القادم، وعندما طال غيابه، أرادت أن تلقي حجرا في مياه حياتها الراكدة، ذهبت إليه في مكتبه الخاص مساءً، دلفت إلى ردهة الاستقبال ولم يكن هناك أحد، اتصلت به قبل ذهابها ولم يجب، كان من المفترض أن تعود، فكما يبدو ليس من أحد هنا سوى عامل النظافة، لكنها لا تعلم ما الذي دفعها لتذهب باتجاه مكتبه، دفعت الباب الموارب قليلا لترى هل هناك أحد في الداخل، وتمنت لو أنها لم تفعل.

رأت مشهدا شل كل حركتها، تسمرت مكانها، تمنت أن تنشق الأرض وتبتلعها فلا ترى ما رأت، تمنت أنها نائمة وتحلم فقط، أنها

تتوهم، أنها أي شيء عدا أن يكون ما رأته واقعا وحقيقة، مشهدا لم تتخيل أنها يوما ستراه؛ "عصام" جالس على كرسيه، تمتطي فخذيه "صوفيا" بوضعية مقابلة له، رأسه مدفونٌ في صدرها، منغمسان في لحظتهما إلى الحد الذي لم ينتبها معه أنها واقفة على الباب تراهما.

من قبل كان لديها شكوك أنه يخونها، سمعت ذلك كثيرا من "صوفيا" ذاتها، وأمامها توعدت أنها إن تأكدت من خيانته فسوف تجعله يندم أشد الندم، ستصب عليه كل ويلاتها، لكنها اليوم وهي أمام مشهد حي لخيانته وجدت نفسها عاجزة عن فعل شيء، بل عاجزة حتى عن الكلام، عاجزة عن الحركة حتى بما يكفي للانسحاب من المشهد، للهروب بعيدا عن المكان.

ما فعلته ليس مستغربا منها نتاج البيئة التي جاءت منها، وفي الصورة الأشمل هناك بون شاسع بين شك المرأة في أن يخونها الرجل، وبين يقينها، هناك مفازات نفسية طويلة، وتفسيرات متباينة ومعقدة لا تدركها المرأة، ولا يمكن أن تتعلمها إلا بعد أن تعيشها واقعا.

فعند شكها يظل خيط من الأمل حاضرا يراودها، أنها ربما قد تكون مخطئة فلا تنقطع خيوط أملها ولا تهترئ حبال شكوكها، فتظل معلقة بين خيوط الأمل وحبال الشك، وقد تستمر العلاقة لكنها حتما تصبح بين مسارين لا ثالث لهما، الأول عندما تمتلك المراءة قدرا من العقلانية تقوي خيوط أملها فتبدأ في مراجعة سلوكياتها هي وجوانب النقص لديها، فتصلحها بما لا يدع للرجل مبررا بعدها للبحث عن

نقائصـها لـدى غيرهـا، وتنتهـي هـذه العقلانيـة غالبـا بـأن تسـتعيد زوجهـا وتحافظ عل أسرتها، وتفشل فقط عندما يكون الزوج خائنا بطبعه.

والثاني عندما تتمسك المرأة بحبال الشك فتزيد العلاقة تعقيدا ليبدأ زوجها في الابتعاد عنها أكثر، بل ربما لا يكون خائنـا فـي الأسـاس، لكنـه عنـدما يجد نفسـه متهمـا دائمـا، يصـبح لا فـرق لديـه بـين أن يخـون أو لا، وهنـا تصـبح المـرأة ضـحية شـكوكها، ويصـعب وقتهـا تحديـد مـن المـلام، وبغياب اليقين تصبح العلاقة بين الطرفين علاقة مضطربة ميتة سـريريا، يغدو إعلان إنهائها مسألة وقت ليس إلا.

عندما بدأت الشكوك تراودها بخيانته نظـرت فـي نفسـها، تكمـل مـا رأته قصورا فيها لتملأ عينيه، وبقدر منطقية هذا الخيار وعقلانيته إلا أنـه لم يأت بالنتيجة المأمولة، يكون وقع ذلك على المـرأة أكثـر ألمـا مـن نتـائج الخيار الثاني، عندما لا تقصر المرأة في شيء، وتمنح الرجل كل شـيء، ثم ترى الخيانة بعينها، يموت في قلبها كل شيء، تنتهي مشـاعرها تمامـا، ويصبح خيارها البديهي أمام هذه الخيانة الواضحة أن تنهي العلاقة بشكل فوري، لكن للمرأة أحيانـا مـن غرائـب السـلوك الأنثـوي مـا يحيـر فـي فهـم دوافعه.

هـي فـي وعيهـا مجروحـة مشـاعرها، منتقصـة أنوثتهـا، مطعونـة كرامتهـا، والـزواج بالنسـبة لهـا قـد انتهـى، لكنهـا وبـدوافع اللاوعـي لا ترحل، أو بالأحرى ترى أنها يجب ألا ترحل قبل أن تنتقم، لن تتركـه قبـل أن تسقيه من نفس الكأس.

وبين هذه الدوافع ونتائجها فالتفسير الأقرب أن الرجل عندما يخون زوجته يصنع منها مشروع خيانة شاء أم أبى، عرف أم لم يعرف، رغم أن الكثير من الرجال يخون، ويظن واهما أن زوجته لن تعلم، متجاهلا حقيقة فطرية، هي أن باستطاعة الأنثى أن تشم بمدارك تفوق حاسة الشم العادية رائحةَ الأنثى التي تمر على جسد زوجها، باستطاعة الأنثى - مهما كان مستوى وعيها وفقط لأنها أنثى - أن تقرأ الصفحات المخفية في عيني شريكها، تستطيع أن تمسح تضاريس جسده؛ لترفع من عليها بصمات تركتها أنثى أخرى، ومهما حاول الرجل أن يبرر لنفسه أسباب خيانته، إلا أن ذلك لا يغير من حقيقة كونه قد انتهك قدسية رباط العلاقة المقدس، وهتك خصوصية الرابط العاطفي السامي.

تبقى هناك عوامل خاصة بالمرأة قد تمنعها من أن تبادله الخيانة، عوامل دينية ومجتمعية وأخلاقية يختلف تأثيرها، لكن دوافعها الداخلية التي تسكن اللاوعي، وفرط شعورها بالجرح والانتهاك الذي قوبل به وفاؤها - إن امتنعت عن الخيانة الكاملة - تدفعها لتخونه على الأقل بالنظر، بالأحلام، بالمشاعر، بل قد تخونه حتى باستنزاع شهوتها منه بخيالات مع غيره؛ ليصبح فعله فقط محفزا بيولوجيا يطفئ شهوة خيالات لا يكون هو من ضمنها البتة.

بغياب تأثير تلك العوامل فستخونه خيانة كاملة، لكنها حتى في خيانتها تشعر بالمرارة وهي تنتقم بفعلها، تحضر في خيالاتها في أثناء ذلك صور من خيانته لها، مما يجعلها بقدر ما تلعنه تلعن نفسها.

وبين نتاج الحالتين وأسبابهما، فبعد انتهاك الرابط المقدس لا يعود أي شيء كما كان قبل تدنيس حرم العلاقة المقدس، حتى إن بقيت معه، سواء أكان بقاؤها لأسباب نفسية أم مادية أم مجتمعية، فستظلل الخيانة كل لحظاتهما معا، وهي تحتضنه فأحضان المرأة الأخرى ستكون حاضرة تزرع بدلا من دفء الاحتضان جفافا حارقا، ستكون الأخرى حاضرة حتى وهي تتنازع معه شهواتهما، فتطفئ الخيانة الحاضرة حرارة لحظات اللذة والانتشاء البيولوجية والنفسية، لأنه لم يعد لأسرار الأجساد وخصوصية امتلاكها بين الطرفين أي معنى أو لذة، لاستباحتها من طرف ثالث أو أطراف متعددة، وبالمثل تكون تلك الحالات بمشاعرها وأسبابها ونتائجها لدى الرجل الذي قد تخونه زوجته، ويستمر معها لسبب أو لآخر.

الفارق هنا بالنسبة للرجل السوي أنه لا يغفر الخيانة، ولا يفكر في الانتقام منها، فقط يرحل وفي قلبه جرح تذكره به رجولته كل حين، وفي رجولته انكسار يشعر أن كل من يراه يرى انكساره، ذلك الانكسار الذي يجعله يفقد القدرة على أن يسامح كل النساء.

هذا هو المنطق الطبيعي إن استثنينا من ذلك المجتمعات التي ترى أن خيانة المرأة عار بحقِ الرجل، يبيح له الانتقام لكرامته أمام المجتمع، فيكون انتقامه مختلفا عن انتقام المرأة، التي يكون حدود انتقامها منه أن ترد له الألم؛ ليشعر بفداحة ما ارتكب في حقها.

"أزهار" المرتبكة بين ردات فعل كثيرة تود أن تقوم بها، وبين إلحاح كرامتها المجروحة، كانت تحاول أن تقرر أية ردة فعل تناسب الفعل الذي رأته بعينيها، فبدأت في سرد خياراتها للتنفيذ، وعيها طرح أولى تلك الخيارات؛ أن تُطلق منه وتتركه، لكن هناك عوامل كثيرة تمنعها من أن تفعل ذلك على الأقل في الوقت الحالي، أولها قدرته على التأثير على مسيرتها الفنية، ثم سطوته ونفوذه إن أثارت غضبه برحيلها، وعامل آخر أهم يتمثل في ارتباط عالميهما إلى الحد الذي يصعب معه إنهاء كل شيء ببساطة.

ثاني خياراتها أتى من بواطن تفكير أنثى تعرضت للخيانة، فعليها أن تنتقم وتردها له، لكن هناك عائق أمام ذلك، صفة أنثوية أخرى ليست مرتبطة بها فقط بل بكل أنثى تقريبا، يكون من الصعب على المرأة أن تخون للمرة الأولى، لا تتجرأ أن تفعلها بسهولة، ما لم تكن مدفوعة بعوامل قاهرة، كأن هناك حاجزا نفسيا يمنعها من ولوج دروب الخيانة، لكنها إن فعلتها مرة، يبدأ ذلك الحاجز في التلاشي مع كل مرة إلى أن يختفي تماما، وكلما كررتها أصبح الأمر روتينا يمر بمراحل متعددة، تبدأ بالانتقام المجرد، ثم التلذذ بالانتقام والفعل معا، ثم يصبح الفعل عاديا حتى تنتهي بها كل هذه المراحل إلى تدمير روحها، لأنها تكون قد تفتت بين محطات الانتقام، وتنتهي الأجساد وتُنهك بتهتك رداءات عفتها، ورخص قيمتها حتى في نظرتها لنفسها، تشعر بأنها مستباحة، ناقصة، رخيصة، فالعفة هي المعيار الحقيقي الذي يحدد قيمة جسد الأنثى، فكلما

ازدادت عفته ارتفعت قيمته المعنوية والمادية إن أمكن تحديد قيمة مادية له.

تلك العفة هي التي دفعت "عصام" بادئ ذي بدء لفعل المستحيل لنيل "أزهار"، ولأجل ذلك ترك الكثيرات ممن كنَّ حوله وبين يديه.

تذكرت "أزهار" تربيتها وأباها وسمعتها، فتساءلت؛ من سيخسر غيري إن رخصت نفسي؟ لذلك حسمت أمرها مع رغبتها في الانتقام لخيانته بألا تفعلها، وجدت خيارا ثالثا، رأت أنه من الممكن أن يرد لها بعضا من كرامتها وهي محتفظة بشرفها، فبدأت تبادله الإهمال إهمالا أكثر، تتظاهر دائما عند يكون موجودا بانشغالها، تتعمد الرد على الهاتف بعيدا عنه، بل تمسك الهاتف كأنها تتحدث مع أحدهم وعندما تراه تطفئ الهاتف فجأة، تفعل كل ذلك آمله أن تستفز مشاعره باستثارة شكوكه، لكنه على العكس لم يبد أية ردة فعل.

حينها قررت تصعيد الموقف أكثر كي تستفزه وتغضبه، لكي تشعر بأنها حققت انتقاما يذكر، بدأت تلتقي بزميل لها من الوسط الفني، تعمدت أن تكون لقاءاتهما في الأماكن التي تعلم أن "عصام" يذهب إليها، وتحرت الأوقات التي يذهب فيها أيضا، وبعد أكثر من محاولة نجحت في ذلك.

رأته قادما من باب المطعم الخارجي فأضفت على المشهد حميمية مبالغا فيها مع زميلها، أمسكت كلتا يديه، وقربت وجهها من وجهه في

مشهد يوحي لمن يراه أن طرفيه على وشك تقبيل بعضهما، مر بجانبهما، فتهيأت لتلقي ضربة منه كانت تتمناها، شدت قبضتها بانتظار أن ينتزع يدها بشدة كما فعل "خالد" ذات يوم بعيد.

لكنها صدمت.. لم يحدث شيء، بل لوح لها بيده أثناء مروره أن "مرحبا"، فتركت يدي زميلها لترد مذهولة على تلويحه بأطراف أصابعها أن "أهلا".

زميلها الذي لم يستوعب سر الحميمية المفاجئة تجاهه، والتي انتهت أيضا بأسرع مما ابتدأت، عندما رآها قد تكدر وجهها وتغيرت ملامحها، سألها:

-من هذا الذي سلم عليك فتكدر صفو مزاجك؟

لم تدر بما تجيبه، أتقول له هذا هو زوجي الذي رآني جالسة معك هكذا ومر بجانبنا وكأنه لم ير شيئا؟! سيكون ذلك مهينا بحقها أكثر من أن يكون مهينا بحق "عصام" الذي لا يعرفه السائل فردت عليه:

-هو مديري، مديري فقط.

حتى عندما عادت إلى المنزل والتقته، تمنت أن تراه غاضبا، أو حتى يسألها فقط: "ما الذي كنت تفعلينه مع الرجل الذي رأيتك معه؟"، لترد عيه بكلمات تشفي بعضا من غليلها، لتنفجر في وجهه، وتتكلم عن كل شيء، لتخبره عن خيانته، عن "صوفيا"، عما رأته بأم عينيها، حتى أنها كانت ستقول له إنها

تخونـه مـع أنهـا لـم تفعـل، فقط ستقول لـه ذلك ليعرف أنه لـيس رجـلا فـي نظرهـا، علَّ تلك الكلمـات تطفـئ نـارا فـي صـدرها تشـعل كيانهـا ليـل نهـار، وعنـدما لـم يـتكلم، أيقنـت أنـه لـم يعـد مـن المجـدي فعـل شيء، فحسمت أمرها.

غلبت أصالة طبعها كلَّ ما يمكن أن تكون قد تطبعت بـه، وذهبت إليه بكل هدوئها ووقارها لتطلب منه طلبها الأخير:

-"عصام"، لو سمحت ممكن نتطلق بهدوء؟

ولم يتردد هو بالموافقة:

-إذا كان هذا هو خيارك فلا مـانع لـدي، لـن أجبرك علـى حيـاة لا تريدينها.

بالنسبة له الحدث روتيني، كان قد انتهى من مغامرته معها، نـزوة قضـاها، تحدٍّ آخر ربحه وانتهى الأمر، وبالنسبة لها كـان الحـدث قاسيا بكل المقاييس النفسية والمعنويـة، كـان الحـدث بالنسبة لهـا نهايـة مشـروع زواج وبناء أسرة واستقرار ومستقبل، لا تدري لمَ تذكرها أحداث حياتهـا بـ"خالـد"، ذلـك البـدوي الـذي أحبتـه فـي صـباها وبـواكير شـبابها، كـأن أقدارها تنتقم منها له، تبرمت من غيرتـه ذات يـوم، وهـا هـي اليـوم تتـرك "عصام" لانعدام غيرته، لأنه لم يفعل مثله، تعلمت اليوم درسا جديدا عن الرجال، رجل بلا غيرة على أنثاه لا صلة له بالرجولة، وأن غيرة الرجل تشعر المرأة بأهميتها في عيني رجلها أكثر مما تشعره هو برجولته.

رغم أن الطلاق حدث بينهما بهدوء، ولم تحدث تلك الضجة الإعلامية حوله، إلا أن وقعه على نفسيتها كان قاسيا، وجدت أنها خسرت سنوات من عمرها جعلتها تبدو أكبر من سنها بكثير، اكتشفت في أثناء نظرتها للخلف إلى حياتها الماضية، وبالتحديد السنوات الأخيرة منها، أنها كانت مسيرة، أنها لم تكن تشبه نفسها التي تعرف، أنها فقط وجدت نفسها في محيط غير مألوف فسيَّرَها في دروبه دون أن تدري، الحقيقة الوحيدة التي رافقتها أنها حققت حلمها بالغناء، وما تلا ذلك حقائق جديدة كليا، وليدة واقعها الجديد، لم تكن تشكل امتدادا لأي شيء من "أزهار" التي كانت، وقد قادتها تلك الحقائق الجديدة للسير في دروب اعتبرتها يومها حتميات لا بد منها، لتكتشف اليوم أنها كانت مجرد نتائج لخياراتها هي، تجني اليوم حصادها.

هي اليوم منكسرة لكنها عرفت أن انكسارها ليس وليد لحظة طلاقها، بل انكسارها بدأ منذ اليوم الذي أرغمت فيه قلبها أن يضحي لأجل تحقيق حلمها، ما تعانيه اليوم هو نتاج مرحلة كاملة مرت بها، فقدت فيها شغفها ونقاءها، أشغلتها دوامة الحياة بالركض وراء ماديات أدخلتها بدورها في صراعات نفسية لا نهاية لها، ولم يكن الطلاق سوى النقطة الأخيرة على سطور تلك المرحلة، مرحلة سجلت سطورها في غياب "أزهار" الشغوفة الحالمة البريئة.

عرفت اليوم أن أول سطور تلك المرحلة كتب يوم فوزها ولقاء "عصام"، لم يرافقها طوال تلك المرحلة من "أزهار" القديمة سوى

صوتها وأملها، لكن صوتها ذاته بدأت تخدش نقاءه بحةٌ أتت نتاج ليال مسهدة، وأملُها سرق منها سنواتِ عمرها، فالأمل وانتظار تحققه يسرق العمر بحق، تعليل النفس بالآمال لصٌ أنيق ناعم يسرق أعمارنا دون أن ندري، تمر الأيام ونحن ننتظر غدا أفضل، فتشيب الرؤوس، وتتحني الظهور، ولا يأتي ذلك الغد المنتظر، لذلك كان من الحكمة أن تقترن الأعمال بالأفعال.

ومن المنطق الكوني، أن السعادة أفعال تراكمية تُجمع أجزاؤها يوما بعد يوم، أنه لنسعد غدا علينا أن نغرس اليوم بذور تلك السعادة، أن ننتقيها من مشاتلها الصحيحة، أن نسقيها بقطرات الصبر والعمل، أن نهتم بتنقية محيطها من الحشائش المتطفلة والضارة؛ لكي تؤتي أُكلها في الغد، ونقيض هذا المنطق منطق كوني آخر، أنه عندما نترك الأقدار تتقاذفنا بين مساراتها كيفما شاءت، ذلك التقاذف الذي هو في حقيقته ليس أمرا حتميا تفرضه الأقدار، بل هو نتاج خيارات اتخذناها، ومسارات فتحنا أبوابها بخياراتنا، نسير في بدايات نظن أنها ستأخذنا إلى حياة افضل، لكننا بعد سلوك تلك المسارات ثم المسارات التي توالدت منها، والضغوط التي تكتنفها، نجد أنفسنا قد أصبحنا بعيدين كل البعد عن ذواتنا، ننسى أهدافنا، بل ننسى أسباب بدايات اجتيازنا هذه المسارات، فتصبح المسارات الجديدة بحد ذاتها حياة جديدة منفصلة، وكلما أوغلنا مرغمين أو راغبين في الانغماس فيها، نجد أننا قد صرنا نسخة مشوهة عن نسختنا الأصلية.

لتفادي كل ذلك وضعت حقيقة أزلية وضعها الله الذي خلق الحياة وأسبابها وأقدارها، ودعت إليها كل الأديان ونادى بها الأنبياء والحكماء والفلاسفة ومنظرو الفكر الإنساني، تدعو إلى الوسطية والاعتدال في كل سبل الحياة، وفي حالة كالتي مرت بها "أزهار" كان عليها التمسك بالمبادئ والأصول السليمة النقية، التي جاءت بها من عالمها البسيط، والأخذ من الحضارة والتطور والحداثة بأجمل ما فيها، مما كان سيضيف إليها قيما تجعل من نسختها الجديدة أكثر جمالا، لكن المشكلة التي تلازم جميع البشر عند تبدل مجتمعاتهم - إن استثنينا أولئك الذين أنعم عليهم الخالق ببصيرة فطرية - أنهم يحصرون خياراتهم في خيارين فقط؛ إما الجمود على طباعهم، ورفض كل جديد فيؤدي ذلك إلى أن يهمشهم المجتمع الجديد، فتتملكهم كآبة الشعور بعدم الأهمية والدونية، وإما الانغماس في المجتمع الجديد وقطع كل صلة بمجتمعاتهم السابقة، ويصبحون - مهما بلغت قدرتهم على التماهي في المجتمع الجديد - نسخةً منقوصا تقبلها، مقطوعةً عليهم طرق العودة إلى مجتمعهم القديم.

عندما يواجه الإنسان صدمة قوية يمر بمراحل خمس لمواجهتها، هي ذات المراحل عند كل البشر، وليس الفارق في ذات المراحل وطبيعة موضوعها من حيث شدتها، أو ضعفها، أو كم تستغرق كل مرحلة من الوقت للانتقال إلى التي تليها، بل يتشكل الفارق من قبل البشر بحسب طباعهم وشخصياتهم وقوة تحملهم، فمنهم من يجتاز تلك المراحل بسرعة فيتقبل صدمات الحياة ويتكيف معها، والبعض الآخر يأخذ الكثير من

الوقت للمرور بين تلك المراحل، وقد يعلق البعض في إحدى المراحل لسنوات طوال فلا يجتازها.

"أزهار" إزاء صدمتها القوية مرت بهذا المراحل بالتأكيد، ولكن كان لها في كل مرحلة ردات فعل خاصة بها، مختلفة قليلا عن النمط العام، ففي مرحلة الإنكار، لم تنكر ما وقع، بل أنكرت على نفسها كيف أنها تقبلت لسنين أن تعيش شبه حياة.

والغضب اعتراها بلا شك ايضا من نفسها، حيث وجب عليها ألا تتمادى في أمانيها ومثالية أحلامها إلى الحد الذي أعماها عن رؤية واقعها، بل كان عليها أن تتقبل حياتها مع "عصام" كما هي، وتقبض الثمن ثروة ونجاحا، أو أن ترفضها من البداية.

وفي مرحلة المساومة لم تكن تحتاج لتساوم، فقد أنهت مساومتها معه يوم أن اتفقا على طلاق هادئ، وعدها ألا يسبب لها مشاكل في حياتها ومسيرتها، ووعدته ألا تتحدث عن أي من تفاصيل حياتهما.

وفي مرحلة القبول - وإن لم تتقبل ما حدث تقبلا كاملا - فإنها رأت أن ما حدث نتيجة حتمية لما سبقه، وعليها أن تتقبله.

أما الياس الذي هو آخر المراحل فإنها لم تصل إليه بالمعنى الحرفي، لكنه أطل عليها برأسه بما يكفي ليمنحها رغبة في الابتعاد عن كل ما حولها، وأن تختفي عن أوساط محيطها، تتوقف لتلتقط أنفاسها، ويهدأ ألم مواضع طعنات الخيانة التي مزقت في دواخلها مواطن الثقة

والأمان، ربما خفف آلامها أنها مرت قبل هذا الفراق بفراق أشد وجعا، فراقٍ دفعت ثمنه بكل ذرات وجدانها وروحها، فراق كان قاسيا لأنها افترقت يومها عمن أحبته بكل ما فيها، فراق مجهد لأنها كانت يومها أضعف من أن تتعامل معه، فلم تكن تملك سوى دموعها التي سكبتها حتى جفت مآقيها.

لذلك فراق اليوم رغم ما يكتنفه من معاناة وألم، لا يزال أهون من ذلك الفراق، فراق اليوم هو فراق حلم لم يتحقق، وفراق الماضي كان افتراق روحين، فراق اليوم قلبها وروحها شاهدين عليه فقط، ولم يشاركا فيه، وإن لامسهما في فترة ما فالملامسة تجرح فقط ولا تقتل، وقد أتى هذا الفراق وهي قويه تملك من أدواتها في الحياة والتجربة ما تستطيع به أن تتجاوزه، وبلا شك أنضج تجربتها عن الحياة، علمها أن للحياة مظاهر زائفة، وجواهر خفية تحت ركام مظاهرها، لكن العيون دائما تكتفي بالمظاهر، فتظل الجواهر مدفونة تحت ركامات الزيف والطمع.

وجدت اليوم حولها الكثير ممن واساها، لكن أغلب تلك المواساة متكلف، يكسوها التملق لمطمع، قليلون هم من وجدت مواساتهم نابعة من القلب، وهي منكسرة تبحث عمن يحتضن قلبها ويداوي جراحها، وجدت أكثر من قلب يبدي استعداده لاحتضان قلبها، لكنها أقفلت قلبها عن كل ذلك، وعرفت أنها سترتكب أكبر أخطائها إن اختارت في لحظة ضعف، فقررت أن تبحث عن شفائها في ذاتها، وكان الغناء هو شفاؤها ودوائها، فلجأت إليه عند إيابها من عزلتها.

تبحث عن بداية جديدة بنفسها، فكل بداياتها بل مسيرتها من قبل كانت تمر بـ"عصام"، واليوم عليها أن تشق دروبها من دونه، بدأت أولى خطوات العودة في الساحة الفنية، فوجدت - رغم أنها لا تنكر دور "عصام" في صنع مسيرتها - أن صوتها قد رسخ لها سمعة جيدة، واعترافا مستحقا في الأوساط الفنية، ولديها جمهور عريض أحب غناءها وافتقدها في غيابها، لذلك لم يكن من الصعب عليها أن تجد مواضع لخطى عودتها.

رأت لطول فترة غيابها أنه لابد أن تتابع الساحة قبل أن تختار؛ لتعرف الجديد، فتحسن الاختيار، تابعت الصحف والمجلات ومواقع الإنترنت والقنوات الفضائية، قرأت الكثير في مواقع التواصل الاجتماعي عن صديقتها "مروة" ونجاحاتها، فوجدتها قد وصلت إلى مراحل أبعد منها بكثير بعد أن كانت خلفها، وقرأت ما كتبه أحد النقاد الفنيين الكبار عن أغنيتها الجديدة ((أنها جعلت "مروة" في مصاف المطربين العمالقة، وأنها قد أعادت إلى الأسماع والأذهان الفن الراقي الجميل)).

سمعت الأغنية أكثر من مرة، هي تعرف أن صديقتها صوتها جميل، وأداؤها رائع، وليس ذلك ما شدها لتكرار سماع الأغنية، بل الكلمات، الكلمات التي تشعر بأنها ليست المرة الأولى التي تسمعها فيها، شيء في داخلها يخبرها أنها سمعتها من قبل، لكنها لا تذكر أين ومتى، عقلها الباطن يربط بينها وبين الكلمات برابط قوي، تعجز أن تجد له

تفسيرا، ذاكرتها العميقة سجلت تلك الكلمات يوما، وذاكرتها الحاضرة ترى أنه ربما اختلطت لديها الكلمات بكلمات سمعتها، أو قرأتها في مكان ما، لكن الكلمات أسرت تفكيرها تماما، أرادت أن تعرف من كتب كلماتها، علَّها تجد في الاسم تفسيرا يوضح كنه شعورها تجاه الكلمات.

لم يذكرها اسم (نديم الهجر) بشيء، إلا أن كلمة شاعر بحد ذاتها لا زالت تثير وجع مكامنها وإن تناستها، تذكرت "خالد" وأحلامه أن يغدو شاعرا تغني هي كلماته يوما، عندما كانت تسأله بدلال وغيرة مبكرة:

-هل ستكتب لغيري؟

فيطمئن هواجسها:

-فلتذهب حروف الشعر إلى الجحيم إن لم تكن لك وفيك.

فتطفو روحها مع كلماته فوق غيوم الأحلام.

راود شفاها شبح ابتسامه وهي تتذكر لحظات ذلك الحب لتسأل نفسها: (ترى أين هو اليوم؟)، فيجيبها ظن قديم خرج من بين دهاليز ذاكرة قديمة: (ربما غدا شيخا في قرية الجبل، فذلك ما كان يحلم به)، ولأن الذكريات تجر بعضها وأشباهها، تساءلت؛ "هل يمكن أن يكون قد سمع أغانيَّ يوما؟! لا شك أنه سمع، لن يفوته ذلك، ليتني أراه وهو يسمعها؛ لأرى كيف ستكون مشاعره، لا شك أنه نادم، وهو يستحق، فقد

ظلمني وظلم نفسه، كان يكتب شعرا جميلا لو أنه خرج من اليمن لأصبح ذا شأن".

انهت اجترار ذكرياتها، فهي لا ينقصها أن تنكأ جراحها القديمة، فجراحها الحاضرة كافية، والمهم اليوم أنها وجدت في كلمات هذا الشاعر ما وافق هوى في نفسها، ورغبة متأججة أن تغني هي أيضا كلماته لا تعلم أسباب تأججها، اتصلت بمنتجها الجديد لتسأله عن هذا الشاعر، فأخبرها أنه قد سمع عنه، لكنه لم يتعامل معه من قبل، وسيحاول التواصل معه، لكنه رد عليها بعد أيام أنه لم يعرف عنه سوى أنه شاعر يمني، ولم يستطع التواصل معه.

كلمة (يمني) أشعرتها بأولوية أن تغني هي كلماته، فبدأت تبحث عنه في مواقع الإنترنت، لتجد الكثير من قصائده، والحديث عنها، والفنانين الذين غنوا له، مما زاد استغرابها؛ كيف لشاعر أن يحقق كل هذه الشهرة، ويغني له كل هؤلاء ومع ذلك لا يعرفه أحد؟!

أوصلها بحثها إلى مدونته الشخصية على الفيس بوك، وهناك حيث أملت أن تجد معلومات عنه، لم تجد شيئا سوى صورة لرجل يجلس على قمة جبل كصوره رمزية ليس إلا، وصورة الخلفية لوحة كتب عليها أبيات شعر، وفي الأسفل حيث يفترض أن يكتب اسمه وجدت كلمتي (نديم الهجر)، واصلت التصفح والقراءة لتجد أنه كتب عن نفسه التعريف التالي:

((أنا شاعر، أكتب عن فراق حبيبة، أودعتها قلبي، ولم تعده إليَّ حين رحيلها، أحببتها إلى الحد الذي آمنت معه أنه لا وجود للحب على الأرض من دونها، أكتب عن الهجر والفراق والألم، ثلاثية قد تبدو لغيري قاسية، لكنني أحب هذه الثلاثية؛ لأنها كل ما تبقى لي منها، سأظل هنا متبتلا في محراب هجرها وفاء لحبها، ليس على أمل أن تعود، فهي قد ذهبت إلى حيث لن تعود، بل أكتب ويسكن حروفي كما يسكن وجداني أملٌ أن تعيد لي يومًا قلبي فقط ..

إليك وعنك يا حبيبة الماضي ووجع الحاضر أكتب، إن قرأتِ لي يوما، أو مررتِ من هنا أينما كنت فتذكري أنه لن يحبك أحد كما أحببتك أبدا، أتمنى أن تقرأي لي يوما وأنت مبتسمة، لتعلمي أن وجع فراقك لا يزال يلهمني كفرح لقائك، اقرأي كلماتي يا حبيبتي، نعم حبيبتي، هكذا سأسميك دائما، لا يهمني إن أحبك غيري أو أحببتِ أحدا، فانت في ذاكرتي ووجداني كما كنتِ حبيبتي إلى الأبد، كل ما أريده منك أن تعيدي إليَّ قلبي إن استطعتِ كي أسأله عنك))

أحستْ كأن هذا الشاعر المجهول يتحدث إليها بتلك الكلمات، وعندما قرأت بعضا من قصائده وجدتها عن القلوب والأرواح، عن الصفاء والإنسانية، عن السمو فوق الجراح والآلام، فازداد إصرارها بدوافع ظاهرها جمال كلماته، كأنها تسمعها في اللحظة التي تحتاج فيها إلى سماع مثل هذه الكلمات، كأن أقدارها تزف جراحها إلى حيث دوائها، كأنها مسافرة ألفت فيّاً تستظل به من حر هجيرها، هكذا تبدت لها أسباب

الارتباط الذي بدأت تشعر به بينها وبين كلماته، وهناك دوافع أخرى خفية، ذلك النوع من الدوافع التي تجرنا الحياة إليها بأسباب يُستعصى فهمها وتحليلها، ولا نملك أمامها من خيار سوى الانصياع.

تابعت بحثها في مدونته، فوجدت أنه متاح للمتابع إرسال رسالة خاصة إليه حتى لو لم يكن صديقا.. كتبت إليه:

الأستاذ نديم الهجر،

اسمح لي بداية أن أبدي إعجابي بشعرك وكلماتك التي تضج صدقا ونقاء، بما لا يدع مجالا للشك أنك تكتب عن ألم حقيقي عشته، تقاطع ذلك الألم مع خطوط ألمي، كما أظن أنه حدث لكثيرين ممن قرأوا لك، وأن هذا هو سر تميزك..

وأنا يا أستاذي الكريم، إذ أبدي إعجابي بشعرك، فإن اقتناعي بشاعريتك وقرب كلماتها مما أحب غناءه جعلني أتجرأ اليوم لأطلب منك قصيدة أغنيها، ولك أن تختارها ..

ختامًا أرجو أن تعذر مراسلتي لك على الخاص دون سابق معرفة، إلا أنني لم أرسلها إلا بعد أن عجزت عن التواصل معك بصفة رسمية، لأنني لم أجد أحدا ممن حولي يعرف شخصك الكريم.

تقبل مني كل الود والاحترام

الفنانة "أزهار ياسر"

❋ ❋ ❋ ❋

(21)

الشاعر (نديم الهجر) ليس ناشطا إليكترونيا، لذلك لا يهتم بفتح حسابات كثيرة على مواقع التواصل الاجتماعي أو متابعتها، لديه فقط صفحة رسمية على موقع "فيس بوك"، جعل منها ملاذه الخاص، يختلي فيها بمشاعره وشعره، يكتب حروفه هناك، ولديه رسالة فيما يكتب، فهو يكتب ما يؤمن به فقط، يعلم جيدا أن سمو الهدف ورقي المضمون كفيلان بأن يصلا بكلماته إلى حيث تستحق، قد تكون رحلة سيرها بطيئة، ووصولها متأخرا، إلا أنها ستصل حتما، ستتلقفها الذوائق الصافية، والنفوس المرهفة، والعقول الواعية، وعندما تصل سيخلدها التاريخ وتحفظها الذاكرة.

كان يعلم أيضا أن الذي يجتاح الفضاءات الإليكترونية اليوم هو غثاء، سيذهب بمجرد هبات صغيرة، فقاعات وقتية، قد تحقق شهرة لحظية، أو ضجه مؤقتة، سرعان ما ستتلاشى وتنسى وتنتهي بأسرع مما ظهرت، سيذهب الغثاء بلا شك، وتبقى السيول الصافية، وهو يحمل رسالة تَمثَّلها من إنسانيته، رضعها من مناهل صفائها، تربى عليها، قرأها في قصص العظماء الذين خلد التاريخ أعمالهم، تعلمها من تلك المدرسة الإبداعية الخالدة التي وجدت لتعيش إلى الأبد.

تلك الصفحة الرقمية ملاذ (نديم الهجر) الخاص، كما كان لـ"خالد" ذات يوم ملاذه الخاص تحت شجرة الأثل، كتب تحتها أولى

قصائده، لكن ما بين الملاذين قد تغير الكثير، ليس فقط الاسم والزمان والمكان، بل أهداف الملاذين أيضا، فهناك في ملاذ الشجرة كان "خالد" بأحلامه يبحث عن "ليلاه"، التي لم تكن يومها سوى خيالات جميلة، وهنا في ملاذه الرقمي (نديم الهجر) وآلامه، يكتب عن فراق "ليلاه" التي تجسدت يوما واقعا أجمل من كل خيالاته.

هناك كان يتمنى قصة حب ليعيشها، وهنا يكتب عن قصته وقد عاشها، هناك لم يفهم لماذا أحب "قيس" "ليلى" إلى الحد الذي لم يستطع معه أن يحب غيرها، وهنا قد فهم ويكتب عن "ليلاه" التي ذهبت ولن تعود، لكنه لا يستطيع أن يحب غيرها، هناك كان يكتب آملا أن يخطو خطواته الأولى في دروب بدايات الحب الجميلة، وهنا يكتب وهو يعاني آلام خطوات الإياب، يكتب ليسمع العالم قصة حبه وفراقه، ثم لتسمعه هي في النهاية، ليس من أجل أن تعود، فالأقدار التي جاءت بها في ذلك الصباح البعيد إلى ملاذه الخاص الأول إلى بعد خطوات من منامات أحلامه، وذهبت به إلى منامات أحلامها، قد تخلت عنه يوم فراقها، ولم يعد مؤمنا أن تعيدها.

يكتب لعلها تقرأ يوما ما كتب من وجع فراقها، علها تشاركه ولو لحظة وجع واحدة، يكتب لتعرف حين تقرأ أنه لم يعد منكفئا إلى الجبل ليرعى الأغنام، ويبكي على أطلال حبها، بل يصنع من جراحها وألم فراقها كلمات أسمعها العالم وتغنى بها، لم يعد يريد من الأقدار أن

تعيدها، يريدها فقط أن تشعر بظلمها لقلبه، أن تأتيه يوما لتعيد إليه قلبه، وإن كان من دون اعتذار، فقط تحرره من أسر حبها.

كان من عادته أن يخصص وقتا لقراءة الرسائل التي ترد إلى بريده، ولذلك ترك خاصية تلقي الرسائل مفتوحة في صفحته، فهو يكتب للقلوب والأرواح والإنسانية، فكيف له أن يغلق دروبا قد تصله بقلب يحتاج إلى كلماته؟ قد يأتيه يوما من يسأله عن الحب، فيخبره أن الحب أضداد تصنع من تضاداتها الحياة بأكملها، أن الحب أقدار تصنع للحياة معنى، وربما أيضا قد يجد موهبة تستحق أن يأخذ بيدها إلى شواطئ أحلامها، وكثيرا ما فعل، ويرى في ذلك واجبا تفرضه عليه أخلاقه التي تربى عليها، فقد كان من النوع الذي تمسك بكل الأشياء الجميلة من عالمه القديم، وأضاف إليها الكثير من جماليات عالمه الجديد، فجعل منه ذلك شخصية يبادلها الكثيرون إعجابا واحتراما وحبا، خصوصا أن بعضهم لما كان يرى من شهرته، كان يكتب إليه على استحياء بلا أمل أن يرد، لكنه يرد على الكلمات بأجمل منها، مؤمنا بأنه يجب على الانسان أن تكون بواطنه كظواهره؛ كي يكون لحياته معنى، ولرسالته صدق يوصلها إلى غاياتها.

لذلك كسب الكثير من القلوب، ونال نصيبا من الشهرة والمجد، وغنى له كبار المطربين، لكن أحدا لم يتعامل يوما مع الشاعر (نديم الهجر) مباشرة، بل عن طريق دار النشر التي يديرها، ولا يعرف

حقيقتـه أحد سـوى مـديرها الأسـتاذ "خـالـد" الـذي يقدم دائمـا قصـائد (نـديم الهجر) للآخرين لغنائها.

ذات مساء وكما اعتاد أن يتصفح بريده الـوارد علـى "الماسنجر"، ومـن بـين عنـاوين كثيـرة للرسـائل الـواردة التـي يقرأهـا عـادة علـى حسب أقدميـة إرسـالها، حضـرت الأقـدار رغـم خصـامه معهـا، مـن بعـد أن كـان صـديقها إلـى الحـد الـذي سـلمها زمـام أمـوره كلهـا، وبـلا مقـدمات أخـذت عينيـه إلـى عنـوان محـدد مـن بـين كـم مـن العنـاوين، رسـالة واردة باسـم الفنانـة "أزهار ياسر".

فتح عينيـه جيدا ليرى الاسم مرة أخرى، ثم فتح الرسـالة ليتأكد، ربما هي فنانة أخرى بنفس الاسم، قرأ الرسالة وبرغم أنـه بمـا يكـاد يشـبه ذلـك اليقـين الـذي يدركـه الإنسـان بحـواس العقـل البـاطن وحدسـه، تلـك الحـواس التـي أخبرتـه منذ قرأ الكلمـة الأولـى أنهـا "أزهـار" نفسـها، تلـك الحـواس التـي زرعـت فـي يقينـه قديمـا أنهـا سـتأتيه يومـا، إلا أنـه أراد ان يتأكد فقط ليبعد ذرة شك صغيرة تنـازع يقينَـه، فانتقل عبر رابط المرسـل إلـى الصـفحة الشخصـية، وفـي الصـفحة وبمجـرد أن رأى صـورة الملـف الشخصـي لم يعد ينازع يقينه.

إنها هي، فتلك الصورة هي نفسها المرسومة على صفحات كيانـه، هي نفسها المعلقة علـى جدران ذاكرتـه وذكرياتـه، هـي صـورة "أزهـار" الحاضرة الغائبة، صـورة "أزهـار" الحـب الـذي لـم يغـادره لحظـة منـذ أن رآها أول مرة، صـورة "أزهار" الحب الذي يؤلم قلبـه وحروفـه، صـورة

"أزهار" التي من أجلها أغلق صدره الخالي من قلبه ذاته، كيلا يسكنه أحد، هي "أزهار" التي لم يستطع إلى اليوم أن يتفهم كيف يمكن أن يكون في الأرض حب من دونها، "أزهار" التي - بالنسبة له - خُلق حبه ووجد قلبه لأجلها فقط.

كما جاءت بها الأقدار يوما إلى ملاذ الشجرة، بعد أن كاد يجتاز أقاصي الأرض ليجدها، وفي تكرار عجيب للأقدار لا يمكن تصديقه، ها هي تأتي بها مرة أخرى إلى ملاذه الإليكتروني، إلى محرابه الذي تبتل فيه بحروف فراقها، وكما جاءته ذلك اليوم وهي لا تعلم أنه سيكون حبيبها، ولم تحبه في نفس اللحظة كما أحبها، ها هي اليوم تأتيه وهي لا تعلم أنه هو ذاته حبيبها، أن (نديم الهجر) هو نديم هجرها هي، أن أناملها التي كتبت على لوحة المفاتيح رسالتها إليه، هي ذات الأنامل التي كتبت أحرف حبها الأولى على صفحات قلبه، أن من تخاطبه اليوم بهذه الرسمية "يا أستاذ" هو من كانت تناديه "يا حبيبي"، أن الأنامل التي تنتظر هي اليوم ردها، ذات الأنامل التي طالما عانقت أناملها حتى كادت تلتصق بها من طول العناق، أن الشاعر المشهور الذي تكتب إليه اليوم، هو ذلك القروي الذي نزل إليها ذات يوم من الجبل بكل نقائه وبراءته لتكتب هي مسار حياته بأكملها.

أخذ فترة من الهدوء ليتساءل، هل يمكن أن تكون قد عرفته؟! مَن مِن الممكن أنه قد أخبرها؟ "مروة"! لا، لا يمكن لها أن تخلف وعدها له بأن تخبر أحدا عن حقيقته، كما أنها لا يمكن أن تخبرها لدوافعها الذاتية،

هو يعرف عناد "مروة" وكبرياءها، لا يمكن لها أن تخبر "أزهار" أنها قد خسرت أمامها مرة أخرى، فمنافستهما منافسة قلوب، و"مروة" لن تعترف بهزيمتها في هكذا منافسة.

ثم إنه يعرف "أزهار" أيضا، فمهما تغير الإنسان تظل هناك أشياء في طباعه لا تتغير، لو أنها عرفته لقالت له الكثير، فهي من ذلك النوع من البشر الطيبين، الذين لا تستطيع ألسنتهم إخفاء ما في قلوبهم، تكون كلماتهم أحيانا جارحة وقوية، عندما تتفلت في لحظات غضبهم من بين ألسنتهم، لكنهم بمجرد خروج آخر حرف من كلماتهم ينسون كل شيء، لا يبقون شيئا في قلوبهم ليصبغها بنقاط من سواد، بل يتركونها بيضاء صافية كما خلقت، لذلك هو متأكد تماما أنها لم تعرفه.

لو عرفته لما اكتفت بمثل هذه الرسالة الرسمية، كانت ستعاتبه، ستسامحه، ستعذبه بكلماتها، سترفق به، ستدعو عليه، ستتمنى له الخير، لا يعرف بالضبط ماذا كانت ستقول، ما هو متأكد منه أنها كانت ستقول له ما في قلبها بكل وضوح لا تكتنفه ذرة من مواربة، أو مراوغه، أو تلاعب بالكلمات، فقلبها أنقى من كل ذلك.

ترك التفكير في أسباب كتابتها له، ليفكر فيما هو أهم الآن، كيف سيرد عليها؟ بل هل سيرد عليها؟ هل ستطاوعه جوارحه ومشاعره وأصابعه في الكتابة إليها؟ وهو الذي لم يجرؤ يوما أن يسمع لها، أن يقرأ عنها، أن يسأل عنها، أن يراها سوى مرة واحدة في ذلك الحفل الذي

دعته إليه "مروة"، والذي لا يعلم إلى الآن كيف واتته الجرأة للذهاب ذلك اليوم لرؤيتها.

تلك المرة التي أيقظت كل جراحه التي كانت على وشك أن تغفو حينها، يقظة دفع ثمنها الكثير، ليس بكم الألم الذي عاوده برؤيتها فحسب، بل أنه خسر "مروة" التي كانت تقف بشفاعة حبها له على أبواب قلبه تنتظر أن يأذن لها بالدخول ليخبرها يومها أنه لم يعد لديه قلب ليحب، ومع أنها لا تزال صديقته المقربة، إلا أنه يرى في قلبها ألما يدرك أنه بسببه، وفي وجدانها وجعا وإن جاهدت كبرياؤها في إخفائه، وفي عينيها دموعا وإن حبستها عزة نفسها، ثم إن تجرأ أن يرد على "أزهار" فماذا سيكتب لها؟.

أياما شهدت صراعات نفسية عاتية عصفت بوجدانه، بين عقله وقلبه، بين جراحه واشتياقه، بين غضبه وحبه، بين انتقامه وتسامحه، بين ألمه وتساميه، بل وصل الصراع بين أصابعه وكلماته، استجمع من بين شتات صراعاته جزءا من شجاعة "خالد" ومن تسامي مشاعر (نديم الهجر) ليكتب إليها:

عزيزتي الفنانة "أزهار"،

بقدر ما أسعدتني كلماتك الجميلة عني، أسعدني أكثر تواضعك الذي كان جليا بين كلمات رسالتك، مما يدل على أنك تملكين روحا نقية وقلبا صافيا، وإنني إذ أشاطرك ألمك الذي

ألمحت إليه باسم الإنسانية، فإنني أتمنى صادقا ألا يكون ألمك من ذلك الألم الذي يكون مصدره من نحب، لأنه يؤلم الأرواح والقلوب لا الأجساد فقط، والأسوأ من ذلك عندما يطول ذلك الألم، حيث لا يبقى لنا ممن كانوا كل حياتنا سواه، فيستبد بنا بعد فراقهم، وبعد أن تخفت الذكريات لطول سنين البين، فنتمسك به بل نستعذبه لأنه كل ما بقي لنا منهم، ويصبح ذلك الألم هو آخر ندمائنا من ذلك الحب..

أعجبني أنك ذكرت أن كلماتي من النوع الذي تحبين غناءه، وذلك ما أكد لي جمال رسالتك الفنية وسموها، فكم هو جميل أن يكون الفنان صاحب رسالة فنية راقية ومحترمة، لأنه ربما الأقدار كتبت لك قصيدة عندي لتغنيها يوما..

سعيد جدا بمراسلتك، وليس هناك من خصوصية بين رفاق في دروب الإبداع مثلنا، وأبناء وطنٍ واحد تنفسنا هواء ذات البحر، وعببنا من نسمات ذات الجبال ووطئنا نفس ذرات الثرى ..

أتمنى أن أراك دائما كاسمك، "أزهار" متألقة مبدعة باسمة، تمتلكين روحك وشغفك ورسالتك.

الشاعر "نديم البحر"

عندما انتهى من كتابة الرسالة أعاد قراءتها أكثر من مرة، حاول أن يضمنها ما يستثير كوامن قلبها دون أن يصرح بشيء، تردد كثيرا قبل أن يضغط على زر الإرسال، فتلك النقرة على الزر تعني أن هذه الكلمات الأولى التي سيقولها لـ"أزهار"، منذ لحظة الصمت تلك التي اعترته يوم أن تحطم قلبه على يديها في لحظة غضب، هو حتى في أثناء الكتابة لم يكن يستطيع أن يخاطبها بهذه الرسمية، كان يجاهد لكبح جماح مشاعره، ودَّ لو يقول لها أشياء كثيرة، وُلدت آلاف الكلمات في عقله، كان بوده أن يعاتبها (لم يا "أزهار"؟)، أن يسألها (كيف أنت يا "أزهار"؟)، أن يقول لها (كم اشتقت إليك يا "أزهار"!).

اختفت كل المشاعر السلبية التي راودته عنها يوما، بمجرد رسالة منها، رسالة يعرف جيدا أنها ليست من الحبيبة "أزهار" إلى حبيبها "خالد"، بل رسالة رسمية من فنانة إلى شاعر، لكن بالنسبة إليه هي رسالة من حبيبة العمر ولا فرق، ماتت كل الأفكار والأسئلة التي ولدت في أفكاره على أطراف اصابعه، أوقف كل مشاعر الضعف التي اعترته بمكابح أخلاقه ورجولته، فآخر ما سمع عنها أنها متزوجة ولن يتجاوز حدوده مع امرأة متزوجه، بل لأنها هي سيكون أشد التزاما من أن يخدش ذرة من حيائها، لذلك ألجم تدافع كلماته، وأرغم عباراته لتلتزم حدود أخلاقياته، وضغط أكثر على تدافع مشاعره وتضاداتها، ثم ضغط على زر الإرسال، متمنيا أن تفعل الأقدار ما فعلته سابقا، لا يعلم ما هو لكنه لا يملك سوى أمانيه.

وكما لم يعهد من نفسه يوما ظل يتفقد بريده الخاص أكثر من مرة في اليوم، مع أنه يعلم أنها فنانة راسلت شاعرا لا تعرفه، من منظورها سترد عليه بعد فترة بصفة رسمية لمتابعة السؤال عن القصيدة، أو عن كيفية التعاون في عمل فني، حدث ذلك له مع مطربين ومطربات غيرها، وأحالهم إلى دار النشر للتعامل الرسمي كونها تمثله وانتهى الأمر، لكنه هنا استغرب سلوكه.

مرت عليه مراحل من الغضب في حياته، تمنى حينها لو يجد طريقة لينتقم منها، وقد انتقم منها في وعيه انتقاما إيجابيا، حيث كان في كل خطواته للنجاح يتمثلها أمامه، يريدها أن تندم عندما ترى إلى أين وصل يوما، وانتقم منها في اللاوعي، فلم يتابع أخبارها، ولم يسمع أغانيها، بل تجنبها، وبرغم أنه تجاهل كل شيء حولها لكنه لم ينسها، رغم أنه أخبر نفسه آلاف المرات أنها لن تعود، وأنها إن عادت فلن يقبل هو عودتها، لكنه مع كل ذلك لم يستطع أن يحب غيرها.

كان هناك شعور خفي غلب مشاعره الظاهرية، أجبره على ترك باب قلبه مواربا لها، لم يستطع إغلاقه إغلاقا تاما، ليجد مكانا لغيرها حتى خارج أسوار قلبه وأبوابه، لم يقو على طي صفحة حبها ليفتح صفحات جديدة مع غيرها، وهو الشاعر الذي ألهب قلوب الكثيرات ليسمعنه كلمات حب وغزل تذيب أقسى القلوب، وكأن قلبه ظل بحاجة لكلمة واحدة منها، ستعدل كل كلماتهن التي أسمعنه إياها، أحبته "مروة" التي تفوق "أزهار" رقة وجمالا، ولم يقدر أن يبادلها الحب، رغم

تبريراته لنفسه ولها أنه فعل ذلك حفاظا على قلبها ومشاعرها، إلا أن الحقيقة أنه لم يستطع أن يحبها، أن قلبه لا يزال مع "أزهار".

ها هو اليوم رغم سنوات أنضجته تجاربًا وحكمة ووقارا، يتصفح بريده الإليكتروني بين فينة وأخرى، كأنه مراهق ينتظر تحت شرفة بيت محبوبته ليراها، قرر أن يتمالك نفسه، ولا ينتظر منها جوابا بهذه السرعة، بل عليه أن يفكر؛ أية قصيدة سيكتب لها، وقبل كل ذلك عليه أن يحد من ارتباك موقفه منها، لكن المفاجأة أن ردها جاءه سريعا، بعد سويعات فقط من إرسال رسالته.

*****

"أزهار" منكسرة وضعيفة، وبلا شك تبحث عمن يجبر انكسارها، ويحتضن لحظات ضعفها، وعندما لم تفتح قلبها لأحد، لم يكن ذلك مكابرة منها فقط لإخفاء ضعفها، بل لأنها باتت تدرك زيف الحياة وأقنعة الوجوه، هي لم تبرأ من جراح فراقها "خالد" الذي اختاره قلبها، الجراح التي أيقظها فشل زواجها من "عصام" الذي اختاره عقلها، قررت أن تظل بعيدة عن مسارات الرجال، أن تركز على نفسها ومسيرتها الفنية، لكن كوامن قلبها وإن أبدت اليوم خلافها، ستثبت لها حقيقة غابت عنها، رغم أنها عاشتها سابقا؛ أن القلوب لا يمكن تحديد مواقيت حالاتها، ولا تحديد خياراتها، فللقلوب كوامن تظهر عندما تلتقي بواعثها بلا استئذان أو إنذار مسبق.

كوامن قلبها تعرف هذه الكلمات التي تقرأها اليوم من هذا الشاعر الذي لا تعرفه، لكن كوامن قلبها تعرفه، كوامن قلبها وجدت اليوم بواعث ظهورها، وأثارت لديها ما هو أكثر من تقاطع مشاعر فنية أو إنسانية، فحركت تلك الكوامن التي للتو استيقظت من غفوة طويلة نفسيا وزمنيا لتستحث أصابعها لترد عليه بأسرع مما أرادت هي وأمل هو:

عزيزي الشاعر (نديم الهجر)،

أحرجتني بكلماتك الجميلة، التي أتمنى أن أكون كذلك، كما أخجلني تواضعك، والأكثر من ذلك أن كلماتك كانت عميقة، تلامس القلب كشِعرك..

الودية التي اكتست خطابك، شجعتني أن أضيف إلى تعريفك للألم أنه لا يأتي دائما إلا ممن نحب، فمِن غيرهم لا يكون الألم شيئا يذكر، وإن حدث فهو ينتهي بسرعة، إلا تلك الآلام التي يسببها الأحباب، فهي لا تنتهي، بل تسكننا حتى تموت معنا، وأنا يا سيدي ألمي من ذلك النوع الذي سببه لي أغلى من أحببت يوما، لذلك أجد أن بيني وبينك قواسم مشتركة أكثر مما ظننت، كم يسعدني أننا أبناء وطن واحد، وأنت بهذا الرقي والإبداع بل يشعرني ذلك بالفخر، وأنا على ثقة أنك ستختار لي قصيدة رائعة، نتألق بها معا لنجعل الوطن الذي خطونا على نفس ذرات رماله يفخر بنا، قرأت عنك، ووجدت أنك صاحب فكر ورسالة، واسمح لي أن أشير أنني فهمت مما قرأت لك، أن هناك من أوجعك فراقها؛ لذلك أظن أنني لن أجد من هو أقدر منك ليكتب عن الفراق الذي أعانيه أنا

أيضا، وأتمنى لك من كل قلبي صادقةً أن تعود إليك حبيبتك؛ ليعود إلى كلماتك الفرح الذي يتضح أنه غادرها برحيلها..

مع خالص مودتي واحترامي.

قرأ الرسالة، وكما عرف من الرسالة الأولى أن من كتبها "أزهار" نفسها، عرف اليوم أيضا أن قلب "أزهار" هو الذي كتب هذه الرسالة، فهو يعرف ذلك القلب وكلماته وكوامنه أكثر من أي إنسان آخر، رغم أنه يعرف أن الكلمات التي تصدر من القلب تصل إلى القلوب، وهو كثيرا ما خاطب القلوب بما يداويها، والجراح بما يبرئها، لكنه كان يفعل ذلك بحيادية من مشاعره، فقط يستخدم صدقه وإنسانيته وتجربته، أما اليوم فلا يستطيع أن يكون محايدا.

كيف يمكن لإنسان أن يملك حيادية وهو يحاور روحه عن وجعها؟ كيف يكون محايدا بمشاعره هنا وهو يحاور من تملك قلبه؟ وهو يتفهم ذلك لكن ما لم يفهمه اليوم كيف يمكن لـ"أزهار" أن تتحدث من قلبها مع اسم مستعار، لا تعرف حقيقته؟ كيف تفصح عن ألم قلبها لمجهول؟ دفعته هذه الحيرة أن يمسك بأطراف ما تبقى من حيادية مشاعره ليكتب إليها :

عزيزتي الفنانة "أزهار"،

أعجبتني إضافتك لتعريف الألم، وأنت محقة، فالألم الحقيقي لا يأتي إلا ممن كانوا كل أملنا، ومصدر فرحنا، وإنني إذا أشكر أمانيك، إلا

أنني قد وصلت إلى تلك المرحلة التي لم يبق لي ممن أحببتها سوى الألم، لذلك فأنا نديم هجرها، وقد ذهبتْ إلى حيث لا يرجى أن تعود، لكنها حتى في غيابها ظلت ملهمتي..

ورغم أنني لم أستطع بعدَها أن أحب غيرها، إلا انني تعلمت من فراقها كيف أداوي القلوب، علمتني حتى في غيابها أن الحب بكل حالاته هو ما يصنع للحياة معنى ..

ذكرتِ أن بيننا قواسم مشتركة، وأنا معك أنها كذلك، لكن الكلمة الأخيرة ستكون للقدر ليحدد ما بيننا، الذي قد يكون أكبر من فن ورسالة ووطن، ربما هناك رابط وجودي للقدر بيننا كذلك الرابط الذي يربط بين جبال اليمن وبحرها.

أعدك أن أكتب لك قصيدة تليق بك، وترقى لذائقتك، أن أكتبها لأجلك؛ لأنك قصيدة لذاتك، لذلك أرجو أن تمنحيني بعض الوقت، لأنه لن يكون من السهل أن أكتب في القصيدة قصيدة.

كل الشكر والامتنان لكلماتك الرقيقة.

*****

بقدر ما شدتها الرسالة الأولى بدوافع لم تكن تعرف سرها، شدتها هذه الرسالة بدوافع بدأت تتضح لها، ليس لأنها تثير كوامن لم تفهمها، بل لأنها تُحيي ذكرياتها كثنائية البحر والجبل التي ذكرها، أيقظت فيها ذكريات ثنائية حب قديم عاشته، ترى كلمات شاعر تدق باب قلبها يوم لم

يعُد الشاعر الأول الذي سكن أعماقه، جعلها هذا الشعور تتجاوز حواجز كثيرة، نفسية وعقلانية لتكتب إليه بلا مقدمات:

استرسلت بلا شعور صادقة في الكلام معك، رغم أنني لم أعرفك جيدا إلى الآن، لكنك قلت بنفسك أنه ربما للأقدار تدبير لنا لا نعلمه..

آلمني كثيرا أنك قد وصلت إلى المرحلة التي لم يبق لك فيها ممن أحببت سوى الألم، وأتفهم شعورك لأنني مررت بما أنت فيه، رغم أنني تناسيته لفترة من الزمن، وأغلقت قلبي، لكن كلماتك نبشت في قلبي ذكريات كنت أظن أن الزمن قد طواها..

أخجلتني بوصفك أنني القصيدة وهذا من رقي أخلاقك، ومما زادني شغفا لأرى ماذا ستكتب لي.

قرأ الرسالة ولم يجب، ازدادت حيرته، الحقيقة الوحيدة التي فهمها أن "أزهار" أقرب إليه، أصبحت في رسائلها تتطرق لتفاصيل كثيرة وكأنها تعرفه، هو يعلم أنه ضمَّن رسائله كلمات تعمدها لتستثير ذكرياتها عن حبهما القديم، لكن حيرته متأتية من أنه كيف لـ"أزهار" أن تتحدث باندفاع هكذا مع غريب وهي ناجحة ومتزوجة؟ ثم أنه يعرف أخلاقها وتربيتها، ربما هي فقط تريد أن تتحدث، شجعها على ذلك أنها تتحدث لاسم مستعار، لكنها تتحدث باسمها وتعرف أنه يعرف من هي.

بدأت الرسمية تختفي من مراسلاتهما شيئا فشيئا، وأصبحت الرسائل الطويلة محادثات فورية قصيرة ليستيقظ على رسالة منها:

-صباح الخير، أتمنى لك يوما بلا ألم.

-صباح النور، هو ثنائيتي التي لا تفارقني.

-ربما لو تشاركته مع قريب أو حبيب سيغادرك.

-ألمي من ذلك النوع الذي لا يمكن إلا أن أتشاركه مع قلبي، وقلبي ليس معي.

-وأين ذهب قلبك؟

-أخذته معها يوم رحيلها.

-ألم تكن قريبا من أحد؛ لتبوح له لعلك ترتاح؟!

-لست محظوظا مثلك؛ ليكون حولي من أشاركه الألم.

-ومن قال لك إن حولي أحدا؟!

-زوجك على الأقل، وربما تزوجت عن حب.

-أظن أنك لا تعرفني بعد.

-بل أعرفك من حيث لا يعرفك غيري.

-كيف إذًا لم تعرف أنني لم أعد متزوجة؟!

لم تعد متزوجة! بدأ الآن يفهم سر ظهور قلب "أزهار" في كلماتها فسألها:

-كيف؟ ومنذ متى؟

-ألم تقرأ عن ذلك في الصحف أو الإنترنت؟

-للأسف نعم.

-لن ألومك، فالحدث ليس مهما بالنسبة لك.

ولم يأتِها رد، هناك متغير جديد أربكَ أفكاره أكثر مما هي مرتبكة أصلا ناحيتها، لم تعد متزوجة، ليس معنى ذلك أنها ستعود إليه، فذلك خيار قد حسمه الزمن، ولم يعد متاحا على الأقل نفسيا إلى الآن، وهو لا يرتجي عودتها بالمعنى الحرفي، لكن على الأقل أصبح لديه مساحة أكثر حرية للحديث معها، ليسألها أسئلة كثيرة ظلت عالقة في وجدانه لسنوات بلا إجابات، على الأقل أن يسمع روايتها هي عن قصتهما، ليحسم صراعه النفسي وضياعه العاطفي فيرد أخيرا:

-لذلك تشعرين بالألم لأنك تزوجت عن حب ثم حدث الفراق!

-لا، لم أتزوج عن حب، كان زواجَ منطقٍ وعقلٍ، لكنه فشل.

-ليس ذلك مبررا ليسبب لك هذا الكم الذي تتحدثين عنه من الألم.

-ألمي مصدره حب آخر.

فسألها متعمدا كي يعرف إلى أين وصلت بقلبها بعده:

-هل أحببت وأنت متزوجة؟

-لو كنت متزوجة لم أكن لأحادثك اليوم هكذا، فما بالك أن أحب وأنا متزوجة؟ مع الأيام ستعرف أخلاق "أزهار".

هو يعرف أخلاقها، لكنه سألها ليعرف ماذا صنعت بها سنوات الغياب فيواصل:

-متى أحببت إذًا؟

-قبل أن أتزوج، في بواكير شبابي.

-وماذا حدث لذلك الحب؟

-كما رحلت حبيبتك بقلبك، رحل هو بقلبي من دون وداع حتى.

رغم أنه يظن أنه رأى كل أصناف الألم في غيابها، إلا أن كلماتها الأخيرة أشعرته بنوع من الألم لم يختبره من قبل، ذلك النوع الذي يشعر به الإنسان لأنه سبب ألما لمن يحب، فيكون ذلك الألم أشد من ألمه لنفسه، وهو الذي ظن أنها رحلت بقلبه، ثم رمته على قارعة النسيان، وواصلت مسيرها، ها هي تخبره أن ما فعله هو بها كان أقسى، كان يفكر بالانتقام منها لنفسه، لكن ما تقول له اليوم جعله يفكر بالانتقام من نفسه لها، بعد أن عرف ذلك لم يكن يريد أن يسترسل معها في الدردشة رغم أن ضوء صفحته يشير إلى أنه موجود، وعندما استبطأت رده أكملت:

-كنت أتمنى لو أنه ودعني فقط، لو أنه أخبرني أنه سيرحل إلى الأبد، لو أنه أخبرني لماذا تخلى عن حبنا في لحظة غضب، بدلا من أن يتركني للحيرة تنهش سنوات عمري، ويترك في كياني أسئلة توجعني كل حين.

هنا بحق أصبح عاجزا أن يكتب حرفا واحدا، فضلا عن كلمات، ليبدي تعاطفه معها كما يفترض، كيف يتعاطف معها وهي تشكو طعناته؟ كيف يواسي جراح قلبها وقد كانت على يديه؟

ظنَتْ أنه انشغل بشيء آخر فسألته:

-أين ذهبت؟

-موجود.

ثم أكمل مرتبكا، فهو بعد لم يستوعب ما عرف، بود حاول أن يضمنه تبريرا مؤقتا:

-ربما كانت له ظروف أقوى منه.

-ربما، ولكن كان من حقي باسم حبنا أن أعرف.

يشعر بكلماتها تضيف إلى أوجاعه وجعا جديدا، لم يكن يظن أنه يوما سيدركه، ربما هو الجزء الوحيد المتبقي من كيانه الذي لم يمسه الوجع، ذلك هو وجع الضمير بعد أن عرف أنه ليس مظلوما كما كان يظن طوال حياته، بل كان ظالما، كان يظن أنها فقأت إحدى عيني قلبه، فأصبح لا يستطيع أن يرى سوى نصف كل شيء، فإذا بها اليوم تخبره أنه فقأ كلتا عيني قلبها فلم تعد ترى أي شيء، فكتب لها مواسيا نفسه قبل أن يواسيها:

-سأكتب لك قصيده عن الفراق وجه الحب الآخر.

-وأنا واثقة أنك ستكتبها صادقا، لأنك عانيتَ مثلي من الفراق، وسأغنيها بكل جوارحي.

لو قدر لأجابها: سأكتبها صادقا لأنني أنا وجه حبك الآخر، سأنزف مع حبر قلمي دموع قلبي، ومداد ألمه الذي هو ألمك، لكنه لم يكتب ذلك بل:

-حسنا يا زميلتي في الألم.

فترد صادقة:

-أتمنى أن تحكيه لي يوما، ربما أجد فيه سلوى لما أعانيه.

-كيف تثقين بي وأنت لا تعرفين من أكون؟

-أنت إنسان مثلي، وحروفك تحكي عنك الكثير، وإن تخفيت خلف اسمك المستعار، كما أنك تتحدث بلغة القلوب وصدقها، وهذا كافٍ، ربما بكلماتك معي قد تغير نظرتي إلى شيء مهم.

-وما هو؟

-ربما قد تجعلني أستعيد ثقتي بالشعراء بعد أن فقدتها .

-لهذه الدرجة! وما ذنبهم في حقك؟

-لأن حبي وألمي كان شاعرا مثلك، وكلماته تشبه كلماتك.

هنا كان لابد أن يوقف المحادثة، لأنه يجد نفسه كلما استرسل في محادثتها أكثر تقض الكلمات مضاجع ألمه، تكشف له اليوم ما يكفي لتغيير أفكار كثيرة، عايشها لسنين على أنها حقائق مطلقة، ليكتشف اليوم أنه لا يمكن اعتبارها حتى أشباه حقائق، استأذنها في الخروج من المحادثة، على أن يتحادثا لاحقا، لترد عليه:

-أتمنى لك يوما سعيدا، وأجو أن نكون صديقين، فنحن كما يبدو نتشارك الكثير.

كم يتمنى لو كان بإمكانه أن يدع قلبه يجيبها نيابة عنه، لكان سيقول لها: لو تعلمين يا "أزهار" أن الذي تتمنين صداقته اليوم أنه لعمر كامل منحك كل شيء، حتى لم يبق منه شيء ليس لك. كان سيقول لها: إن من تطلبين صداقته اليوم لديك قلبه، يطالبك أن تعيديه إليه، إن من أسعدك الحديث معه اليوم غادرته السعادة يوم أن غادرتِ. لكنه اكتفى بقول:

-حسنا يا "أزهار" تشرفني صداقتك.

-مناداتك لي باسمي مجردا أقنعتني أنك تعتبرني صديقة بحق، فبين الأصدقاء لا ألقاب أو رسميات.

كلمات تفتح الحوار بدلا من أن تنهيه، إرهاصات بدايات ارتياح بين قلبين أنهكهما الوجع، ووجدَا في البوح شعورا بالارتياح، لا يريد أحدهما أن يكون هو من ينهي هذا الحوار الذي ناجت فيه القلوب

بعضـها، وبـدأت تتسـارع نبضـاتها، بانتظـار لحظـة لقـاء، هكـذا كانـت الصـورة لـدى "أزهـار"، لكنهـا لــ"خالـد" ليسـت إرهاصـات بـدايات، بـل سطور نهايات ستضع الكثير من النقاط على الحروف المفقودة في قصته فيرد عليها:

-بالتأكيد، طالما تحدثنا حديث قلوب فقد تجاوزنا الرسميات.

فتستدرجه آملة أن تعرف اسمه:

-بمَ أناديك إذًا؟

ينتبه لاستدراجها فيماطل:

-أكيد باسمي .

-أنت لم تخبرني باسمك .

-(نديم الهجر) كما هو أمامك.

-هل هذا اسمك فعلا؟!

-ليس الحقيقي بالطبع، لكنه يعبر عن حقيقتي فعلا .

-لماذا لا تكتب باسمك الحقيقي؟

-لأنني أريد أن يعرف الناس شعري لا اسمي .

-وهل أنـا مـن النـاس؟! أنـا صـديقتك، وابنـة بلـدك، ألـن تخبرنـي باسمك؟!

-لا استطيع .

-ألأنك لا تثق في بعد؟

-ليس كذلك، بل لأنني نسيته، لدرجة أني أشعر أنه ليس اسمي، عندما أتذكره سأخبرك.

-هل هي السبب؟

-نعم، وهل سيكون هناك سبب غيرها؟!

-لا أعرف ماذا أقول لك، مع أنني لا اعرف اسمك بعد، أشعر وكأنني أعرفك من زمن، فلم أحادث أحدا كما أتحدث معك.

-حتى في حياتك الواقعية!

-حتى في حياتي الواقعية، هل تصدقني إذا قلت لك شيئا؟

-بالتأكيد.

-سأقوله لك، لتعرف أنني بالفعل بدأت أثق بك، هل تصدق أن كلماتك تذكرني به؟ كان يتكلم بنفس الطريقة.

-من تقصدين؟

-الحب الأول، الشاعر الغادر.

فيرد متهكما بألمه:

-ربما أنا هو.

-لا يمكن، صحيح أنك شاعر مثله، وكلماتك تشبه كلماته، لكن قلبك مختلف عن قلبه.

-وكيف ذلك؟

-كان قلبه قاسيا، قتل حبنا في لحظة غضب، بينما أنت تملك رقة قلب، لا يمكن أن تجرح أحدا، فضلا عن أن تقتل حبا.

رأى أنه كلما استمر في محادثتها آمِلا مداواة جراحه، فإن كلماتها تفتح جراحا أخرى، في بحثه عن أجوبه لأسئلة أسهدته ليالِيَ طويلة وجد كلماتها تفتح جراحا جديدة، بما يفوق احتماله فأنهى المحادثة:

-إلى اللقاء يا صديقتي الصادقة.

-إلى اللقاء يا صديقي الذي أتمنى صدقه.

لا تدري "أزهار" لـمَ أرادت أن تستمر المحادثة أكثر، كلماته تريح قلبها، وتحيي فيه مواطن للشغف، يتكلم لغة الشعراء التي كان يتكلم بها "خالد"، الفارق الجلي هنا أن كلمات "خالد" كانت حالمة تساير أحلامها، وكلمات محدثها اليوم ناضجة، تداوي الجراح، يتكلم بصفاء جميل.

تتمنى ألا يكون زيفا للتقرب منها لسبب أو لآخر، فتكتشف فيما بعد أن حقيقته مناقضة لكلماته، فقد تعبت بما فيه الكفاية من غدر

الرجال، وزيف الزمان، لكنها ترى أيضا أنه ليس بحاجة إلى أن يجاملها، أو يتقرب منها.

ما الذي قد يريده منها؟! لو كان يريد الشهرة لما تركها من نصيب اسم مستعار، لو كان يحاول التقرب من أنوثتها فهو بلا شك عرف فنانات أكثر منها فتنه وأنوثة، مثل "مروة" التي غنت من كلماته، وهو بالتأكيد قد تعامل معها ورأى جمالها، رغم يقينها الذي يكاد يصبح إيمانا بصدقه، إلا أن فضولا يعتريها لمعرفة اسمه، كي تعرف سر صدقه معها، وسبب شعورها بالارتياح للحديث معه، لكنها لا تملك الآن سوى أن تنتظر قصيدته، وتترك للأقدار كما قال هو أن تقول كلمتها بينهما.

مع كل ذلك فقد جاء في وقت هي بحاجة لأن تتحدث إلي أحد بما في قلبها، وأن تجد من يتلقفه برفق، ويداويه بدفق من مشاعر جميلة حانية، وهي تجد أنه كذلك، هي بحاجة لهكذا حديث، حديث افتقدته من أيام الزمن الجميل، أشعرها أنه سيجبر انكسار لحظتها، أيقظ في قلبها الحنين إلى الماضي.

لا تدري لم يذكرها هذا الشاعر الذي يحاورها اليوم بصداقات جميلة، وأيام أجمل، يذكرها من حيث لا تدري بعدن، بـ"خالد"، بـ"أسرار"، بـ"روان"، بزمن جميل لم تكن فيه كما هي اليوم تملك الكثير، لم يكن معها سوى أحلامها وحبها وصداقاتها وسعادتها، تلك السعادة التي كانت تجعلها تجتاز طرقات الحي مرفرفة بأجنحة الفرح .

* * * *

(22)

يا قاضِيَ العُشَّاقِ

هَاكَ حِكَايَتِي

فَلعلَّنِي أرتاحُ حينَ أَبُوحُ بهَا يا سيدِي

ولَعَلَّنِي ألقَى لديكَ نِهَايَةً

يُخْتَمُ بِها هَذَا الكِتَاب

سَأقُصُها للعاشِقينَ لِيَعْلَمُوا

أنّ السَّعَادَاتِ الَّتِي تَرْسمُ بِدَايَاتِ الهَوَى

وَتُرَاقِصُ النَّبَضَاتِ واللحَظَاتِ والخُطُواتِ

تَعْقُبُها نِهَاياتٌ يُجَلِّلُها الألَمُ

فتَصِيرُ مِنْ بَعْدِ الوِصَالِ وسُكْرِهِ

أَنْصَافَ أسْئِلَةٍ حَيَارَى

لا يَكُونُ لَها جوابٌ

قُلْ لِي

بِحَقِ الرّبِّ .. باسمِ الحُبِّ

قُلْ يا سَيِّدِي

ما ذنبُ عاشِقَةٍ لِتُسْجَنَ بَينَ أَسوَارِ العَذَابِ؟

....

كلُّ الحِكَايةِ أَنّنِي أَحببتُهُ

أَسْلَمْتُ قَلْبِي لِلهَوَى

مِن حَيثُ لا أدرِي أَتَى

هوَ وَالْهَوَى

لمْ يَطْرُقَا أَبْوَابَ قَلْبِي

يَومَها مَا كَانَ لي قِفلٌ وبابٌ

أَحْبَبْتُ فِيهِ رُجُولَةً

رَوَتْ حُقُولَ أُنُوثَتِي

وتَنَسَّمَتْ رُوحِي نَدَى أَنْفَاسَهُ، هَمَسَاتِه، كَلِمَاتِهِ

سِحْرُ الحُرُوفِ يَصُبُّهَا فِي مَسْمَعِي

فَتَطِيرُ بِي فَوقَ الغِيُومِ

وبَينَ كُثْبَانِ السّحَابِ

أَهْدَيتُهُ قَلْبًا بَرِيئًا صَادِقًا

أهْدَيتُهُ رُوحًا تُنَاغِي حُلْمَها

أهدَيتُه جَسَدًا يُرَاوِدُ نُضْجَهُ

أهديتُهُ كُلِّي، وأَهَدَانِي الغِيابَ

علَّمْتُه لَثْمَ الثُّغُورِ

وشمَّ أنْفَاسِ النحُورِ، وعطرِها

أسقيتُه قَطْرَ الرَّحِيقِ الغَضِّ منْ نَبْعِ الصُدُورِ لِيَرْتَوِيَ

حتى ارْتَوَى

أَسْلَمْتُهُ صَفَحَاتِ طُهرِ مَشَاعِرِي

فكَتَبَ عَليها ما يَشَاءُ وكَيفَ شَاءَ فَأَيْنَعَتْ

تَجْتَاحُهَا الرِيحُ الهبَابُ

....

لكنَّهُ وَلَّى بِصَمْتٍ قَاتِلٍ

انْسَابَ مِنْ بَينِ الحَنَايَا والجَوَارِحِ والجَوَى

وكأنَّهُ حُلْمٌ جَمِيلٌ وانْتَهَى

فاسْتَيقَظَتْ فيَّ جَمِيعُ جَوَارِحي

لتَرَى بَأنَّ مِيَاهَهَا أَضحَتْ سَرَاب

ورَجَوتُ أَنْ يَأْتِي وَيَغْضَبَ

ثُمَّ يَمْسِكَ يَاقَتِي..

ويَشُدَّني

غَضَبًا يُعَاتِبَنِي

ويَصْرُخَ فيَّ

أَصْرُخَ فِيهِ

ولِتَسْمَعِ الأَكْوَانُ صَرَخَاتِ العِتَابِ

....

ويَظُنُّنِي أَبْدَلْتُهُ

أواه مَا أَبْدَلْتُه حُبًا سِوَاهُ فكيفَ أُبْدِلُ عِشْقَهُ؟

أَبْدَلتُهُ أَلَمَ الفِرَاقِ ومُرَّهُ

أَبْدَلتُهُ وَجَعًا يُعَذِّبُ خَافِقِي

أَبْدَلتُهُ ذِكْرَى تُؤَرِّقُ مَضْجَعِي

أَبْدَلتُهُ دَمْعًا يُخَضِّبُ وَجْنَتِي بِسَوَادِهِ

أَبْدَلتُهُ وَجْدًا لِأَيَامِ التَّلَاقِي والشَّبَابِ

....

وكَتَبْتُ لِلعُشَاقِ شَطْرَ وَصِيَّتِي

أنْ يَتْرُكُوا بَابَ الضَّرِيحِ مُوارِبًا

عَلَّ الحَنِينَ يَهُزُّهُ

بَعدَ الرَّحِيلِ يَرُدُّهُ

ليَزُورَنِي دَمْعُ الإِيَابِ

يا سَيِّدِي أَبْلِغْهُ صَكَّ بَرَاءَتِي

أَبْلِغْهُ أنَّ جَوَارِحِي رَغْمَ الغِيَابِ تُحبُّهُ

أَبْلِغْهُ أنَّ كَوَامِنِي

بَعدَ الفِرَاقِ وجُرْحِه تَشْتَاقُه

أَبْلِغْهُ أنِّي لا أَزَالُ كَمَا أَنَا .. "أَزْهَارَهْ"

أَحْتَاجُ قَطْرًا مِنْ نَداهُ لِأَرْتَوِي

فليَأْتِنِي ليَرَى شُجُونِي بَعدَهُ

قِيثَارَةً

تَبْكِي مَعَ نَايٍ حَزِينٍ

ونَدِيمُهَا فِي الوَجْدِ

أَصْواتُ الرَّبَابِ

قرأت "أزهار" القصيدة مرات ومرات، ليس لأنها وجدت كلماتها جميلة، وليس لأنها من النوع الذي تحب غناءه، بل توقفت أمامها والدموع تبلل خديها، لأنها وجدت أن الكلمات تحكي قصتها هي، وكأن كاتبها كان شاهدا على كل فصولها، أمامها قصة حبها كاملة في قصيدة، بل أبلغ وأدق مما لو كتبتها هي، فتساءلت كيف لشاعر لا يعرفها إلا في حدود الكلمات التي قالتها له، والتي كانت في أغلبها عناوين بلا تفاصيل، أن يكتب قصتها هكذا؟!

تعرف أن الشعراء في كل بحر يهيمون، وأن لهم شياطينَ، وأنهم يتنبؤون في شعرهم بملكات إدراك لا يملكها غيرهم، لكنها تعرف أيضا أنهم لا يعلمون الغيب، وبقدر تأثرها ازدادت حيرتها حول من يمكن أن يكون هذا الشاعر.

قبل أن تقرأ القصيدة كانت تحاول أن تعرف اسمه، لكنها بعد قراءتها قررت جازمة أن تعرف، ليس اسمه فقط، بل حقيقته، وتفاصيل حياته، كتب لها مع القصيدة:

((أرجو أن ترقى الكلمات إلى سمو ذائقتك، لأنني كتبتها في حضور كل مشاعري وشاعريتي، في حضور غائبين كثر عادوا من أجل أن أكتب لك)).

لم تكد تنهي قراءة هذه الكلمات حتى انهمرت ضغطات أصابعها، تستحثها بالكتابة إليه لتكتب له:

-لا، لم ترق إلى ذائقتي.

أرادت أن تستفزه ليرد سريعا، فقلبها يبحث عن أجوبة، ولا يستطيع الانتظار طويلا ليسمعها وجاءها رده:

-ولماذا؟

-هل أجرؤ وأخبرك لماذا؟

-نعم يا صديقتي، وسأتقبل ردك برحابة صدر .

فينطق قلبها قبل لسانها:

-رقت إلى ما هو أكثر من ذائقتي، إلى روحي ذاتها، تكلمت حروفها عني كأنني أنا من كتبتها وأكثر، وكأنك كنت معي في لحظات لا يمكن أن نكون قد التقينا فيها، كتبت عما في قلبي أكثر مما أعرف، إلى الدرجة التي ظننت فيها أنك عراف وليس شاعرا.

لم يخفَ عليه هنا أنها صادقة فيما تقول، فهو قد كتب القصيدة لها بعد أن سمع منها، لينصفها أمام ضميره، ليتحدث بلسان حالها.

تدخَّل قلبُه ليُملي عليه ردا يكتبه لها:

ومن يعرف قلبك أكثر مني يا "أزهار"؟! شاركتك عمرا بأكمله، شاركتك بدايات لحظاتك، ولحظات ولادتها، فتبنيتها كأنها لحظاتي، لم تكن لحظاتك وحدك كانت لحظاتنا معا، لست عرافا يا "أزهار"، أنا عاشق كتب عن لحظات عشقه وهيامه، لم أتنبأ ولست بحاجة لأن أتنبأ،

لأكتب قصتنا، فقط كتبت ما عشناه معا ثم استدعيت قلبي من لديك ليكمل فصولا غابت عني، كان هو معك فيها، أنا قصتك يا "أزهار" فكيف لا أكتبها.

لكن أصابعه عجزت أن تكتب إملاء قلبه، فاكتفى بكتابة:

-جميل أنها أعجبتك ولامست مشاعرك، لذلك ستغنينها بإحساس وصدق.

-أعجبتني إلى حد البكاء لفرط تأثري، لامست مشاعري، وأيقظت في أحاسيس كنت أظنها لم تعد موجودة، نعم سأغنيها بكل جوارحي.

-أتمنى لك التوفيق، وأتمنى ألا أبكيك كما أبكاك حبيبك الشاعر.

-أعلم أنك لم تقصد ذلك، لكن الكلمات عميقة ومعبرة، استدعت البكاء من دهاليز ذاكرتي، وأتمنى أن تكون هذه هي البداية بيننا لقادم أجمل.

-وأنا متأكد أن القادم سيكون أجمل، فجمال روحك سيضفي ألقا على كل شيء.

-العفو فأنت الأجمل، أشكرك من أعماق قلبي الذي سكنته كلماتك.

وكما وعدت غنت بكل جوارحها، كما لم تغنِ من قبل، غنت بحضور كل شيء من "أزهار" العاشقة، غنت بشغف عاد ليكسو صوتها بعد طول غياب، غنتها وأزهارُ قلبها متفتحة بعد طول ذبول، كيف لا

تغني فنانة هكذا وقد استحضرت أحاسيسها كاملة لتغني معها؟ كيف لا تفعل ذلك عاشقة وهي تغني قصة عشقها؟

أصدرت "أزهار" الأغنية فرديةً، ونجحت نجاحا لم تكن تتوقعه، اقتربت الأغنية من مليون مشاهدة خلال وقت قصير من طرحها عبر قناتها الرسمية على موقع "يوتيوب"، تفاعل معها الجمهور لدرجة لم تتوقعها.

دائما ما تكون الأغاني التي تحكي قصصا واقعية أكثر تأثيرا ونجاحا، وتكون أبلغ تأثيرا، إن كان الفنان يغني قصته كما هو الحال معها، تستقبلها الذائقة لصدق أحاسيسها وتتلقفها الأرواح المتألمة، لأنها تتقاطع مع حكاياتها، وتسمعها قلوبا تعيش ذات الوجع، فتسري في شرايينها فتبقى خالده في الذاكرة.

أرادت "أزهار" من وراء هذه الأغنية أن تعود بشيء يعيد تألقها، يعيد إليها ثقتها بنفسها، وكانت تريد أن تقول الكثير لكثيرين، لكن بعد هذا النجاح الذي حصدته الأغنية لم تعد بحاجة لأن تقول شيئا، فالرسالة قد وصلت للجميع.

كانت تريد أن تقول لـ"عصام" أنا فنانة بذاتي، وأستطيع أن أشق دروب النجاح من دونك، أن تقول لـ"خالد" ها قد خلدت قصة حبنا ليسمعها العالم كما وعدتك يوما، ومن دون كلماتك، أن تقول لكل من شكك في موهبتها إنها تستطيع بموهبتها فقط أن تجذب لها الأسماع،

وسيسمعها الآن كل هؤلاء، لكن هناك شيئا قد بقي لها أن تقوله لشخص تعلم جيدا أن كل ذلك لن يكون له تأثير عليه أو لتصله رسالة، فهو مؤمن بموهبتها، هو من كتب لها قصة حبها، وشاركها الألم قبل النجاح، لا تهمه الشهرة؛ لأنها تحت قدميه.

لا تعرف ما هو سره إلى اليوم، (نديم الهجر) الشاعر الذي كلما غنى له أحد نجحت أغانيه، غنت له "مروة" فحلقت في فضاءات النجاح، وكذلك غيرها، وغنت له هي فكان حظها من النجاح أكثر من كل هؤلاء، وجدت أنها لابد أن تقول له شيئا لكن ماذا ستقول له (أنت ملهمي) هذه الكلمات لا تكفي، (أنا معجبة بك) ستبدو كلمات مستهلكة باهتة، فهي قد تجاوزت معه حدود الإعجاب بمسافات طويلة، بل من ستخدع سوى نفسها؟

قد أصبحت متعلقة به إلى الدرجة التي ينبض قلبها فرحا عندما ترى رسالة واردة منه، هي على أبواب أن تحبه، تجد فيه كل ما أملت أن تجده يوما في الرجل، جاءته منكسرة القلب فتلقف قلبها بدفء كلماته، فلم يجبر كسر قلبها فحسب بل جعله يتألق أكثر مما كان، ترى فيه "خالد"، الحب الأول الذي لم يغادر قلبها يوما، لكنه أكثر ثقة وحكمة ونضجا، كأنه هو في نسخة أجمل، أصبحت تخاف أن يرحل كما رحل "خالد" يوما إلى حيث لا تعلم.

هذا الشاعر رغم كل شهرته فهي لا تعرف اسمه الحقيقي، أو أين هو، أو أحدا يعرفه، نبشت صفحات الإنترنت لتبحث علَّها تجد ما

يرشدها إليه، فلم تجد سوى الكلام عنه، وكأنه وهم، لذلك تخشى أن تتعلق بوهم، أن تحب اسما على شاشة هاتفها، ها قد بدأت تبرأ جراحها الأولى على يديه، فكم سيكون جرحها مؤلما إن جاءها يوما على يديه؟

وعدها كثيرا أنه لن سبب لها لحظة ألم، فضلا عن أن يجرحها، لكن "خالد" أيضا وعدها نفس الوعد، وكانت تحبه ويحبها، تعرفه ويعرفها، ومع ذلك كان هو ألمها السرمدي، استحلفته يوما باسم حبيبته التي أخبرها أن موجة غادرة اختطفتها من بين يديه، في بحر بعيد، أن يخبرها من هو فأجابها:

-أنا إنسان مات قلبه شهيدا على أبواب حب عذري .

فأجابته:

-بل أنت حياة.

-بالنسبة لمن؟

-بالنسبة لي.

وهي صادقة هنا، فبالنسبة لها قد أحيا "أزهار" القديمة التي تركب اليوم أجنحة الفرح، قبله كانت تفتقد من يشاركها لحظات فرحها، لكنها اليوم تتشاركها معه، فهو من أنساها آلامها، وصنع معها فرحها، لذلك أعدت له مفاجأة سيتغير معها الكثير.

*****

كان لـ"خالد" في النجاح الذي نتج عن كلماته وأغنيتها تفسيرٌ آخر مغاير لكل ما يمكن أن يخطر على بالها، فهو يعرف عنها أكثر مما تعرف، يعرف أن الأقدار أعادتها إليه؛ لتفي بوعد قطعته على نفسها لأول مرة في قرية الجبل، وعد سمعه يومها بكل وضوح من بين صخب كلمات وداع كثيرة، يوم أن وقف مع صديقه الأستاذ "أيمن" وجَدِّه ونساء العائلة لوداع "أزهار" وعائلتها، يوم أن وقف بين الجميع غائبا عن كل ما حوله، ينظر إليها صامتا لا يملك أن يقول شيئا، يوم أن سكن جنبات روحه حبُها، ولم يعرف ذلك أحد، حتى "أزهار" ذاتها، وداع لم يكونا فيه وحدهما، رغم أنه لم يكن يرى في المشهد أحدا سواها، يومها انتزعته من صمته لتقوله:

-لا تنسَ القصيدة التي وعدتني بها.

ورد عليها بصوت متهدج ينازع بواكير فراق لا يعانيه سواه:

-أعدك أن أكتبها.

وعدها، ولم يكن يعرف يومها سبيلا لتحقيقه، أو كيف سيتحقق أصلا، لكنها بادلته الوعد وعدا قائلة:

-وأعدك أن أغنيها.

ثم ابتسمت له تلك الابتسامة التي انبلجت عن أطواق اللؤلؤ، لتخلع قلبه من مكانه، ولم يمانع وقتها أن ترحل بقلبه، فهو قد أصبح لها علي أية حال، ظل ذلك الوعد وتلك الابتسامة نديمي ذكرياته عنها في فراقهما

الأول، مع آمال سكنت تفكيره عنها، لم يكن يعرف من سبيل لبلوغها، بل لم يكن يعلم هل سيبلغها أم لا، لكن يومها كان متأكدا من حقيقة واحدة أنه قد كتب على جدران قلبه (أنها حبيبته).

الأقدار اليوم حققت ذلك الوعد الذي كان أول ما سألته عنه، يوم أن ذهب إلى عدن ليراها، وعدا طالما كرراه لبعضهما في أوقات كثيرة بعدها، وعدا كانت تحلق به أحلامها إلى السماء، يوم أن كان يجلس على الشاطئ، وتنام هي مسندة رأسها على فخذه، فتعبث أنامله بخصلات شعرها التي تتطاير مع هبات النسيم فتسأله:

-حبيبي، إلى أين ستأخذنا أحلامنا؟

فجيبها خيال شاعر:

-إلى اللاحدود يا حبيبتي.

فيتكلم دلال عاشقة:

-سأغني قصة حبنا ليسمعها العالم.

فيساير دلالها:

-وسأكتب قصة حبنا ليخلدها التاريخ.

فتحلق بهما خيالاتهما وأحلامهما سويا، إلى آفاق وعوالم لا يعرفان عنها شيئا، سوى أنها في أحلامهما، أحلام طرفاها شاعر عاشق،

وفنانـة حالمـة، أحـلام يظنـان أنـها لفرط جموحـها ستصـنع منهمـا أيقونـات حب.

فتوقف أحلامهما عن التحليق، لتسأله:

-ومتى سنفعل ذلك؟

فيتوقف هو ليحتضن وقوفها:

-قريبا يا حبيبتي، قريبا.

لكنهما يومهـا لـم يكونـا يعرفـان أن ذلك القريـب سيكون سنين مـن الهجر والفراق، سنين طويلـة بفعل الـزمن، وأطـول بفعـل الألـم، أن ذلـك القريب سيأتي بعد مفـازات مـن الـهجير، سيتغير معهـا الكثيـر، غنـت هـي فأسـمعت العـالم مـن دون أن تغنـي لـه، وأسـمع هـو الـدنيا شـعرا كتبـه فـي غيابهـا، ليحقـق القـدر أخيـرا مشـيئته، ويفـي لهمـا بوعـد تبادلـه عاشـقان صغيران، لم يكونـا يعرفان عن ألوان الحيـاة سوى الـوردي الحـالم، تحقق الوعـد اليـوم بـين شـاعر مجهـول وفنانـة معجبـة بشـعره، بعـد أن رأيـا أن للحياة ألوانا كثيرة، تصل أحيانا إلى أن يصبح لونـها أسود حالكًا.

لم يكن تساؤل "خالد" اليوم عن حيثيات هذه الأقدار ونتائجها، بـل كم كان سيفرح لو أن ذلك الوعد تحقق في حينه! لـو أنـهمـا أبحـرا معـا، لـو أن أغنياتهـا كانـت مـن كلماتـه، أي فـرح كـان سيتملكه بـدلا مـن شـعوره المرتبك اليوم الذي لا يعرف أهو حزن أم فرح؟! لـو أن ذلـك الحلم تحقق يومها، حينما كانت الأحلام نقية صافية كم كـان سيكون أجمـل!، ولكانـت

استمرت صداقته مع الأقدار التي جمعتهما معا في بدايات مساراتها، ثم سهلت له كل الدروب ليلتقيها، كم كان سيشعر بالامتنان للأقدار ذاتها، لكن تحقق ذلك الحلم اليوم جاء بعد أن ماتت نباتات الأحلام النقية عطشا، لتنمو مكانها حشائش الألم الضارة، وبقايا أعواد أحلام يابسة بلا زهر يثمر يوما.

تحقق الحلم اليوم بعد أن اختلطت بساطة مدارك السعادة الصافية بتعقيدات كثيرة، تجعل من الحصول على لحظة سعادة واحدة حلما قائما بذاته، لذلك هو اليوم ليس ممتنا للأقدار، بل متوجسا خيفة من عودتها، ليس لأنها أعادت "أزهار" لتربك مساراته، فهو لم يسلك يوما مسارا لم تكن "أزهار" حاضرة معه فيه، في وجدانه، في ذاكرته، في شعره، بل كانت هي من تشكل مساراته حتى في غيابها، بل لأنه لم يعد يثق في الأقدار ذاتها، يراها اليوم قد حضرت لتستدرجه إلى كمين من كمائنها، وها قد بدأت أولى خطواتها لتهيئة أسبابها.

تطلقت "أزهار"، مما يعني أنها أصبحت أقرب لتعود إليه، جاءت بها الأقدار إلى صفحته كما جاءت بها يوما إلى شجرة الأثل، وها هي "أزهار" اليوم تحادثه بنفس الكلمات التي بدأت بها حكاية حبهما.

هو اليوم أكثر إلماما بلعبة الأقدار كما يظن، يرى أنها تكرر معه ذات المسالك؛ لتستدرجه، ثم تغدر به مرة أخرى، وهو الذي لم يبرأ من غدرتها الأولى، طعنة غدر ثانية ستقضي عليه، حتما كاد أن يجن أو حتى يموت في الطعنة الأولى، ويعود إلى الجبل ليبكي على أطلال حبه،

لكنه يومها كان أقدر ألا يسلك ذلك السبيل، بل سلك سبيلا آخر، جعل من آلامه درجات يرقى بها سبل النجاح.

أراد يومها أن ينتقم من "أزهار"، كان يريدها أن تتألم كما يتألم، لكنه اليوم وبمجرد كلمات منها إليه وهي لا تعرف أنه هو عندما حكت له جانبها من الحكاية، أخرجت من داخله كل مشاعر الغضب والكره والانتقام التي شعر بها ناحيتها يوما.

عرف جيدا أنه لا يستطيع أن يسبب لها ثانيةً ألمًا، بل أنه يجد نفسه يخشى عليها ما لا يخشاه على نفسه، عليه هنا أن يحدد موقفه من الأقدار ومنها، أن يقرر كيف سيتعامل مع "أزهار"، وهو يعلم أنها من جهتها تحاور شاعرا لا تعرفه، لكنه بتفكيره هذا لا يستبق الأحداث، فهو يراها تخطو على نفس مواضع الخطى التي خطتها لتحب "خالد"، ورغم أنها تتمهل في خطاها كما فعلت سابقا، لكنها مع كل كلمة يتبادلانها تتقدم خطوة لتحب (نديم الهجر)، وهو يرد بذات الخطاب الذي أحبته لأجله، وستجد فيه ذات الروح وذات القلب، ستجد فيه ذات الملهم الذي يلهب شغفها، ستجد فيه كل شيء من حبها القديم وأكثر، لأنه هو ذاته وهي لا تعلم.

ستأتيه محملة بجراح حبها، وانكسارات فشل زواجها الذي كان محاولة نسيان حب فاشلة، وستحبه على أمل أنها ستجد فيه ما ينسيها كل ما مضى، لكنها ستجد نفسها في النهاية تطلب دواءها من دائها.

بين صراع مشاعره ومنطقية عواطفه وعقلانيته، قرر أنه لن يترك الأمر هذه المرة للأقدار لتضعه أمام خياراتها، سيحدد هو خياراته، وسيحددها الآن قبل أن تسترسل، هو يعلم أنها رغم حتميتها إلا أن لها أسبابها أيضا، والأسباب من صنع البشر، سيتمهل فقط ليرى إلى أين سيصل مع "أزهار".

إن كان الأمر صداقة إنسانية وعلاقه إبداعية، وأن يكون سببا في إسعادها ونجاحها وتوقف الأمر عند هذا الحد، فسيكتفي حينها بذلك، سيكون ذلك كافيا له أيضا؛ ليستعيد قلبه وتبرأ جراحه من دون أن ينكأ جراحها، وسيكون ملهما لإبداعها باعثا لشغفها، وإذا أخذتها المسارات إلى دروب حب كما يرى، فسيكون عليه حينها أن ينسحب من حياتها وحبها برفق وهدوء، كما فعل مع "مروة" ليظل صديقها فقط، لكن ما غاب عنه أنه رغم معرفته أن حتمية الأقدار نتيجة لأسبابها، فهناك أقدار أسبابها ذاتها حتميات لا مفر منها.

❋ ❋ ❋ ❋

(23)

كانت "أزهار" تحضر مفاجأة لـ(نديم الهجر)، دوافعها الظاهرية أنها تريد أن تكافئه، أن تشاركه الفرح والنجاح الذي كان هو شريكها فيه، لكن دوافع داخلية أكثر تستحثها لتفعل ما هو أكثر من ذلك، تريد أن تلتقيه، أن تراه أمامها؛ لتتحدث معه بأكثر من حروف على شاشة الهاتف، تتملكها سيول من المشاعر ناحيته، والمنطق هنا يلح عليها أنها يجب أن تلتقي بمصب سيولها، أن تراه أولا، أن تعرف أن مشاعرها تتدفق باتجاه بشر مثلها، لا اسم مستعار.

ربما يكون وهما، حتى في أثناء تفكيرها في مكافأته أو مشاركته النجاح، وجدت أمامها مجاهيل كثيرة، لا تعرف أين هو، لا تعرف ماذا يحب لتهديه إياه، أو حتى كيف تهديه شيئا، لماذا يرفض أن يعرفها بنفسه؟! صحيح أنه في محادثاته معها شاركها كلمات جميلة عن نجاحها، أخبرها أن أداءها كان رائعا، بل قال لها ما جعلها تهتز طربا: إنها أجمل من غنت له. لكن تلك الكلمات تزيدها حيرة أكثر مما هي عليه.

"كيف يمكن أن يكون مني بهذا القرب العاطفي ونحن لم نلتق يوما؟"، تعلم أنه يعرف صورتها واسمها وصوتها، لكنها لا تعرف سوى كلماته، افترضت يوما أنه ربما يكون معجبا بها، لكنها تراه يخطو باتجاه معاكس لما يفعله المعجبون، هم يقتربون وهو لا يقترب بل هي من تقترب وهو يبتعد، كأنه يريد أن يحافظ على نفس المسافة بينهما.

أصبحت مقتنعة انه لن يفصح عن شيء عنه حتى اسمه، لكنها اليوم تملك خطة تستدرجه بها إلى ما هو أكثر من معرفة اسمه، صحيح أنها تعرف عن نفسها أن كيدها ليس عظيما لكنها في النهاية أنثى، لديها من الكَيد ما تحتاجه اليوم؛ لتنفذ ما تنويه فسألته مرة فجأة:

-أين أنت؟

-في مكتبي.

فكتبت سريعا، لا تريد له أن يفكر لثانية في الجواب، هي تريد حوارا عفويا وسريعا لتطلق الألسنة مكنوناتها.

-أقصد في أي بلد؟

-في دبي.

نجحت الخطوة الأولى سريعا، هي على المسار الصحيح إذًا للوصول إليه، استنطقته اليوم لتعرف أين هو، هذه أول معلومة حقيقية عن حياته ضمن كثير من المعلومات التي تنوي أن تعرفها، واكتفت بأن تقول له:

-دبي مدينة جميلة، سنتحدث لاحقا.

كتبت له ذلك لتعطيه انطباعا أن سؤالها كان عفويا، لا تبغي من ورائه شيئا، حدثت نفسها "سأصل اليك، ها قد خطوت الخطوة الأولى يا (نديم الهجر)".

انتظرت أيام قليلة تخللتها محادثات عادية بينهما، لا توحي بشيء، وفجأة كي تجعل الخبر وكأنه قد حدث للتو كتبت له:

-أخبرني مدير أعمالي أن لدي عملًا في دبي غدا، سأذهب لأنام، وعندما أصل سأخبرك لنلتقي، تصبح على خير.

ظنت أنها قد وضعته حيث تريد، في زاوية لن يستطيع الخروج منها، أنهت المحادثة؛ كي لا يرد بأي رد وتغلق أمامه أي باب لأعذار، قالت له الموضوع و كأنها مصادفة لم تخطط لها، وأخيرا راهنت على وعده أنه سيفعل أي شيء لإسعادها، وأقل ذلك أن يستقبلها عندما تزور مدينته.

كان بإمكانه أن يقول لها "حسنا" أو حتى "تصبحين على خير" مما يعني ضمنيا إنه موافق، ثم يتعلل عند مجيئها بأي عذر؛ كي لا يلتقيها، فهي - كما أرادت لكلماتها أن تبدو - قادمة لعمل، وليس لأجله، لكنه يعرفها جيدا، ويعرف كيف يفرق بين كلمات لسانها وقلبها، وفوق كل ذلك يعرف أن ذات مسارات القدر التي أتت بها إليه سابقا قادمة بها إليه مرة أخرى، ومن كل هذه المعارف كان جليا له أنها ليست قادمة لعمل، بل لتراه، لترى (نديم الهجر).

هو يقرأ مشاعرها تجاهه بين طيات حروف كلماتها، تواري مشاعرها خلف كلماتها متناسية أنها تحاور شاعرا، من ضمن أدوات حرفته التورية التي يتقنها إلى حدود الطلسمة، وهي تخفي مشاعرها

وراء كلماتها، ولا تعلم أنها تحاور عاشقها الذي كتب معها أبجديات مشاعرها، ولن يفوته أن يرى ظلال كلماتها، وبقدر ما يعرف مشاعرها ناحية حلم حبها الجديد، يعرف أيضا أن جرح حبها من صنعه.

حكت هي له ما غاب عنه من نتائجه من حيث لا تدري، ستلتقي جرحها في حلمها، وهو وإن كان قد حسم أمره فيما بينه وبين نفسه، إلا أنه لا يزال يتمنى ألا يصل معها إلى خيارات حاسمة، يتمنى لو يستمر كل شيء بهدوء وسلام كما هو إلى حين.

فمعنى أن يلتقيها هكذا، وترى فيه هناك ألمها وأملها، سيضعها أمام خيارات حاسمة بلا شك، لن يكون هذا اللقاء سببا للحظة ألم وعدها ألا يسببها لها فحسب، بل سيوقظ في قلبها كل لحظات الألم التي سببها لها "خالد" رغم وعده أيضا يومها أنه لن يسبب لها لحظة ألم، لن يكون ذلك اللقاء مبعثا لسعادتها كما تظن، وهو محق هنا.

هي ترى في الشاعر (نديم الهجر) دواء لجراح سببها شاعر آخر أحبته يوما بكل جوارحها، ترى فيه شاعرا حبيبا سينسيها ألم الحبيب الشاعر، أي ألم سيعتريها إن عرفت أنها جاءت تداوي طعناتها على نفس اليدين التي سببتها؟!

لا يخشى ردة فعلها تجاهه، بل يخشى ردة فعلها تجاه نفسها، لأنه لا يعلم كيف ستتقبل شرب جرعة مختلطة من الألم والأمل، وهو لن يقبل أن يسبب لها هذا الحجم من الصراع النفسي والعاطفي، ليس لأنه

سيخسرها، فهو قد خسرها منذ زمن، لكنه يعلم أنها في لحظة ضعف وانكسار، ولن تتحمل انكسارًا آخر، كما ألهمه فراقها ليكتب فأبدع، علمته جراحها أن الجراح مؤلمة، تعلم ألا يجرح قلبا، بل تعلم أن يداوي الجراح التي يستطيع مداواتها، فكيف يسبب لها هي جرحا جديدا؟! لا يمكن أن يفعل ذلك.

سيخسر في أدنى الأحوال ما بينهما اليوم، وهو يظن أنه كاف، لكنها مندفعة ناحيته بحبٍ، لا يهمها ما في طريقها، كما فعل "خالد" يوم اندفاعه نحو حبها، وهو هنا يمشي في طريقه إليها بخطوات متمهلة وحذرة ويتمنى لو تتمهل هي الأخرى، فهي لا تعرف ما يعرفه.

يعرف أن بينهما حقول ألغام نفسية وعاطفية، قد ينفجر أحدها في أية خطوة في المكان الخطأ، ويكتب موتا آخر لحب تظنه "أزهار" جديدا وهو قديم، لا يريد ذلك، هو مكتف حيث وصلا، استعاد قلبه عندما أخبرته أنه رحل بقلبها، عرف أنه ظلمها بأكبر مما ظلمته، فهدأت جراحه، أخبرته أنها لم تنسه يوما، فعاد لروحه سلامها الذي كان يبحث عنه في غيابها، وفي المقابل وهذا هو الأهم لديه أنها قد بدأت تستعيد فرحها وسعادتها وشغفها، شعر بابتسامتها مرسومة على قسمات سطورها، تحدثه من القلب الى القلب.

يتحدثان يوميا مرات كثيرة تبدأ بصباحات جميلة ثم تتخللها أحاديث تحيي في كليهما نباتات روحية من بذور ظن كلاهما أنها لا يمكن أن تنبت من جديد، تعيد إلى شفاههما ابتسامات عذبة صامتة كانت

غائبه، وتفتح في قلبيهما نوافذ لمزامير فرح، ظنا أنها لن تصدح أبدا، لتنتهي بمساءات محملة بأمنيات سعيدة تهدهد جفون منامات الغياب.

أراد أن يجرها إلى أن تتوقف معه قليلا هنا، إلى حين يحصلان على سلام روحيهما، وأن يبقيا هكذا إلى أن تصل هي إلى مرتبة التسامح مع الماضي، كما وصل هو، إلى أن يرى بوضوح أنها قد سامحت "خالد" وتسامحت مع نفسها، حينها سيخبرها كل شيء، يوم أن تكون أقوى من لحظات ضعفها التي لا تخفى عليه، يوم أن يصل معها إلى آفاق رحبة عاطفيا وعمليا، فيصبح وقتها معرفة الحقيقة أخف وطأة مما هو عليه اليوم.

لن يكون هناك حينها سوى عتاب خفيف وعناق طويل، سيعمل قبل ذلك على أن تبرأ كل آلامها، هكذا رأى أنه سيصنع أسبابا مختلفة لأقدارهما؛ ليحقق حبُّهما نتيجةً مختلفة، ليصل معها إلى شواطئ رسوٍ من دون أن يمنح أمواج القدر الغادرة عذرا، لتحطم مركب إبحارهما الذي لا زال يجمع ألواح بنائه، وذلك يحتاج إلى الانتظار، كان مستعدا لينتظر وكم يتمنى أن تستطيع "أزهار" الانتظار معه، بقدر ما كان يتمنى ألا يغير الزمن شيئا من "أزهار" التي أحب، أن يتغير فيها شيء واحد فقط؛ أن تكون قد تعلمت الصبر، ألا تستعجل خياراتها.

كانت لدى "أزهار" خطة ومشاعر مختلفين عن خطته ومشاعره، لديها خطة رسمتها مشاعرها وتولى قلبها تنفيذها، فبكل بساطة قد وجدت في (نديم الهجر) شغفها وإلهامها وشفاءها، وتريد أن تلتقيه، كانت لا

تـزال هـي "أزهـار" ذاتهـا التـي تحسـم خياراتهـا لا تنتظـر ولا تتمهـل، لا تقبـل أنصـاف الحلـول، ولا تعـرف المسـاومات، تصـل سـريعا إلـى حيـث تظن أنها يجب أن تصل، فعلتهـا مـع "خالـد" وحُسم الأمـر بنهايـة حبهمـا، وبشكل أو بآخر فعلتها مـع "عصـام"، فحُسم الأمـر بنهايـة زواجهـا، ومـع أنها عانت الكثير من خياراتها، فهي لم تتغير من هذه الناحية كثيرا.

لا زالت الحياة بالنسبة لها لونين فقط؛ أسود أو أبيض، ولونـا ثالثـا ورديا يسكن خيالها وأحلامها فقط، تبحث عمن يشاركها لحظـات رسمه على حياتها، وترى أمامها شريك أحلام كأروع ما تتمني.

كما لم يكذب عليها من قبل، لـن يكذب عليهـا اليـوم فـي أي شـيء، صـحيح أنـه فقدها بصـدقه ذات يـوم، إلا أنـه مـوقن أنـه لـن يسـتعيدها - إن قدر لـه ذلك - إلا بصدقه، كذبـة واحدة ستشوه جمـال صـورته التـي تراهـا "أزهار" اليوم، كذبة واحدة ستكون نكثًا بوعده لها؛ لذلك أجابهـا بمجـرد أن قرأ رسالتها:

-بودي أن نلتقي لكنك تعرفي أنني لا استطيع.

من المفترض أنها قد ذهبت لتنام، لكنها في الحقيقة لاتزال ممسكة بهاتفها، تنتظر رده، ولما لم يكن كما توقعت سألته:

-لماذا؟

-في كل محادثاتنا أخبرتك أن لدي سببا؛ كي لا يعرفني أحد، ولو لم يكن ذلك السبب مبررا لكتبت صريحا باسمي، وأتمنى أن تتفهمي أسبابي ورغبتي.

-وأين وعدك أن تشاركني لحظات الفرح والحزن؟

-ها أنا ذا أفي به وأتحدث معك.

-وهل تظن هذا كافيًا؟

-الآن يكفي، وعندما يأتي اليوم المناسب سنلتقي.

-وهل من العدل ألا أعرف اسمك ولا ألتقيك؟! كيف تعتبر أننا صديقان؟! لا أفهم!

-ستفهمين يوما.

-كنت أحضر لك مفاجأة، كنت أريدك أن تسعد كما أسعدتني، وأحضر لك هدية تقديرا لصداقتنا.

-بالنسبة لي رؤيتك سعيدة هي أجمل هدية، يكفيني أنني رسمت في قلبك الفرح، فذلك يشعرني أيضا بالفرح، وهو أكثر من كاف بالنسبة لي.

-هل تعلم أنني كنت سآتي إلى دبي فقط لأراك؟

-نعم، لذلك لم أرد أن أكذب عليك، فتأتي ثم لا نلتقي.

في وقتٍ ما، عندما بدأت تتراسل معه، كان لديها شكوك أن وراء كلماته شيئا يريده منها، وها هي اليوم رغم أنها قد تجاوزت ذلك إلى مشاعر أكبر حتى من الثقة، تأكدت أنه كان صادقا عندما قال لها يوما بعد أن سالته:

-ماذا تريد منى؟

-أن تكوني سعيدة فقط، أن تتذكريني وتبتسمي.

صحيح أن ذلك يثبت صدق كلامه وسمو روحه، لكنها مع ذلك تتساءل بحيرة: "لماذا يفعل معي كل ذلك، وهو لا يريد شيئا مني؟! لماذا أيضا لا يفهم أن رؤيته ستجعلني أكثر سعادة وفرحا؟!" فردت عليه:

-بل سيكون لقاؤك لحظة سعادة.

-سيكون يا "أزهار"، لكن أوانه لمَّا يَحِنْ بعد.

فتسأله:

-هل كل هذا بسببها؟!

-ليس بسببها لذاتها، بل ما تعلمته من حبها وفراقها.

-وهل تعرف هي أن (نديم الهجر) هو حبيبها؟

-لا، لا تعرف.

فيزيد استغرابها، لتسأله:

-إذًا كيف ستصل إليها رسالتك؟

-لم أعد أريد، فرسالتي أصبحت أسمى من أن أنتقم منها، أو أن أرجو عودتها.

-وهل تعرف أين هي؟

-نعم.

-هل تظن أنها قرأت لك؟

-لا أعلم وإن قرأت فلن تعرفني.

فتتقمص دور العارفة قائلة:

-صدقني ستجد نفسها بين كلماتك، إن كانت قد أحبتك كما أحببتها، اسألني أنا.

"أنت محقة يا "أزهار" فقد وجدت نفسك بين كلماتي لذلك جئتني، عرفني قلبك لكنه لم يخبرك"، فيرد عليها:

-لا أعلم، ربما.. لكنني لم أعد أريد لها سوى السعادة.

إجابته أفسحت مجالا نفسيا أمام "أزهار" لتتحرك باتجاه قلبه فسألته:

-تقصد أنها قد رحلت من قلبك كما رحلت من حياتك!

-رحلت بقلبي لذلك لا أزال في محراب حبها.

-وما الذي يبقيك هناك إن كنت لا ترجو عودتها؟

-هل ستصدقين إن قلت لك إنني لم أعد أنتظر أي شيء، لكنني باق هنا، لأنني وجدت إنسانيتي ونفسي، باق هنا لأنني وجدت صفاء روحي بعد مخاضات من الألم، باق لأنني تعلمت كيف أداوي الجراح، لأنني هنا تعلمت كيف أتسامح مع نفسي وأسامح كل شيء، باق هنا وفاء لذكرياتها، لأنه لولا حبها وفراقها لما وصلت إلى ما أنا عليه اليوم، لولا جراحها لما تفجرت براكين غضبي عن إرادة، إرادة اعتليت بها قمم النجاح، كانت بداية أردتها أن ترى إلى أين وصلت فتندم، ذلك كان انتقامي، لكنني بهذا الدافع ارتقيت سلالم المجد إلى الحد الذي لو التقيتها اليوم لشكرتها، فجراحها كانت الشرارة التي أطلقت بداخلي عزيمة لم أكن لأعرفها، لولاها لما صرتُ الشاعر الذي أنا عليه اليوم، ولما أصبحت الإنسان الذي كسب قلوب كثيرين وأنت منهم.

هو محق فيما يقول، في نظرها قد كسب قلبها بلا شك، المهم أنها وجدت في كلماته إجابة لسؤال حيرها طويلا عن سمو أخلاقه، عرفت أنه سمو حقيقي من إنسان مؤمن برسالته، سألته لتعرف المزيد:

-وماذا تريد منها لو التقيتها؟

-أن تعيد إليَّ قلبي فقط، علني أجد فيه حيزا أُسْكن فيها امرأةً غيرها، فمهما بلغت من السمو الروحي ففي النهاية أنا رجل، أحتاج أنثى في حياتي لأعيش، لكن حتى في ذلك لن أرضى بأقل منها.

كما أن هناك كلمات يقولها أحيانا تشعرها أنه يبعدها عنه، فهناك كلمات كهذه الأخيرة تقرب بينهما المسافات، تمنحها نوافذ تحاول من خلالها الدخول إلى دهاليز قلبه، فتحاول التسلل من إحداها.

-كيف ستعرف ذلك وأنت مغلق أبواب قلبك؟

-ليس إلى حد أنني لم أحاول، لكنني لم أستطع أن أحب.

وهنا طرحت ما رأته حلا بحاجة في نفسها:

-ربما لو سمحت لغيرها أن تدخل قلبك ووجدت المرأة التي تستحق فستنساها.

-وهل نسيت أنت حبك؟

-لا، لم أنسه، لكنني تناسيته في بعض مراحل حياتي.

-وماذا فعلت عندما رحل؟

-انتظرت أن يعود، ولم يعد، بحثت عنه، ولم أجده، بكيت فراقه، تمنيت أن يعود لأعتذر له، رغم أنني لم أكن المخطئة، لكنه لم يعد يوما، ولم يسأل عني، ثم أخذتني الحياة في دروبها، حاولت أن أنساه بزواجي ولم أنجح.

-أرايت كيف أنني محقا؟

-المشكلة أنني حاولت أن أنساه بالارتباط بمن هو على النقيض منه في كل شيء، في حياته، في أخلاقه، في رجولته، لذلك فشلت، ربما لو وجدت من يشبهه أو أفضل منه لكان من الممكن أن أنساه.

تعمدت التلميح في كلامها أن باب قلبها مفتوح له، فقد أخبرته قبلا أنه لا يشبه حبيبها الشاعر فحسب بل نسخة أجمل، فهم هو تلميحها فاستغله لتوضيح مقصده:

-أخبرتك أن لقاءات الأجساد تقتل القلوب، ولذلك أريد أن يكون ما بيننا علاقة أسمى، فجراحنا متشابهة، وسنتشاركها حتى تبرأ.

-لكنني أريد أن أعرف أنك حقيقة، إنسان مثلي من لحم ودم.

فيواصل:

-أحببتِ وتزوجتِ، كانا أمامك والتقيتهما، فكيف كانت نتائج تلك اللقاءات؟

فتستمر في محاولتها:

-معك ستكون النتيجة مختلفة.

-ما الذي يجعلك متأكدة من ذلك؟

-لأنك مثل أول حب، بالإضافة لأشياء لم تكن فيه، وهي التي كانت سبب فراقنا، كما أننا نتشارك أشياء كثيرة.

فيشرح لها أن هناك قصورا في أسباب تعلقها به:

-المشكلة يا "أزهار" أنك ترينه فيَّ، وأنا يوما كنت على أعتاب أن أحب إحداهن لذات السبب، ولكن عندما توقفت مع نفسي في لحظة صدق وجدت أنني لم أحبها لذاتها، بل لأنها تشبه حبيبتي الأولى، وستكون أنانية مني ألا أحبها لذاتها، وظلم أن أختزل أنثى كاملةً حاضرةً في خيال حبيبة غائبة، ذلك يعني أنني سأقتل سعادتها لأجل سعادتي، ويوما ما ستوقظني أو الأسوأ توقظها الحقيقة، فينتهي ما بيننا نهاية مؤلمة.

-متى ستحب إذًا؟

-عندما أجد من أحبها لذاتها فقط.

-هذه مثالية يا صديقي، فالحياة لا تتوقف عند أحد، ورغم أن كل ما قلته نبيل وسام إلا أنه لتستمر الحياة لا بد أن نقدم تنازلات عاطفية ونفسية، خصوصا بين الرجل والمرأة، ويجب أن نفتح قلوبنا للحب.

-وأنا أتفق معك في ذلك.

-لماذا إذًا تغلق قلبك بل ما هو أكثر في وجهي؟!

-لأنني أريد أن يظل ما بيننا جميلا كما هو.

فتستنكر:

-هل تقصد بهذا أن أصادق خيالا؟!

فيبرر لها منطقه:

-ألا يكفي أن ما تسمينه خيالا يصنع ابتسامتك كل صباح؟ ألا يكفي أن يكون هذا الخيال إلهاما أيقظ أحلامك؟ ما تسمينه خيالا أنا أسميه علاقة روحية، تسمو فوق الأجساد والماديات، علاقة تعودين بها كل ليلة إلى سريرك مع أحلام بغد أجمل، علاقة تحتضن آلامنا، إلى أن تصل لذلك الغد الجميل، وقد تهيئنا له، لا تطلبي من الحياة شيئا كاملا يا "أزهار"، فالحياة لا تعطي أشياءها كاملة، وإن أعطتك شيئا تظنينه كاملا، فستكتشفين حتما أن وراء هذا الكمال المتوهم كمينا من كمائنها.

وأمام هذا المنطق الذي يتحدث به ترد "أزهار" بما تراه هي أيضا منطقا واقعيا تعرفه عن الحياة:

-ولكن الحقيقة مهما كانت بحلوها ومرها ستكون أجمل، أليس هذه هي الحياة أيضا؟

فيرد بما يعرفه أكثر منها:

-الحقيقة تقتل الحياة أحيانا نفسها، أو على الأقل تكدر صفوها، دعي ما بيننا نقيا هكذا نزرعه أملا ونسقيه وفاء.

-والحب أيضا! أم أنك تظنه ليس مهما في الحياة؟

-بل هو أهم أسباب الحياة وأجملها، لكنه يكون أجمل إن حدث بعد نضوج ثماره، ثم تُقطف، لا عند بزوغها كما يفعل كل المحبين.

ما يقوله كلام منطقي، ولا تملك أن تخالف عقلانيته أو الحكمة التي تكتنف كل كلمة يقولها، لكنه بالنسبة لها لا يرقى إلى مستوى مشاعرها، سيعجب أنثى غيرها لو سمعته، لكنها قد تجاوزت حدود الإعجاب، يمكن لكلماته أن تتعلق بها قلوب غيرها، لكنها قد خطت فوق أسوار التعلق وتجاوزتها.

تجد نفسها اليوم قد وصلت بمشاعرها ناحيته إلى أن تطرق أبواب قلبه، لم يبق إلا أن يفتح لها بابا أو يشرع لها نافذه فتدلف إليه، كما فعلت مع "خالد" الذي كان قلبه مشرعة لها كل أبوابه فدخلته دون عناء، إلا أنها اليوم أمام قلب لا يبدو له أبواب أو نوافذ، قلب ممتلئ حتى لم يعد بالإمكان أن يستوعب قطرة حب واحدة.

هي اليوم أمام صراع مع مشاعرها، ترى أنها بلا منطق، لكنها مشاعر أيضا، لا تستطيع أن توقفها بمنطقه، ومن ذا الذي يملك منطقا يوقف طغيان المشاعر عندما تتدفق؟! أحبت "خالد" وقد كان إنسانا أمامها يمشي على الأرض، كانت تراه، تلمسه، تشمه، تسمعه، تدركه بكل حواسها، وهنا ما يثير جنونها أنها لا ترى من تقودها مشاعرها إليه سوى كلمات خلف شاشة هاتفها، وفوق كل هذا كلما حاولت الاقتراب - علها تنفذ إلى دهاليز حقيقته - تجده يحاول بكلمات لطيفة أن يرجعها إلى الخلف، أو على الأقل يوقفها بمشاعرها حيث هي، يخبرها أن هناك حواجز نفسية وعاطفية بينهما لا تراها، تحتاج إلى زمن ليتجاوزاها

باتجاه بعضيهما، ومع كل ذلك تجد أن لكلماتـه تـأثيرا عكسيا، تجد كلماتـه تقربها إليه أكثر، وتزيد من حيرتها، فتسأله:

-أريد أن أراك؛ لأوقف حيرتي، هل أنت بجمال كلماتك؟

فيرد بلطف محاولا أن يخفف من حدة عمق سؤالها:

-لست بذلك الجمال، إلا أنها أخبرتني يوما أنني وسيم، ربما لأنها كانت تحبني رأتني كذلك.

فتزيد عاطفتها حدة:

-لا أقصد جمال شكلك، فذلك لا يهمني، أقصد جمال واقعك، رغم أنني أصدق كل كلماتك، إلا أنـه من السهل أن يكون الإنسان مثاليا في العالم الافتراضي، بينما يكون شخصية مغايرة في واقعه.

-ليس بالنسبه لي، فجمال الروح والخلق هو سلوك وحياة، ظاهر وباطن، طبع رضعته مع قطرات حليب من أرضعتني الحياة، وتعلمته منها سلوكا وهي تربيني ثم تلبسته مع روحها بعد رحيلها.

فترد وهي متألمة لألمه بصدق:

-رحمها الله، وفي هذا خير عزاء لك، أن تكرم روحها بسلوك محاسنها، قرأت ما كتبت عنها في صفحتك، فبكيت من دون أن أخبرك، أحسست لحظتها أني تشاركت معك لحظة ألم، وأنا أرى الألم الذي في قلبك اليوم نتاج رحيل حبيبتيك، أتعاطف معك لأن لي أيضا أحبابا

رحلوا، وآلمني فراقهم، ربما لم يكن كذلك الرحيل الذي عايشته، إلا أنه كان مؤلما؛ لأنهم رحلوا بلا وداع.

كانت كلماتها مدخلا له ليعرف عن حياتها تفاصيل غابت عنه، ولم يكن يستطيع أن يسألها عنها مباشرة، فسألها وتعمد أن يكون السؤال محددا قدر الإمكان:

-مثل من؟

-مثل "خالد" و"روان" و"مروة".

كم هو مؤلم أنها حتى عندما أجابت بدأت باسمه، وقد ظن يوما أنها نسته فيواصل:

-من هؤلاء؟ وكيف رحلوا؟

-"خالد" هو الحبيب الأول، وقد حكيت لك قصتي معه وكيف رحل، و"روان" كانت صديقة طفولتي وشبابي وشقيقة روحي، ثم عندما تغيرت حياتي جرحتها من دون أن أدرك، فرحلت صامتة، و"مروة" كانت صديقتي في مرحلة من حياتي، حتى ظننت أنها "روان" حياتي الجديدة، رحلت من دون وداع أيضا بعد أن ظلمتني بظنها، ويوما ما عادت لكن شيئا لم يعد كما كان، فقد انكسرت القلوب.

فيواسيها:

-هكذا هي الحياة يا صديقتي.

فتسأله:

-لم تسألني من هي "مروة"!

-ولماذا علي أن أسالك عنها؟

-لأنك تعرفها، فقد غنت لك.

-آها نعم، أعرفها جيدا.

فتكلمت غيرة قلب أنثى يخطو خطواته الأولى لامتلاك حبيب لتسأله:

-هل التقيتها؟!

فيغير محور الحديث بما يشدها أكثر من أن يضطر لقول الحقيقة عن "مروة" أو أن يكذب عليها:

-أعدك أنني لن أرحل عن حياتك دون وداع كما فعلوا، إن غابت عنك كلماتي يوما فاعلمي أنني قد رحلت عن الدنيا، وستعرفين ذلك فسيكتب الكثير عن موت الشاعر (نديم الهجر).

-وسأموت أنا معك، فقد بدأت أحيا بكلماتك.

بدأت شلالات مشاعرها التي تحبسها في صدرها بالانحدار على خواصر كلماتها، وبدأت سيول قلبها تتدفق جارفة كل فلسفته ونظرته للحياة، ليفرض قلبها واقعا بسيطا اسمه الحب بكل وضوح، فيسألها:

-إلى هذا الحد أصبحت مهما في حياتك!

وهنا لم يعد بإمكانها وقف سيول مشاعرها فأجابته:

-وأكثر، ستظنني مجنونه لو أخبرتك إلى أي حد.

رجف قلبه لردها رجفة لم يظن أنه من الممكن أن يرجفها مرة أخرى، كتلك الرجفة التي أوقفت نبضاته، ليسمع منها كلمة أحبك يوم أن قالتها له أول مرة، فيرد وقد أوقف نبضاته ليسمعها بوضوح:

-لا، سأتفهَّم

-رغم كل ما قلته لي إنك لا تستطيع أن تراني، ورغم أنني لا أعرف اسمك الحقيقي، ورغم أنني لا أعرف هل أنت حقيقة أم خيال، ورغم أنني قد جننت أو أنني في لحظة ضعف، إلا أنني أقولها لك بلا تردد "لقد أحببتك بكل ما في".

تنفس وهو يقرأ كلماتها حتى ارتوى، رغم كل ما أقنع به نفسه سابقا، أو أنه قد حسم أمره مع حبها، ورغم كل ما ظن أنه قد وصل إليه من نضج وعقلانية، إلا أن وقع كلمة أحبك وهو يراها مكتوبة أمامه من "أزهار" رمى بكل عقلانيته ونضجه وفلفسته، وكل ما ظنه عن نفسه جانبا، ليفسح المجال لـ"خالد" أن يعود، يحلق مع كلمة أحبك من "أزهار" فوق الغيوم.

وقعها أربك كل حساباته وقناعاته، وقع اهتزت له أركان عاطفته، وقع جعل كل ما قاله لها وما كان يحاول أن يقوله مجرد كلمات، وقع يحلق به الآن فوق تلك الغيمات التي لم يزرها منذ سنين، وقع بقدر ما أسعده في أثناء تحليقه به، يجد أنه يشعره في عودته من التحليق بالحزن.

أحزنه أنها تقول اليوم أحبك لـ(نديم الهجر)، لحبها الجديد، وليس لـ"خالد"، من حيث لا يدري شعر أنهما شخصان منفصلان، كأنه مؤلم أن تقول "أزهار" كلمة أحبك لغير "خالد"، فسألها:

-وهل نسيت حبك الأول؟

-بل أراه فيك.

-أذًا أنت تحبينه في!

فتجيب براءة قلبها:

-أنا لست مثلك أستطيع أن أفلسف المشاعر، لست مثلك أستطيع أن أتحكم بمشاعري وقلبي، أنت لا تعرفني جيدا. كما قلت له يوما بكل مشاعري إنني أحبه، أقولها لك اليوم بكل جوارحي أيضا إنني أحبك، هذه هي مشاعري نحوك، سمها ما شئت، فسرها كما تشاء، فلسفها كما تريد، سأشعر بالندم إن لم أقُلها، مع أنني أنا نفسي تتملكني الحيرة، كيف يمكن أن أحب إنسانا لم أره؟! ولم أسمع منه سوى كلمات، بذات القدر الذي أحببت فيه إنسانا كنت أراه أمامي.

-ألم أخبرك سابقا أن الحب يربك مسارات الحياة؟ ألم أخبرك أن دروبه متعبة؟ انظري كيف كان جمال ما بيننا؟ كيف كنت مصدر ابتسامتك وفرحك؟ واليوم عندما أحببتني بدأت تتحدثين عن الحيرة والألم، تخيلي لو قلت لك اليوم إنني لا أحبك، فأي ألم سأتسبب به لك؟! أخبرتني أنك كنت ترين اسمي على شاشة هاتفك وتبتسمين، إن قلت لك إنني لا استطيع أن أحبك فهل ستبتسمين أم تتوجعين؟ ألم أخبرك أنه كان من الأفضل أن نُبقي على ما بيننا حيثما كان؟!

-ربما الصدمات التي تعرضت لها أربكت مشاعري.

-سأكون بجانبك هذه المرة حتى تجتازي كل مسارات الإرباك.

-بودي أن أقول لك إنني متاكدة يا .. يا من.. انظر، هذا بحد ذاته إرباك، لا أعرف حتى اسمك لأناديك به عندما يحتاج قلبي أن يناديك، بودي أن أناديك يا حبيبي، لكن ذلك سيكون مربكا إلى حد الجنون، كيف أناديك حبيبي قبل أن أعرفك، كما طلبت مني أن أتفهم موقفك أتمنى أن تتفهم أنت ما هو بالنسبة لي أهم من موقف ورأي، أن تتفهم مشاعري وقلبي.

-ولماذا أنا من بين كل الناس وحولك كثيرون؟!

-لا أعرف لماذا، ولا أعرف لم أحببتك أنت، وحولي - كما قلت- كثيرون! هي خيارات قلوب يا من تكتب عن القلوب، وهو ارتباط أرواح يا من تتكلم عن صلات الأرواح ببعضها، هي عواطف تسكنني، وتجيش

في صدري، ولا أملك أن أفعل معها شيئا سوى البوح بها بصدق؛ كي يسكن ما يجتاحني.

كلماتها تمزق قلبه، لا زالت هي "أزهار" التي أحبها في اليوم الأول، لم يتغير فيها الكثير، لذلك هو يعلم كيف ستكون ردة فعلها أمام أية إجابة منه، حتى لو كانت عقلانية لن تتفهمها، لا زالت هي "أزهار" تكرر السير على مسارات قلبها، ولا يهمها إلى أين تأخذها، وكان هو كذلك بل أكثر، لكنه تعلم من الحياة أن يرى مسالك القلوب، أن يسلكها، يرى صدق عواطفها وكلماتها، لكنه يعرف عنها ما لا تعرفه هي عن نفسها، يعرف كوامنها التي تستحث عواطفها اليوم لتسير في دروب حب لا تعرف إلى أين ستنتهي بها.

هي طرف في قصة حب قديمة لم تكتمل، لذلك ترى فيه من ستكمل قصتها معه، هي مجروحة ترى فيه دواء لجراحها، وفي لحظة ضعف وجدت فيه حضنا تستكين إليه بضعفها.

هو يرى أنها إلى الآن لم تحبه لذاته، فهو لا يزال - منطقا - اسما مجهولا، لكنها أحبت كلماته، رفقه، تفهمه، وكل الأشياء التي عرفت عنه، ليس لأنها جميلة فقط، بل لأنها أشياء تنقصها في حياتها، وتحتاجها بشدة.

يعلم أنها لا تحب (نديم الهجر) الإنسان، بل تحب وجود (نديم الهجر) في حياتها، يرى أن حبها لا يزال منقوصا ولن يكتب له نجاح، لا

يزال حبها له أنانية منها، فهي أحبت من تريد، أحبته من دون أن تسأله حتى هل يحبها، لم تتعرف على مشاعره، ولا رأيه، فقط وضعته أمام مشاعرها وافترضت أن عليه تقبلها، تعجلت الوصول إلى نقطة الحسم والخيارات المأمولة.

يريد أن يتمهل معها، أن يتحدث معها، أن يعالجها بالكلمات، يريدها أن تتقيأ ذكرياتها المؤلمة، أن يغسل جراحها المكبوتة داخلها، ثم يعقم بعدها عقلها من لوث الذكريات، حينها ستكون مستعدة للحب بعد أن تسامح كل شي، حينها سيخبرها أنه ليس قصة حب جديدة بل تتمة قصتها القديمة، حينها ستغفر له كل شيء وتحبه لذاته، لأنه هو حبها الأول والجديد، لكنه الآن أمام إلحاح عواطفها واندفاع كلماتها لا يملك إلا أن يواسيها قائلا:

-وأنا مَن حرفته كتابة الكلمات أجد نفسي عاجزا أن أجد كلمه مناسبة لأقولها لك، أشعر بكل كلمة قلتها، لكن قلبي ليس كقلبك يا "أزهار" يتقبل مشاعره ببساطة هكذا، فعلى قلبي الكثير من الركام الذي يجب أن أزيله قبل أن أحب، ركام إن رفعته فسيُجرح كثيرون، وأنتِ أولهم، على قلبي الكثير والكثير من تراب الذكريات، إن نفضته فسيعكر فضاءات حبك لي.

فتسأل:

-لست أفهم، كيف سيؤذيني أن تجد لي مساحة في قلبك؟ رغم أنني قد أساعدك في رفع ركامه، ونفض غباره، ثم أنك بنفسك قلت إنها لن تعود، وإنك لا تنتظرها لتعود، وهي حب قد ماتت أزهاره، فلم لا تدعني أزرع في قلبك أزهارا جديدة؟

هي أزهارك كلها يا "أزهار" ليس هناك أزهار ماتت لتزرعي مكانها أخرى جديدة، هي أزهارك التي طال ذبولها، لكنني أخشى هذه المرة أن تكون إن وقع فراق آخر ...

كانت هذه الكلمات على طرف لسانه تكاد أن تتساقط من بين أنامله ليكتبها، لكنه لن يفعل، لن يحيد عما يريد أن يفعله معها، عليه أن يمتص فورة اندفاعتها العاطفية؛ ليجعلها تهدأ، ثم بعد ذلك يأخذ بيدي قلبها برفق، ويقودها إلى مسارات قد تكتب لحبهما قدرا أفضل مما كان.

-دعيها للأيام، فنحن معا.

كلما ترفق بها ازدادت مشاعرها حدة:

-أنا لست المراهقة التي أحبت "خالد"، ودفعت ثمن ذلك الحب دموعا وسنين من العذاب، أنا اليوم أملك من النضج ما أستطيع أن أحدد به موقفي، رغم كل مشاعري ناحيتك إلا أنني عاقلة بما يكفي لأتفهم إذا لم تستطع أن تحبني، فذلك ليس بيدك، لكنني لن أتفهم ألا أكون في حياتك، ألا أعرفك، ألا ألتقيك، ألا أعرف رقم هاتفك لأحادثك، فهذا أقل حتى من مستوى الصداقة فضلا عن الحب، أستطيع أن أؤجل حبي لك

عندما أكون في حياتك كيانا لكيان، وجسدا لجسد، حينها سأنتظر الأيام لتقرر مصيرنا وأنا أراك وتراني، لأنني حينها سأنتظر حقيقة لا خيالا، إن لم يكن ذلك فسأكتفي معك بعلاقة رسمية بين شاعر وفنانة وانتهى الأمر.

-ها أنت تكررين نفس الخطأ، فأين النضج والعقلانية؟! كما وضعت "خالد" من قبل بين خيارين وخسرتِه، وكما وضعتني حبيبتي بين خيارين وانتهى حبنا.

-لا، ليس نفس الخطأ، هنا الوضع مختلف، يوم أن خيرت "خالد" كنت حالمة، وخذل حلمي، ولم أكن أقدر قيمة الأشياء الحقيقية في الحياة، اليوم أنا أعرف عن الحياة الكثير، ولو عاد بي الزمن لاخترته هو بدلا من حلمي، لكنني معك لا أريد أن أتعذب، أريد أن ترسو علاقتي بك على شواطيء الأمان؛ لأحسم أمري مع قلبي وحيرتي.

-الحب لم يمت يوما يا "أزهار" من الجوع، بل يموت دائما من التخمة، فلا تستعجليه، دعيه ينمو حتى ينضج ثمره، وتتفتح أزهاره، سيكون جميلا في وقتها، سيمنحك لذة وانتشاء وديمومة، لن تحصلين عليها إن استعجلت قطف ثماره قبل أن تنضج، ستجدينها مرة، وبمجرد قضمة واحدة ستلقين بها على الأرض.

-سأنتظر نضوجه لكنني أريد أن أنتظر وأنا بجانبك ومعك.

-ها أنت تفرضين خياراتك علي لتطلبي مني أن اختار منها، متناسية خياراتي ومشاعري.

لكنها واصلت افتراضاتها التي أصبحت قناعات لديها :

-ليس لأجلي فقط، بل لأجلك أنت أيضا، ولأجل حبي لك.

-وماذا ستكسبين من وجودي في حياتك بأكثر مما أنا موجود فيها الآن؟

-السعادة .. السعادة التي حرمت منها طويلا.

-ألست سعيدة الآن من دون "خالد" ومن دوني؟ .. ألست ناجحة ومشهورة؟

-لو عاد بي الزمن لتخليت عن كل شيء لأجله، هل تظن أن السعادة في الشهرة؟ لو كانت كذلك لما منحت شهرتك لاسم مستعار، بل كنت ستكتب باسمك، سأنتظر ردك لأجل سعادتي وسعادتك، وسأتقبل ردك مهما يكن.

❋ ❋ ❋ ❋

(24)

رغم افتراض نضجها ووعيها، إلا أن هناك فيها ما لم يتغير، لا زالت كما هي تبحث عن سعادتها، تحسم خياراتها بناء على ذات المعطيات التي أدت إلى فراق لا تزال تعاني وجعه إلى اليوم، كما فعلتها معه في الماضي، وضعته اليوم أمام خيار حاسم، لكن الكثير من المعطيات قد تغيرت هذه المرة، الحياة نفسها قد تغيرت، هو ذاته قد تغير، وتغيرت نظرته للحياة.

لم يعد ذلك الشاب الغر الذي أربكه حسم الأمر يومها، لم يكن يملك أو يعرف كيف يختار، يومها تنازعته مفاهيم كثيرة، كانت في نظره مقدسة لا يمكن أن يخالفها، ليكتشف بعد كل هذه السنين أنه لا يوجد في الحياة أحوال مقدسة، فقط تتحدد أهميتها بمقدار نظرتنا إليها، تلك النظرة التي قد تكون أحيانا تحت ضغوط كثيرة، تجعلها تبدو وكأنها خيارات حتمية لا بد منها.

اليوم هو قد استعد أساسا لمثل هكذا اختيار، كان يتوقعه، فلم تضعه "أزهار" أمام خياراتها فجأه كما حدث سابقا، كل ما في الامر أنها وضعتها أمامه بأسرع مما كان يتوقع، لكنه كان قد عقد الكثير من الاجتماعات بين قلبه وعقله، بين مشاعره ونضج تجربته.

عندما رأى "أزهار" قادمة على ذات المسار الذي ينتهي إلى المكان الذي كان يتوقعه، وهو يرى الأقدار تسوقها إليه على نفس مواقع

خطاها السابقة، قرر ألا يمنح الأقدار - على الأقل من جهته - نفس المعطيات، ويتوقع نتيجة مغايرة لما سبق، حسم خياره مع الحياة نفسها قبل أن يحسمه مع "أزهار"، كان فقط يبحث عن قلبه وسلام روحه، وقد أعادتهما إليه من دون أن تدري، صحيح أن بعض المعطيات الجديدة كادت أن تغير قراره في وقت ما، بعد أن سمع منها جانب القصة الآخر الذي كان غائبا عنه، إلا أن خياره كان أقوى بما يكفي ليحد من ارتباك مشاعره وتقلبها، لأنه كان خيارا نابعا من تفكير عميق، ورؤية متبصرة، تعلمنا عن القلوب وغرائب حالاتها، كان قد غسل ذكرياته.

كانت تعتريه مشاعر تهزه حتى تكاد أن تربك خياراته، تتلاعب كلماتها بقلبه، فيحاول أن يتفلت من التزامه مع نفسه، استمد خياره قوته، لأنه ذاته كان لأجلها قبل أن يكون لأجله هو، لأجل مشاعرها قبل مشاعره، لن يرحل هذا المرة ويتركها من دون إجابات، سيجيبها، سيحسم خياره وخياراتها.

لا يجد اليوم صعوبة في الإجابة ذاتها، بل كانت هناك صعوبة متأتية من موضوع الإجابة؛ لأنها ستكون إجابه محملة بكل التناقضات التي لا يمكن أن تجتمع معا، ستكون إجابه حاسمة في حالات كثيره، لتضع نقاط السطور الأخيرة على قصة حب، كتبت بداياتها على سفح جبل بعيد، ومن زمن بعيد، قصة فيها فصول من الحب والوصال، وفصول أطول من الفراغ والهجر، لذلك كانت قصتهما وأقدارهما متضادات في أغلب حالاتها، كتب إليها إجابته التي جمع فيها متضادات

روحه ومتناقضات عقله وقلبه، كتب إليها بقلب "خالد" الذي يسكنه حبُها، حبها الذي لم يخفت يوما، وبعقل (نديم الهجر) الذي يرى أن العلاج الناجح يكون مؤلما، لكن ما يعقبه دائما شفاء وراحة، ستؤلمها إجابته للحظة، لكنها سترفق بها للحظات طويلة، كتب إليها ليجيبها بما هو أكثر من حسم خياره، بل مسار حياة بأكملها:

صديقتي الغالية "أزهار"،

وضعتْني من أحببتُ ذات يوم أمام خيارات صعبة، واخترت أصعبها، من دون أن أدري اخترت ألا أقتل أحلامها، لكنني يومها قتلت قلبي، لأنني لم أختر خياري أنا، وقتلت قلبها لأنني لم أخبرها لماذا اخترت، فقط رحلت صامتا من حياتها، لكنني اليوم لن أكرر ذلك معك، سأختار لأجلك وسأخبرك ..

رغم أنك تكررين معي ذات الموقف الذي أخبرتني أنك وضعت "خالد" فيه، ولم يستطع الاختيار، ورحل بلا وداع كما تظنين، لكنني أظن أنه لم يكن يستطيع أن يختار ويخبرك، ها أنت أيضا اليوم تكررين معي ذات الموقف، وتضعينني أمام خيارات صعبة ..

لماذا حياتك كلها خيارات صعبة وحاسمة؟ لن تجدي السعادة هكذا، لأنك تصارعين أقدارك، وتضعينها أمام خياراتك أنت، وهذا هو المستحيل الذي يحرم الإنسان سعادته ..

تعلمت من أمي التي لم تتعلم يوما في مدرسة، بل تعلمت من الحياة نفسها، أن السعادة ليست في أن نطوع الحياة كما نريد، بل أن نتقبلها بحلوها ومرها ونبتسم، أن نشعر بالسعادة لحظة ولادتها، ونعيشها كما هي منفصلة عن الماضي والمستقبل، أن القناعة والصبر والرضا وصفة تحيل مر الحياة لذة لا تموت، أن السعادة لا تكتسب كيفما نريد، ووقتما نريد، بل أنها من تختار كيفيتها وأوقاتها، أن السعادة تأتي عندما نفتح في قلوبنا حدائق للأمل، ونزرع فيها شتلات الرضا، ونسقيها بالتفاؤل، أنها تأتي عندما نتسامح مع كل شيء، عندما نجعل دائما حولنا من نسعد بوجودهم، عندما يكون في علاقاتنا إنسانية وصدق وبساطة ووفاء، هنا نجد السعادة الحقيقية، لأننا نجد أنفسنا ..

اسألي نفسك يا "أزهار" لماذا تبتسمين عندما تتذكرين لحظات السعادة التي كانت تغمرك، وأنت تأكلين حبيبات الذرة المشوية على ساحل البحر مع "خالد"، وأنت لا تملكين شيئا يومها، لأن تلك كانت أقدارك وتقبلتها كما هي، جاءتك بذلك القروي لتحبينه، رغم أنك كنت ابنة مدينة تحلم بفارس أحلام، يأتيك من مدن أجمل ليطير بك وبأحلامك إليها، وعندما رفضت أقدارك وحاولت أن تطوعي الحياة كما تريدين، حققت أحلامك ووجدت فارس أحلام بدا لك لوهلة أنه أجمل حتى من خيالاتك، أسكنك قصرا، ومنحك كل ماديات الحياة، لكنك اليوم عندما تتذكرين ذلك تشعرين بالحزن بدلا من الابتسام، تشعرين أن حلمك تحقق منقوصا، تحقق بلا روح، وحياتك كانت خواء بلا قلب ينبض فيها ..

"أيـن أجـد سـعادتي؟" هـذا السـؤال لـم يحيـرك أنـت فقـط، فكثيـرون ممـن نعـرفهم سـيخبروننا أنهـم يفتقـدون السـعادة، رغـم أنهـم قـد عملـوا جـل حيـاتهم للحصـول عليهـا، لكـنهم واهمـون، فالسـعادة نعمــة مـن الخــالق، مولـودة مـع الطبيعــة، مفطـورة فـي الإنسـانية، أي أنهــا فــي داخلنــا نحــن، نجــدها فقــط عنــدما نتقبــل وجودهــا فــي هــذه الثلاثيــة، فنرضــى بأقــدارنا، ونقتــرب مــن بســاطة الطبيعــة ونتعامــل مع صفاء الإنسانية.

السعادة لم تكن يوما في كم نملك من المـال، بل فـي كيف ننفق مـا نملك، وسأضع أمامك مشهدين للدلالة على ذلك؛

إنسـان يمسـح علـى رأس طفل يتيم أو مشـرد، يمسـح دمعتـه، يسـد جوعـه، أو يـدفيء بـرده بريـالات قليلـة، فيبتسـم ذلـك الطفـل بسـعادة، أي سعادة يشعر بهـا ذلك الإنسـان فليس فـي وقتهـا فحسـب، بـل ستر افقه تلك الابتسامة لتأتيه فـي أحلـك أيامـه، فيتـذكرها ويبتسم يـوم يكـون بحاجـة لأن يبتسم، وإنسان يصنع وليمة كبيرة، يدعو إليها شباعا مثلـه، لا يحتاجونهـا، وينفق فيها آلاف الريالات، هل سيمنحه ذلك السعادة؟ بالطبع لا، وإن كان لجهله سيشعر حينها بوجاهته، فيبتسم لوهله ابتسامة لا علاقة لها بالسعادة أبدا، وحينما يفقد ثروته وينفض السامرون من حوله سيتذكر هذه اللحظـه لتملأه ندما وحسرة ..

السـعادة يـا "أزهـار" ليسـت فـي أن نحقـق أحلامنـا، فـالأحلام لا تنتهـي، كلمـا تحقـق حلمـا ولـد فـي إثـره حلـم جديـد، هكـذا هـي الطبيعـة

البشرية، السعادة تتحقق من ماهية أحلامنا ذاتها، من سمو مضامينها، فكلما ارتقت إنسانيتها منحتنا قدرا أكبر من السعادة ..

السعادة ليست فقط أن نحقق في الحياة لحظات نجاح وفرح، بل أن يكون حولنا من نشاركه فرحنا بصدق، فيفرح معنا بصدق يكافيء فرحنا، السعادة ليست في شهرة بين الناس، بل في أن تدعو لنا قلوب أناس لا نعرفهم، لأننا أسعدناهم، فتأتينا بالسعادة دعواتُهم الصادقة من بين أنات أرواحهم التي داوينا جراحها ..

السعادة أن تتذكرنا شفاه مبتسمة، كنا نحن من رسم ابتسامتها، عندها سنبتسم بصدق وسعادة، ستصلنا دعواتهم وأمانيهم وابتساماتهم عبر صلات روحانية، لا ترى بالعيون، بل تدرك بالقلوب، والقلوب هي مواطن السعادة، كما هي مواطن الوجع، فبذاتِ القَدرِ الذي تسعد به قلوبنا عندما نسعد قلوب آخرين، سنشعر كذلك بألم أشد عندما نؤلم قلوب آخرين..

السعادة أن نعبر رحلة الحياة من دون أن نسبب ألما لغيرنا، لأننا سندفع يوما ثمن ذلك الألم ألما أشد، يكون محظوظا من استطاع أن يدفع الثمن مبكرا، ويتعلم منه؛ ليزرع بدلا من الآلام أملا يخفف أوجاعها، لكن ذلك حظ لا يملكه الكثيرون، فهم يدفعون الثمن بعد فوات الأوان، بعد ضياع السنين، ورحيل القلوب التي جُرحت، ولم يتبق لهم سوى الندم والدموع، وأنَّى لندم أو دموع أن تشفي أوجاعا رحلت بلا شفاء؟!

السعادة يا "أزهار" أثمن من أن نختزلها في تحقيق رغباتنا، وأسمى من أن ننال ما نحب أو نتملك من نحب، فتلك سعادة لحظية لا تدوم، كأن يكون لدينا أطفال نفرح برؤيتهم، نلعب معهم، كأنهم أشياء وجدت لتسعدنا، وتلك سعادة تملك ستنتهي حتما، لأننا أرضعناها من أثداء أنانيتنا، تكون السعادة المكتملة معهم عندما نمنحهم ما يجعلهم سعداء أيضا، وعندما نزرع معهم لحظات سعادة متبادلة، نعطيهم فيها أكثر مما نأخذ، فالسعادة دائما في العطاء لا الأخذ ..

كذلك أنا وأنت اليوم، تظنين أنك ستكونين سعيدة إن التقيتني وعرفتني، أو إن كنا معا، ذلك أنك تريدين ما تظنين أنها سعادتك التي فقدت، وتتمنينها، وأنا أيضا أريد أن أكون معك؛ لأنني معك استعدت قلبي وسلام روحي، منحني وجودك حياة كنت بحاجة لها، لكنني أيضا لا أريد لها أن تنتهي وهي للتو تكاد أن تبزغ بذورها، لا أريد أن أتعجل حصادها قبل أن تقوى على سوقها، قبل أن تزهر، ثم تثمر، وتنضج، فيكون حينها حصادها بحد ذاته حياة فوق حياة.

أنت تقولين لي اليوم أحبك؛ لأنك ترين فيَّ حبك الأول، أو على الأقل من سأنسيك ذلك الحب، لتعيشي معي قصة حب جديدة، دافعك في طلبها أنك تحبينني، لكن بواطنك وجراحك وقلبك - من دون أن تدري - هي التي تدفعك لتحبيني، لأنك بحاجة لهذا الحب، من دون أن تدري تحبين وجودي معك، تحبين ما أضفته لحياتك، تحبين فيَّ ملهمك، وباعث شغفك، لكنك لم تحبيني لذاتي، وأنا هنا لا أنتقص من حبك، بل أكشف لك

كنهه وحقيقته، فأنت لم تريني، فقط أحببتِ ما قرأتِ لي، بينما أنه لو التقينا ربما لكان لقلبك رأي آخر ..

لم تسأليني هل أحببتك أو هل أستطيع أن أحبك، لذلك أقول لك إنك استعجلت حبك لي، فلم تنضج أسبابه، هي لحظة ضعف اعترتك كما أظن، لكنني سأتلقفها بأيد حانية ودافئة، تأخذ بها إلى شواطيء الأمان، وهناك سألتقيك وسأسالك هل تحبينني؟

ورغم كل ما ذكرت أنك تحبينني؛ لأنك ترين فيَّ ما أنت بحاجة إليه وتتمنينه، فإنني أقولها لك اليوم لذاتك لأنك "أزهار"، وأنا أعرفك، إنني أحبك، لكن حبي لك أسمى من أن أتملكك، ولأني أحبك يكفيني أن تكوني سعيدة أينما كنتِ، حتى لو لم تكوني لي، يكفيني أن أزرع بسمة على شفتيك عندما تتذكرينني، يكفيني أن أملأ كؤوسك بالفرح، وستخبرينني بفرحك لأفرح لك أكثر من فرحك لذاتك، وعندما تتألمين ستجدين يدي تربت على كتفيك، لأحمل من عليهما ثقل الدهر راضيا، هكذا سيكون حبي لك يا "أزهار"، حبا بلا شروط، بلا انتظار شيء، يكفيني معك اتصال قلبينا وروحينا، فاتصال الأجساد يقتل القلوب، وينهك الأرواح..

دعي ما بيننا الآن جميلا هكذا، دعيني أتذكرك وأبتسم، وتتذكرينني فتتراقص البسمات على شفاهك، أليس في ذلك سعادة أكبر من أن نلتقي ثم تفرض علينا الحياة شروطها القاسية فنختلف وينطفيء وهج السعادة الذي نتبادله اليوم، وتذبل أزهار السعادة التى بدأت تتفتح

علـى وقـع قطـرات نـدى كلماتنـا؟! أو الأسـوأ؛ أن نفتـرق فأصـبح وجعـا لذكرياتك وأتألم لذكراك.

لقاء الاجساد يقتل الحب يا "أزهار" ليس ذلك تجربتي أنا وأنت فقط، فالحياة لم تقبل يوما قصة حب كاملة، اقرأي التاريخ، هل خلد سوى قصص الحب التي انتهت بفراقات مؤلمة في كل الأمم والعصور؟ اقرأي عـن قصـص الحـب الخالـده؛ "قـيس وليلـي"، "جميـل وبثينـة"، "كثيـر وعزة"، "روميو وجوليت"، "جاك وروز"... كيف كانت قصصهم؟

لا توجد قصة حب انتهت بلقاء الحبيبين وسعادتهما إلى الأبد إلا في القصص الخيالية التي ترويها الجدات لحفيداتهن، قصص تروى فقط لتداعب خيالات تلك العقول الغضة، وتهدهد أحلامها الصغيرة؛ لتنام، بينما قصة الحياة الحقيقية عن الحب أنه يحرم العين من نومها..

مهما كان ردك ستظلين صديقتي الحبيبة، لن أتخلى عنك، ولن أرحل من دون وداع، لأنك كما أحببتني، أحببتك لكن بطريقتي، ستسكنين قلبي، وسأتلبس قلبك، سأمنحك ألقا وشغفا يكونان لك جناحين، يطيران بك إلى آفاق أجمل من الخيال، سأتقبل غضبك وعتابك وحبك معا، بل كل شيء فيك، لأستمد منك إلهاما أكتب لك به كلمات تضيء دروبك..

وختاما، دعينا نبقى قصة حب عذرية، في زمن فقد فيه كل شيء عذريته، دعينا نكون نجمة في السماء تضيء دروب المحبين في كل

حين، دعيني أكتب لك عن الحب شِعرا لتغنيه، فنصنع معا سيمفونية حب خالدة إلى الأبد.

قرأت "أزهار" الرسالة مرات ومرات، رأت فيما كتب حكمة تتفجر بين الكلمات، ورأت وعيا ساميا أثبت لها للمرة الألف أن من كتب لها يؤمن بما يكتب، أثبت لها أنه نوع مختلف من البشر لم تلتقِه من قبل، وأنه ليس كما ظنت من قبل يملك مثالية حالمين، بل مثاليته واقع يعيشه بالفعل، كلماته ذاتها أقنعتها، فتحت مداركها على حقائق أشمل عن الحب وتعريف أكبر للسعادة، فتأثرت بالكلمات، وكيف لا تتأثر وهي تجدها كلمات ترشدها إلى دروب السعادة الحقيقية؟

لا تملك أمام كلمات كهذه سوى أن تتفهمها، لا تملك أن تقول حرفا واحدا، وهي ترى حروفه تترجم مشاعر مرصعة بصدق يضيء ما حولها، لكنها هنا ليست قارئة فقط، هي عاشقة لها مشهدها الخاص الذي يفرضه قلبها، مشهد لا يقبل التحليل والحكمة، مشهد لا تملك معه ترف أن تتفهم أو تتريث، مشهد كان يعتريه في السابق بعض من الريبة والظنون أنه ربما لا يحبها، أو أنه لن يحبها، واليوم قال لها بكل وضوح (أحبك يا "أزهار") فرمى من قلبها الذي يكاد أن يتفلت من مكامنه كلَّ ذرات الظنون التي اعترتها يوما، احتضن قلبها الكلمات بفرح إلى حد البكاء، احتضنت هاتفها الذي يحوي الكلمات، جملة واحدة هي كل ما يهمها، لا يهمها ماذا كتب قبلها أو بعدها؛

أحبك يا "أزهار" لأنك "أزهار".

إذًا هو إنسان، وليس وهما، يملك مشاعر مثلها، وقال لها إنه يحبها، أيقنت أن هذا الوجود الذي أحبته هو إنسان يحبها لذاتها، وهو يعرفها، يسمع لها، يرى صورتها، يعرف من هي، يدركها بكل حواسه، لذلك لم تعترض طريق قلبها الذي غادر صدرها وحلق عاليا ليبحث عن هذا القلب الذي يحبها، ستدعه يطير ليجده، فيعود معه، سيجده بالتأكيد، سيعرفه عندما يراه، وسيراه من بين ملايين القلوب ولن يخطئه.

ترى كل ما قاله جميلا، ليس لأنها تحبه، وليس لأن كل من يحب يرى كل ما يقوله الحبيب جميلا فحسب، بل لأنه فعلا جميل، كما هو دائما، لكنه اليوم أجمل، فقد أنبت في قلبها حدائق لليقين والأمان.

كانت تخشى أن تتعلق بسراب، أن يغلق صفحته يوما ويختفي من حياتها، كانت مشاعرها مرتبكة وجلة متوجسة، تمنت أن يحبها كما أحبته، أن تصبح حبيبته، لكن بقايا عقل ومنطق أوقفت دفق مشاعرها، كونها لا ترى منه سوى كلماته باسم مستعار على شاشة هاتفها، وقد يكون أي شيء، فترتعد جنبات كيانها، وتنقبض نبضات قلبها، واليوم هي لم تعد كذلك، تغير الكثير، نبضاتها اليوم تتراقص فرحا، وكيف لا تفعل وهي اليوم حاضرة في فرح حب؟ بل هي في قلب ساحة أفراح تصدح مزاميرها في أرجاء روحها.

كتب اليوم على جدران قلبها أنها حبيبته كما تمنت، اعترف لها اليوم دفتر العشاق أنه عاشق بحق، ليس ذلك فحسب بل أخبرها أنها معشوقة لن يتخلى عنها، عشقها، كتب لها أنها حبيبته، فتساقطت كل

أوراق الحيرة الجافة، واخضرت أعواد حبها، وستبزغ منها أوراقها الخضراء، لتتزين بها الحياة، كانت أزهارها قد ذبلت منذ زمن، يوم أن كفت قطرات ندى حبها الأول عن التساقط على مباسمها، ثم بدأت ترشف قطرات من نداه، شعرت بها لكن أزهارها كانت محتارة بين التفاح والذبول، واليوم على وقع قطرات حروفه تفتحت أزهارها إلى حد طفرانها بالألق.

واليوم أيضا هي ستكتب له، سترد عليه، سيكتب قلبها كل مشاعره، وهو مطمئن أن قلبه سيقرأ، بل ستُشرِك معها في كتابتها إليه قلبَه هو، ومشاعرَه، وفلسفتَه، فهو قد غدا فوق أنه حبها ملهمَها ومدرستَها في الحياة والحب، ستجاريه راضية كما يشاء، لتخبره أنها قريبة، مستعدة، ناضجة، تستحق عناء لقاء طال اشتياقه إليه، فكتبت:

المهم أنك تحبني، ورغم جمال ما كتبت عن أن نصنع قصة حب عذري، إلا أن ذلك لا يكفيني يا (نديم الهجر)، لا، لن أناديك اليوم بهذا الاسم، بل سأناديك بكل جوارحي وقناعتي يا حبيبي، ولأني أحبك سأقف حيث أنا هنا، حيث أحببتني هنا، حيث ملأتني حياة، ولن أتقدم أكثر، حتى لا تبتعد، سأنتظرك هنا في واحتك التي زرعتني فيها، تحت ظلال أشجار حبك، وسأنتظرها لتثمر كما تريد، لن أمد يدي لأقتطف منها، بل سأضم راحتي ممدودتين حتى تتساقط ثمراتها، فأتلقفها برفق؛ كي أجنبها ألم الارتطام بالارض، وسأغسلها بدموع فرحي، وأحتضنها حتى تأتي فنتقاسمها..

سأسقي أزهار حبنا بكلماتك، حتى تتفتح، وسأصنع لك مهجعا في صدري لتفيء إليه يوم وصولك، يكفيني أنك تحبني، وسأنتظرك عمري بأكمله، وإن رحلتُ عن الدنيا، فسأكتب شطر وصيتي كما علمتني، ليس بترك باب الضريح مواربا، بل بتركه مفتوحا على مصراعيه لتدلف إليه عندما تأتي ..

اليوم لم أعد أبحث عن سعادتي، فقد وجدتها فيك، وزرعت في قلبي سعادة سرمدية سأنتظرك بها..

حبيبي الغالي، أريدك أن تتذكر دائما أن لك حبيبة ستلازم محراب حبك إلى الأبد، حبيبة صادقة أتمنى ألا يطول انتظارها، ألا تموت شوقا إليك قبل أن تراك..

كل ما أطلبه منك اليوم أن تدع قلبك يأخذك إلى أن تفسح لقلبينا طريق لقائهما، لنسعد معا ونحزن معا، لنتشارك الأمل والألم، شهد الأحلام وعلقم الواقع، حلو الحياة ومرها، دع حبنا يموت من التخمة، فهو أرحم من أن يموت جوعا، لملم جراحك وآلامك وتعال إلي لتسند رأسك على صدري، وليلهب حر دموعك جنبات نحري لتطفيء وجعك..

ختاما يا حبيبي، إلى لقاء أتمنى ألا يطول انتظاري له، أعددت أنا مكانه بين حنايا روحي، ويبقي أن تحدد أنت موعده.

أعادت قراءة ما كتبت قبل أن ترسل الرسالة، مستغربة من نفسها، كيف كتبتها؟! أي دفق عاطفي كان يعتريها لتكتب هكذا كما لم تكتب

يوما؟ وكأنه هو من كتب لا هي، كأنها تلبست مشاعره وشاعريته لتكتب إليه، ها هي كتبت مثله، من هناك، من الأعلى، من أعالي قمم السمو الروحي والعاطفي، لكنها رغم المثالية التي تلبستها، كان قلبها حاضرا ليفرض شيئا من طغيان مشاعرها، أوضحت له مجددا أنها تحبه، ورغم أنها تتفهم رغبته في أن يكون حبهما رمزا في سماء حب عذري، فهي تختار، وتكتفي بخيارها أن تكون معه حبيبة على الأرض.

أخبرها أنه رفقا بمشاعرها لا يستطيع الاقتراب منها، ولا يريدها أن تقترب أكثر، فأخبرته أنها ستمتثل لرغبته هذه رفقا بمشاعره هو أيضا، ستقف حيث هي كما أراد، لكنها لن تقف لأجل الوقوف فقط، بل ستقف بانتظاره أن يأتي، لا تستطيع أن تتسامى أكثر من ذلك أمام مشاعرها، فستكون تلك مثالية تقتل حبها.

أخبرها أنه يريد أن يجنبها ولو لحظة ألم واحده قد يسببها لها، فأخبرته أنها تريده بكل آلامه، فأي حب ذلك الذي لا يسبب ألما؟! الحب هو كل لا يتجزأ بآلامه، بأحلامه، بكل تضاداته، بل إن تضاداته هي ما تمنحة حياة يستحق أن يسمى بها حبا، لن يكون حبا إذا لم يكن بغضبه وهدوئه، بعتابه وعناقاته، بدموعه وابتساماته، بألمه وأمله، بجراحه ودوائه.

بعد أن قرأ "خالد" رسالتها، ورغم كل قناعته بما كتب لها وصواب آرائه، فكلماتها أثرت فيه إلى حد تدحرجت معه دمعات على صفحات خده، ليس بسبب مشاعرها ناحيته، فهو يعرف ذلك من قبل، بل

كان مصدر تأثره المنطقية التي كتبت بها، وبلاغة كلماتها، كانت حجته لنفسه أنه سينتظر إلى أن ترقى بمشاعرها في حب (نديم الهجر) إلى الحد الذي يتأكد معه أنها ستسامح "خالد" عندما تراه.

ها هي اليوم لم تسمُ بمشاعرها إلى حيث كان يأمل فقط، بل كادت تكون قريبة من مشاعره هو، كأنها قد تلبست مشاعره ذاتها، وكانت أفضل منه حتى في سموها بمشاعرها، فقد أخبرته بكل بساطة أنها تعرف ما تريد، حتى وهي تتفهم أسباب توجسه من أن يسبب لها الألم، ردت عليه بكل وضوح، أنها تريده ولو كان هو الألم ذاته، أخبرته أنها تريد كل لحظات الحب بسعاداتها وأحزانها، فذلك ما يضفي على الحب عذوبة ولذة، وهي صادقة في ذلك، فهو لم ينس أن أعذبَ لحظاتِ حبِهما تلك الأحضانُ التي كانت تجيء بعد رحيل عواصف الغضب، أن أجمل لقاءاتهما تلك التي تأتي بعد كلمات العتاب، أن أجمل ابتساماتهما تلك التي تُرسم بعد انقشاع سحائب لحظات البكاء.

هاهي اليوم قد وصلت إلى أبعد مما كان يرجو، تعلل لها بما يراه منطقا للحياة، فأجابته بمنطق الحب ذاته، ومنطقها هنا أكثر حججية من منطقه، فالحب هو ما يصنع ما يستحق أن يُسمى حياة لها معنى.

يجد اليوم أن ما كتبه لها مثالية تكاد أن تكون - وهو يعترف بذلك لنفسه على الأقل - أبعد من أن تتحقق، فضلا عن أن تُحقِّق حياة، ويجد ما كتبته هي منطقا سيصنع حبا وحياة، وبعيدا عن المنطقين ونتائجهما أو نسبية تحققهما، وبعيدا عن كل ما يعتريه من عقلانية يعرف سببها، هناك

حقيقتان ماثلتان أمام عينيه الآن؛ الأولى تأخذه في لحظات انتشاء ليحلق بها في فضاءات جميلة يعب من نسماتها حتى يرتوي، والثانية ترديه من تحليقه قبل أن يستمتع بارتوائه.

الأولى أن "أزهار" التي لا يعرف ولم يعرف يوما حبا سواها قد عادت لتحبه حبا أكبر من ذلك الحب الأول، يفرحه ذلك إلى حدود الانتشاء، والثانية معرفته أنه هو ذاته "خالد"، الحب الأول الذي صنع جراح "أزهار"، هذه الحقيقة هي ما تمنعه من أن يذهب إليها من لحظته؛ ليتوسد صدرها، ويزيح عن رأسه ثقل سنين طويلة من الفراق ويقول لها: أتعبني فراقك يا "أزهار".

كان بوده وهو يقرأ رسالتها أن يرد عليها من دون أن يفكر أو يتردد، من دون أن يتأخر ولو لثانية، بمجرد قراءته الحرف الأخير من رسالتها ويكتب لها" أنا قادم الآن يا حبيبتي، ولن يطول انتظارك، فأنا أشد شوقا للقائك"، لكنه لا يستطيع، ماذا ستفعل عندما ترى أنه ليس حبا جديدا سيلملم شتات روحها؟ بل هو حبها القديم الذي بعثر سكون روحها، قد يخسرها للأبد.

ها هي اليوم حقائقه وظنونه، تتزعزع أركانها أمام عواصف تضج بها خلجان وجوده، ها هو أمام مشاعر استيقظت كمارد، يود أن يكتسح كل شيء في طريقه ليلتقيها، لم يعد يكفيه الوقوف معها إلى حيث وصلا، والتمهل إلى حين، لكنه مرغم على ذلك، هناك جبال صماء في

الطريق إليها، ستتناثر أشلاءُ ماردِ مشاعره وهو يصارعها، اكتفاؤه اليوم ليس عن مثالية وزهد كما أخبرها بل خوفا من مآلات اختبر دروبها.

كان يظن أنه قد حسم موقفه من حب "أزهار" منذ زمن، وانتهى الأمر، ولم يكن يظن ولو للحظة أنه قد يحتار أو يتردد، أو يرحل كما فعل سابقا، حينما لم يكن يعرف كيف يجيبها، وها هي قد سألته وأجابها بلا تردد، لكنه يجد نفسه في موقف أشد حيرة وإرباكا من كل ما فكر فيه، فتش في رفوف معرفته، وقلب في مراجع نضجه، ونبش في دهاليز عقله عما يسعفه؛ ليقرر، لكنه وجد كل شيء قد توقف حيث توقف هو، لا يستطيع الابتعاد عنها، فهي حبه الأول والأخير.

سيموت من دونها، ولا يستطيع الاقتراب منها فيفقدها، ويموت أيضا، وهنا لا يلوم عقله لتوقفه عن التفكير، فهو أمام خيارين كلاهما يعني نهايته، كيف لعقل أن يختار بين أن يموت أو يموت، والعقل البشري عندما يجد أمامه خيارين كهذين يعجز عن الاختيار بينهما، فيتوقف رافضا كلا الخيارين، لكن كيف لعقله أن يرفض خيارين هما مدار حياته بأكملها، لا يملك ترف الرفض.

"خالد" المتسمر حرفيا لأيام في لحظته، ولا يستطيع أن يفعل شيئا، وجد نفسه في ذات الموقف الذي وقف فيه منذ سنوات يوم لم يستطع أن يفعل شيئا، بل هو اليوم في موقف أصعب بكثير، يومها كانت حتمية خياراته متأتية من نظرته لها فقط، أثبتت له الحياة فيما بعد أنها كانت مجرد افتراضات منه، كان بإمكانه تجاوزها، لو كان يعرف ما

يعرفه اليوم، لكنه اليوم أمام حتميات لا يفترضها، بل حتميات حقيقية مطلقة إطلاقا وجوديا، لا يمكن لأحد أن يشكك فيها، تماما كالموت والحياة.

وبقدر استغراقه في حالته، يعتريه استغراب عن حالة "أزهار"، هي الأخرى؛ قل تواصلها معه بما يكاد يشبه الصمت، غابت رسائلها وأسئلتها وفضولها، فضلا عن مشاعرها، كانا يتحادثان بما يملأ صفحات الدردشة في الليلة مئات المرات، ويسطران على صفحاتها قصة حبهما كاملة، أصبحت تراسله فقط بين فينة وأخرى، رسائل عادية صباحات ومساءات، رغم أنه فهم من رسالتها الأخيرة أنها ستقف حيث هي وتنتظره، إلا أنه قد رأى أيضا طغيان مشاعرها نحوه يحف رسالتها، مما يشي بأنها ستمطره بما هو أكثر مما اعتاد منها، فقد عرفت أنه يحبها، ولذلك حملت غيوم رسالتها سحائب عواطف تنوء بحملها، وكان قلبها يبرق ويرعد بين غيمات حروفها، مما جعله يترقب مطرا وشيكا بلاشك.

تملكه شعور خفي، تسلل من بين شباك حيرته، أن عليه أن يعد حقوله العطشى لسيول جارفة، إلا أن ما حدث كان خلاف ما توقعه تماما، انقشعت غيوم حروفها بلا مطر، تبددت سحائب عواطفها، لتكشف عن سماء صافية، ليس فيها سوى شمس صامتة، سماء يسكنها هدوء لا يعرف له تفسيرا.

رغم أنه يعاني وهو يحاول كبح اندفاع مشاعره التي تكاد تتفلت منه تجاهها، ومن المفترض أن يكون حاله أفضل عندما لا تثير "أزهار"

بواعث اندفاعها، إلا أنه يجد نفسه أمام شعور يخنقه، أن "أزهار" تبتعد، أو على الأقل تختفي من مشهد حياته الذي اعتاد وجودها فيه، وكأنه كان أفضل عندما كانت تقترب منه، حتى أصبح يشعر بخواء لياليه التي اعتاد أن يدردش معها فيها.

*****

هاتفه صديقه "نايف" ليخبره أن لديهم اجتماعا مهما في الغد، وأن "مروة" ستكون موجودة أيضا، هو يعرف ذلك من قبل، لكنه في خضم اضطراب مشاعره، نسي أشياء كثيرة، و"نايف" ربما لما رأى من شرود صاحبه الذي لا يعرف سببه، ولم يشأ أن يسأله عنه، لأنه يعلم أنه لا يتكلم عن مشاعره أبدا، أراد أن يذكره بالاجتماع.

اتصل بـ"مروة" ليسألها عن موعد وصولها؛ كي يقلها من المطار كما اعتاد أن يفعل، إلا أنها أبلغته أنها قد وصلت، وأرسل "نايف" من يقلها، وعندما عاتبها على ذلك، أجابته معاتبة عليه:

-نسيت أن أخبرك، كما نسيت أنت مواعيد كثيرة معي منذ فترة، ولا أعرف ماذا حدث لك.

في المساء ذهب إلى مكتب "نايف"، المشهد الذي يراه ليس جديدا عليه، فهو يرى أقرب صديقيه اللذين اعتاد رؤيتهما معا، يجلسان متقابلين على طاولة الاجتماعات، لكن هدوءا غريبا يتلبسهما، حياهما ثم جلس فسأله "نايف":

-ما أخبار شاعرنا (نديم الهجر)؟

ليس السؤال المتوقع ليُبدأ به اجتماعٌ كهذا، هو يعلم أنهما يعرفان أنه (نديم الهجر)، لكنه اعتاد منهما أن يناديا باسمه فرد:

-أنا بخير

فسألته "مروة" بدورها:

-هل كتبت شيئا جديدا؟

استغرب السؤال، لكنه أجابها:

-هل تريدين غير ما كتبت لك؟

-لا، ليس لي بل لفنان آخر.

-من هو لتطلبي مني أن أكتب له، وأنت التي لو كان بيدك لما تركتني أكتب لغيرك؟

-إلا هذا الفنان، فهو يستحق أن يغني لك أكثر مني.

أراد أن يلطف الحوار، ويستشف في ذات الوقت سبب حماس كلماتها وجديتها:

-إن كان يهمك إلى هذه الدرجة فلا بد أنك قد وجدت حبيبك المنشود.

فازدادت جدية كلماتها:

-لا، ليس كذلك، فأنا قد وجدت ذلك الحبيب منذ زمن، لكنه كان يحب سواي، ولم يستطع أن يفسح لي مجالا في قلبه، فتركته لأنني أحبه.

شعر بوخزات كلماتها، فرد مواسيا لها بمواربة:

-تعلمين أنه لو كان بيده أن يحبك لفعل.

فردت بلا مواربة:

-أعلم أنك منحتني وستمنحني كل شيء سوى قلبك.

استغرب إشارتها إليه أنه المقصود، لكن ليس هناك معهما سوى "نايف"، وهو يعرف كل شيء، ظن أنها تعتريها لحظة ضعف، وهذا هو سبب كلامها هكذا، وسبب الوجوم الذي يسود المكان، فرد بما يوقف دفقا آخر من مشاعرها، ويخرج الحديث من هذا المنحنى الموجع لكليهما:

-لقد تجاوزنا هذا الحديث يا "مروة"، وما بيننا اليوم أكبر من أن نعيده.

-أعلم ذلك لكنني أستثير مشاعرك.

ارتاح قليلا، ثم واصل تغيير ما ظن أنه محور الحديث والاجتماع:

-وهل أحتاج كل هذه الاستثاره لأكتب له؟

-لا، بل تحتاجها لتلتقيه.

-وما سر تضحيتك لأجله؟

-سر تعلمته منك، أنه يكفيني أن يكون من أحبه سعيدا، حتى لو لم يكن لي، فهكذا سأشعر بالسعادة.

كلماتها أشعرته بالسعادة، فبادلها اللطف لطفا أكبر قائلا:

-أنتِ أروع من تعلم مني، وتعرفين أنني سأفعل كل ما تريدين من دون كل هذه المقدمات، اختاري له ما شئت من قصائدي من دون حتى أن تسأليني.

-سأدعك أنت تختار له.

-لا أعرفه بعد، لأعرف ما يناسبه.

-وقد جئت بك اليوم لتتعرف عليه.

نظر إلى "نايف" الذي كان ساكنا، كأنه صورته المعلقة على الجدار خلفه، فسأله:

-من هو ليعتريكم كل هذا الوجوم والشعور بالأهمية؟!

ليأتيه الرد صوتا لم يعرف هل أتى من داخله أم من خلفه، صوتا غاب عن مسامعه لسنين طويلة، رغم أنه لا يزال يسكنها، صوتا له وقع لا تخطئه أذنيه، مميزا كوقع حبيبات المطر على وجوه حقول استبد بها العطش، صوتا عندما سمعه لم يتلبسه سكون المكان كصاحبيه بل غشيه

صمت مطبق، سمع معه دقات قلبه التي ترجف في صدره، صوتا كم تمنى أن يسمعه، وكم تمنى ألا يسمعه.

التفت إلى الخلف، إلى مصدر الصوت الذي أمسك حباله اليوم ليتتبع مصدره، كما تبعها ذات صباح بعيد تحت شجرة الأثل، ليأخذه إليها، ليراها أمامه، هي هي "أزهار" التي رآها ذلك الصباح، هدأت نبضاته ليدخل ذات لحظة الصمت التي دخلها يوم رآها لأول مرة، نظر إليها، وعندما ملأ عينيه منها، لم يعرف ماذا يقول لها، وهو الذي أعد آلاف الكلمات ليقولها إن رآها يوما، سوى ما أُثبت له ولها أنه لا يزال أمام مرآها ذلك التمثال الإغريقي الصامت الذي شلت حروفه يومها، ولم ينطق سوى أن يسألها ببلاهة المنذهل "هل أنت جنية"؟!

ها هو اليوم لم يجد ما يقوله لها، وهو يراها أمامه سوى أن سألها سؤالا أكثر بلاهة من ذاك السؤال:

-من؟!

لتجيبه وانكسارت الضوء تتلألا على صفحات مآقيها التي تدور فيها دموعها:

-أنا "أزهار" يا "خالد".. "أزهار" التي هجرها الندى.

* * * *

تمت بحمد لله

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/AHMEDALHUSAINI555/

https://www.youtube.com/channel/UC-TG8pLUmUxjyJJNg-eIRcw

https://www.instagram.com/ahmed_alhusaini510/